



ملف العدد:

قراءات في كتاب (الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن)

تطور أسطورة صلاح الدين في الغرب

ميكافيللي: نحو قراءة جديدة

مجلة سياسية ثقافية عامة يصدرها شهرياً مكتب الإعلام للاتحاد الإسلامي الكوردستاني

A political and cultural magazine, issued monthly by Kurdistan Islamic Union

الموقع الإلكتروني: http://alhiwarmagazine.blogspot.com

البريد الإلكتروني: Alhiwar2003@yahoo.com

العنوان: أربيل - محلة طيراوه / مقابل نقليات الشمال / قرب المركز الثاني للاتحاد الإسلامي الكوردستاني

محتويات العدد

هذا الملــف

(الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن)، هو الكتاب التأسيسي الأول الـذي قامـت (مجلة الحوار) بتقديمه كهدية لقرّائها.

في هذا العدد تخصص المجلة ملفاً خاصاً عن هذا الكتاب، حيث يتناول أدباء وأديبـات، من مختلف الدول العربية، هذا الكتاب، بالبحث والدرس والقـراءة، ومـن خـلال ذلـك أمكننا رصد مختلف الآراء والتقييمات لهذا الكتاب.

وما لفت نظرنا هو هذا الإقبال الـذي لم نكـن نتوقعـه علـى هـذا الكتـاب في مختلـف البلدان العربية والاسلامية، حيث تلقينا طلبات كثيرة تطلب منا نسخاً، سواء ورقيـة، أو الكترونية، وقد استجبنا بقدر المستطاع، كذلك وسـائل الإعـلام المختلفـة الـتي نشـرت أخباراً ومقاطع من هذا الكتاب، وكان ذلك بمثابة إشـارة أوليـة بأننـا قـدّمنا كتابـاً هامـاً وغنياً، لاكما رأينا واقتنعنا نحن فحسب، عندما اتخذنا قرار إصـداره عنّـا، بـل كمـا رأى واقتنع أهل الأدب والاختصاص، وكـذلك مختلـف وسـائل الإعـلام في العـالم الإسـلامي والعربي، التي قمنا برصدها، فقـد شـارك في ملفنـا هـذا أدبـاء وأديبـات مـن: العـراق، وسورية، والأردن، ومصر، والسـعودية، والأردن، والكويـت. ومـا لفـت نظرنـا تنـوع اتجاهات المشاركين، ليس في أيديولوجياتهم فحسب، بل في ديانـاتهم أيضـاً، ومجـرد أننـا استطعنا أن نجمع كل هؤلاء على مائدة (الحوار)، فهذا بحدّ ذاته إنجاز للكِتاب، ومكسـب للمجلة، التي اتخذت من هذا الهـدف منهجـاً لهـا خـلال مسـيرتها، وخاصـة في مرحلتهـا الانتقالية الجديدة، ونحن نطمح إلى موقع كوردي لائق بقوميتنا بين سائر الأمم.

يسعدنا أيتها السيدات، والسادة، أن نضع بين أياديكم هذا الملف الغني في مشـاركاته، ونسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعاً إلى ما هو صالح ونافع.

المحرر

تأملات في كتاب

"الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن"★



بقلم: أمين خالد دراوشة - الأردن★★

مقدمة

تتوافقُ العقائد كلها، بأن الله هو ربّ الناس جميعاً، وهو يوجّه لهم التشريعات، ويوضح لهم عنايته ورعايته لهم، حتى يحسوا بالطمأنينة، وهم يعتنقون هذه العقائد. والقرآن الكريم دعوة للإنسان، كي يستنهض حواسه، ويفهم ويعقل مدركات الحياة، فيشعر بالوئام والجدية والمسؤولية بينه وبين مقوّمات حياته، وفي الوقت نفسهِ يحافظ على حياة الآخرين. لذا فإن قراءة القرآن الكريم الدائمة، تجعل صاحبها يتخذ لنفسه منهاجاً تربوياً من قراءته. فهو يتلقّى التربية القرآنية، ويرتقي بها، فيُصبح إنساناً مفيداً ونافعاً. والعلاقة التبادلية بين القرآن وقارئه، تبلغ مراحل متقدّمة من الفهم النوراني، فيتجنّب الوقوع في الأخطاء المميتة، وطريقه تصبح واضحة المعالم ينيرها الهدي الرباني.

قسَّم الكاتب كتابه قسمين، وتناول في قسمه الأول ركائز العَلاقة بين مقوّمات حياة الإنسان، وبين القرآن الكريم، الذي كلما ازداد الإنسان قراءة له، توطّدت تعاليمه في النفس، ومكّن قارئه من تخطّي القراءة الظاهرة للكتاب الكريم إلى تلقّي معانيه، وبالتالي يرتقي بسلوكه الإنساني بمقدار ارتقائه بتلقّي معاني القرآن. ويبلغ مرحلة لا يستطيع فيها الاستغناء عن قراءة القرآن، ويُصبح رفيقه الدائم الذي لا غنى عنه.

لقد اجتهد المؤلّف في تناولِ تفاصيل وقائع الحياة اليومية، وبيَّن أثرَ القرآنَ في سلوكيات الإنسان، وتحدَّث عن المدى العميق الذي يفعله القرآن من تحوّلات كبرى ومفصلية في حياة الناس. وتطرّق إلى كيفية استنباط حدود الله، وحدود الناس في القرآن، وأسهب في

شرح أثر القرآن على مفهوم اللسان للكلمة، وكيف يوظّف نعمة اللسان في استخدام اللفظ الحسن.

وكيف يتحوّل الإنسان إلى صاحب موقف من الحياة، بعد أن يملك الإنسان القدرة على ترويض النفس وتهذيبها.

أمّا القسمُ الثاني من الكتاب، فناقشَ فيه عبدالباقي يوسف، حاجة الإنسان إلى القرآن، وأهمية القراءة الدائمة له، لما لهذه القراءات من انعكاسٍ إيجابيّ على سلوكياته في حياته اليومية، لأن القرآن الكريم هو منهاج حياة يُضيء الدروب المظلمة، ويوصل إلى حياة الطمأنينة والسكينة. وفي الفصل الأخير من الكتاب، يتناول الكاتب فيه (مشكاة قراءة تدبرية لسورة البقرة)، وهي أطول سور القرآن، حيث اجتهد (عبد الباقي) في شرح مكنونات آيات السورة وتفسيرها والكشف عنها.

الكتابُ يناقش علاقة الإنسان بربِّه، والتي هي علاقة الأرض بالسماء، السماء التي لا تحتاج الأرض، بينما الأرض لا يمكن لها إلاّ أن تبقى بحاجة السماء التي تمنحها مقوّمات الحياة والاستمراريّة.

وسعى الإنسان إلى فهم الغيب من خلال إيمانه، واستقباله الرسل، الذين حملوا الرسالةَ الإلهية عبر التاريخ البشريّ، دين الله الذي يقدم للإنسان الكنوز التي لا تفنى، حتى يحسّ بالاستقرار والطمأنينة.

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(سورة يونس: ٥٧).

نور السماء إلى ظلمة الأرض

كتاب التحوّلات الكبرى

يتناولُ الكاتب في هذا الفصل ما يمتاز به القرآن من مقدرةٍ مُذهلة على إمكانية التجدُّد، وقدرته العجيبة على تجدُّد قارئه أيضاً. فالقارئ للقرآن لا يقرأُ كتاباً متجدِّداً

فقط، بل يشعر بطاقةِ التجدُّد تسري فيه، ومن هنا تكمُن مقدرة القرآن على تغيير النّاس بشكلٍ عميق. بحيث ينقلُ شخصاً ما من تاريخ عريق في الإلحاد إلى تاريخ عريق من الإيمان. فهو كتاب التحوّلات الكُبرى في حياةِ الإنسان الفرد، وسلسلة المنجزات البشريّة في كل جوانب الحياة.

إن قراءةَ القرآن المستمرة تقدِّم للقارئ شيئاً جديداً في كُلِّ مرَّة، وتتدلّى مصابيح الأنوار أمامه مع كل قراءة، فيتعرّف على الله بما لم يتعرّفْ عليه من قبل، ويُصبح مقرباً إليه أكثر، وهذا الأمرُ ينشط في نفسهِ الطاقات الإنسانية. ولا شك أن الله جلَّ شأنه ما كان ليأمرنا بإعادة القراءة، لو لم تكن هناك فائدة مع كُلِّ قراءةٍ جديدة.

ويشرحُ الكاتب أهميّة البسملة، فالبسملة فاتحة خير، يحبذ الإنسان أن يفتتح بها كل أمر هو مُقبل عليه، فهي تهب البركة على نتائج ما يقوم به، كما أن ذكر الله يجنّب الشيطان، وتجعله يقوم بعمله على أحسن وجه.

ويوضِّح ما أغلق من معاني فاتحة الكتاب، ويقول: "تفتتح قراءتك لسور القرآن بفاتحة سوره، التي تكون لك معيناً لتلّقي ما ستقرأ من سور، حتى تبلغ ختمة القرآن"(الكتاب، ص٢٥). والتي قال عنها الله إنها (السبع المثاني). فهي كنز من كنوز عرش الرحمن، وتتميّز سورة الفاتحة بأنها أكثر سور القرآن الكريم قراءة في الناس، فهي تقرأ مع كل ركعة في الصلاة، ويستعينُ بها الناس في مختلف مناسباتهم. وهي سورة مُتماسكة ومُترابطة ومُتكاملة، لا تقبل التجزئة، أولها رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة.

وينتقلُ المؤلِّف في الفصل الثاني للحديث عن (حدود الله.. حدود الناس.. في القرآن). ويتناول نزول القرآن في مكّة المكرمة، وهي البقعةُ الجغرافيةُ التي تحظى بمزايا جمّة أهّلتها لاستقبال كلم القرآن، وأن تكون قبلة الدنيا. فمكّة ليست قرية محليّة في عالمنا العربيّ، بل هي قريةٌ كونيّة، تملك كل مقوّمات التأثر والتأثير في العالم بمختلف شعوبه وألوانه.

ومفهوم مكّة القرية يختلفُ جذرياً عن المعنى المألوف للقرية، فهي أعلى درجة من مفهوم المدينة، وهي تشيرُ إلى مكان تجمّعي لكلِّ أبناء العالم. فهي لها خصوصيتها التي تجعلها تختلف عن باقي قرى العالم، فهي "ترمز إلى تبادلية العلاقة بين القرية والمدينة، بما في ذلك من تحولات مجتمعية وبيئية، وكذلك توازنية"(ص٤٠).

وحدود الله هي حدود تحدِّد للإنسان طريق حياته، وهي ليست حدود تفصلك عن أذى الله، بل حدود تفصلك عن أذى نفسك وأذى الآخرين. فوجود الله هو الذي يحدّ من ارتكاب الجرائم، ووجوده هو الذي يجعل الغني يزكي.. فلا بُدَّ أن يكتشف الإنسان

يوماً، أنه غير قادر على الاستمرار في الحياة دون إله ينير دربه.

خصائص العَلاقة بين الإرسال الإلهيّ والتلقّي البشريّ

يُناقش (عبد الباقي يوسف) في هذا الفصل خصائص الإرسال الإلهيّ من خلال ثلاثية هذه العَلاقة: بين الله كمُرسِل، وبين الرسول كمبلِّغ، وبين الناس كمتلقّين.

ويقول: إن مزايا الخطابِ اللغويِّ، الذي هو تكريم من الله للإنسان بإعطائه العقل، ومن ثَمَّ وجّه خطابه لهذا العقل، الذي يملكُ نعمة اللسان الذي يتحدّث عنه. فقد كرّم الله بني آدم بنعمة العقل، لذلك يستطيع الإنسان أن يتقدّم خطواتٍ في درجاتِ السلوك والإنتاج الإنسانيّ. والعقل يستضيء بالدين، فالإنسان يسمُو بقدر ما يملك من دين وعقل.

وورد في القرآن آيات كثيرة، تبيِّن أهمية العقل، وتعمل على تعريفه، يقول تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾(سورة آل عمران، ١١٨). ومن خلال آياتِ القرآن التي تعرف العقل، وتوضِّح أهميته، ندرك أن الإنسان يرتقي في درجات تلقّي معاني القرآن على قَدْر ما يتمكّن من توظيف طاقاته العقليّة بشكلٍ سليم. وبهذا يُصبح القرآن بالنسبة إليه كتاب التحوّلات الكُبرى في طريق حياته. يقول (الحسن بن علي) مُبرزاً أهمية العقل: "ما تمّ دين رجل، حتى يتم عقله"(ص٥٦)

إذن العقل هو ممارسة وسلوك، وتصرّفات حكيمة ترجع بالفائدة على صاحبها، وعلى الناس الآخرين. فالعقل السليم يقود صاحبه إلى التمتع بحياة صحية وسليمة.

وتطرّق الكاتب إلى أهمية اللسان البالغة، فالإنسان هو لسانه، ويمثل ما يكونه. وقد ربط القرآن بين العقل وبين اللسان، وجعل مسؤولية اللسان كمسؤولية العقل. لذا تناول الكاتب مدى تأثير القرآن في بث مسؤولية اللسان عند القارئ المتدبر، فالإنسان يميز عن الكائنات الأُخرى بلسان بليغ، قد يرفعه إلى درجات سمو، أو يطيح به إلى أسفل الدرجات. ومن ضمن الموضوعات التي ركّز عليها المؤلف (المثل في القرآن)، وشبهه بالجسر الذي يتلقّى من خلاله قارئ القرآن كنوز المعنى القرآني، في هذا المنهج من مناهج التربية القرآنية للناس.

فالمثلُ عنصرٌ مهم، وهو أحد مقوّمات القرآن، لذلك فحضوره طاغٍ، ويتكرّر من سورةٍ إلى سورة، فهو يمثل أداةَ الوصل بين القرآن وبين القارئ. ويورد الكثير من الأمثال، التي تمَّ توظيفُها في وقائع مختلفة. ويوضِّح الله جلّ شأنه الغاية من ضرب الأمثال في القرآن، وهي إحداث التحوّلات الكُبرى في حياة الإنسان وسلوكه، وهو يسمُو في تلقّيه للقرآن الكريم. يقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ

الْعَالِمُونَ﴾(العنكبوت، ٤٣).

وهذا الإنسان هو المقصدُ الذي من أجله نزل القرآن، وسائر الكتب السماوية. إن قراءة القرآن تشعرنا بمسؤوليةٍ ورهبة، إننا نحسُّ بعظمةِ الكلمة إرسالاً وتلقّياً. القراءةُ التي تجعلُنا نشعرُ بأهميتها في سبيل أن نعرف أنفسنا والآخرين، والعالم من حولنا، وبالتالي التقدّم خطواتٍ في معرفة الله جلّ شأنه.

قارئ القرآن وفقه الموقف

يتحدّث (عبدالباقي يوسف)، في هذا الفصل، عن قارئ القرآن الذي يستطيع أن يتخذ موقفاً من الحياة. ويقول: إن قارئ القرآن يسعى ليجعل لنفسهِ حضُوراً في الحياة. فأهمية أيّ إنسان وقيمته، تحدّد في الموقف الذي يقفه الإنسان من مجريات أحداثِ الحياة، ومن تفاصيل حياته اليوميّة الاجتماعيّة التي يُمارسها. فالموقف هو: "بصمة الإنسان، وهو خلوده، سواء أكان هذا الموقف سلبياً أم إيجابياً"(ص٩٣).

فالإنسانُ يحتاجُ إلى موقفٍ يقفه من مجملِ مظاهر الحياة، وأن يُعرف بمواقفه، فهناك الكثيرُ من الأشخاص الذين ضحّوا بحياتهم من أجلِ موقفٍ اتخذوهُ في الحياة. وقد خلّد التاريخُ أسماءً كثيرة، وقفَ أصحابُها موقفاً واحداً إيجابياً، فذكّره التاريخ بالخير، وآخر اتخذ موقفاً سلبياً، فخلّدهُ التاريخ بذكرٍ قبيح. فموقفُ الإنسان هو عقيدته، وكلُّ ثقله في الحياة. ويسهِبُ الكاتب في طرحِ الأمثلة عن مواقف صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، كأبي بكر، وعمر بن الخطاب، وأم سليم (وهي أم أنس بن مالك)، وغيرهم.

معالم الطريق ومنعرجات الفوضى

يُناقش الكاتب نظرة الإنسان العبثية إلى نفسه، لأنه يحسُّ بأنه كائن غامض في كوكب مجهول، جاء من مجهول، وينتظره مصير مجهول. ومن هنا يبدأ الإنسان بالتفكير، وينطلقُ ليقرّر ما الذي سيكونه في الحياة. فهل سيبقى في حالة ضياع، أم سيجد لنفسه غاياتٍ وقيماً يلتزمُ بها؟ ولا ريبَ أن العديدين سيقعُون في هاوية الفوضى والدمار، وآخرين سيكتشفون أن الحياة الحقّة تقترن بوجود الله في نفس الإنسان المفكّر والطيّب. ولذلك هو يقبل بشغفٍ على الأعمال الصالحة، لأنها ستسبقه إلى السماء، حيثما يحين أجله سيكون معها.

فالإنسانُ الذي استوعبَ وجود الله، وأنه ينظّم الكون ويديره، سينقذ نفسَه من الفوضى والظلمات، ويتحوّل المجهول إلى مدارج مُضيئة أمامه. فالإنسان كلما استوعب آيات الله، "اتسعت مداركه، وانفتح نضجه، ونظم حالة الفوضى في كوامنه، هذا التنظيم الذي يهب لحياته معنى، وبوجوده كإنسان قيمة غنية"(ص١١٧-

١١٨).

فالإنسان بحاجةٍ لأن يكون مع تعاليم الله، وأن يتعلّم منه، من صلب علاقته بالإنسان، ومن صلب علاقته به جلّ شأنه، نحتاجُ أن نقترب أكثر من رحاب خالق الأكوان. ويُدرك الإنسان هنا ما يريد أن يكونه في الحياة، أن يكون ناضجاً مُستقيماً ذا أخلاق حسنة، أو فاشلاً يسير دون هدى. وهذا الأمرُ يحتاجُ إلى الجهد، وتحمُّل المشاق والصبر والمثابرة والإصرار والإرادة، حتى تبلُغ هدفك الذي وضعته نصب عينيك.

التلقّي القرآني وترويض النفس

توطّد قراءة القرآن نفس القارئ على الصبر والحكمة، وتنتعش نفسه، ويرتاح سمعه، فكلُّ كلمةٍ يقرأها، أو يسمعها، تجعله أكثر توازناً، وأكثر هدوءاً. وبالتالي يُصبح في حياته خبيراً، فيتريَّث في اتخاذِ القرارات، وتكون لديه القدرة على اتخاذ القرارات المناسبة. فالنفسُ تسير خلف توجهات صاحبها، وتنحني لأمره، فالنفس "تقفُ أمام صاحبها القوي بخشوع، ووقار، وتقدير، واعتزاز، وأمان. وتقفُ إزاء صاحبها الواهن بسخرية، واستهزاء، واشمئزاز، وخيبة، وقلق"(ص١٧٠).

والتوغّل بقراءة القرآن، تعلِّم الإنسان أن يسير بهديه، وكيف ينظرُ إلى أساسيات الحياة – ومجريات الأُمور في حياته – نظراتٍ قرآنيّة. ونلحظُ المسؤوليّة الكبيرة اتجاه ترويض النفس، التي يمكن أن تكون فاجرة فاسقة، وتضغط على صاحبها، أو تكون تقيّة ونقيّة، تعطيك زهور تقواها. والمسؤولية هنا تجعلُ الإنسان الحق، يبذُل كُلَّ جهدٍ ليوظّف شهوات نفسهِ التوظيفَ الصحيح.

فميزةُ القرآن أنَّه يُعطينا مكوّنات النفس ومزاياها وتركيبها، وميولها، ويدلُّ القرآن قارئه الفَطِن على الكيفية التي يقود فيها نفسَه، ويعلِّمه كيف يكون ملكاً عليها. وهذهِ هيَ لذةُ السيادة الحقيقة، فالقرآن يُشعرك بمعنى براعة السيادة. والله خلق الإنسان في الحياة، وخلق الحياة فيه، ودائماً يسعى إلى الجديد والتغيير، فالقرآن يحثّك على السعي الدائم إلى حدائق المعرفة، وكلّما فهمت آيات الله في الكون والخلق، اقتربت من الله واقترب الله منك. وليس هناك شعور بالرضا والطمأنينة يُضاهي شعور المؤمن، وهو مستكين في عمق إيمانه بأنه بين يدي الله.

حاجة الإنسان للقرآن، ومتعة العطاء

لما بلغت حاجة الإنسان ذروتها، أرسل الله إليه القرآن رحمة، ونورا يطيح بظلمة الإنسان والأرض. فالقرآن ينظّم للناس مقوّمات حياتهم، ويبيِّن لهم مسالك الخير، ودروب الشر، ويغرسُ في نفسيتهم قيم المحبة والتكافُل الاجتماعي، ويعلِّمهم ما لا يعلمون، ويهذّب

القلـــوب، ويوطّــد الـــروابط الإنســـانيّة في نـوازعهم. فـالقرآن هـو: "كتـاب تشـريعيّ، تنـويريّ، فكـريّ، تعبـديّ، تـأمليّ، معـرفيّ، حقوقيّ، ربانيّ، إنسانيّ، وهـو كتـابُ الـدنيا بامتياز، إلى جانب أنه كتاب الآخرة بامتيـاز، فهـو يخاطـب النـاس الأحيـاء، وموجّـه إلى الأحيـاء، ويتوارثـه الأحيـاء، وينتفـع بـه الأحياء"(ص١٤١).

لقـد أنـار الله الأرض بنـوره مـن خـلال القرآن، والذي ترك أثره على جميع سكان العالم. ويظنّ الكاتبُ أنه ليست هنـاك بقعـة جغرافيّة من الأرض لم تنتفع ولـو بقـبسٍ مـن نور القرآن. وهـذا بـلا شـك فضـلٌ مـن الله تعالى على الإنسان. فالقرآن يكمُن فيه علاج الـروح، ويهـب العلاجـات الشـافية للـذين تعرَّضـوا لاهتـزازاتٍ نفسـيّة حـادّة، ووقعـوا ضحيّة اليأس، فهو يبثّ فيهم الأمل في انبثاق حياة جديدة، فهناك طاقات في نفسِ الإنسـان لا تفتحُ إلاّ عندما يكـون صـاحبها في قـراءة تدبريّة للقرآن. ويكون من تأثير قراءة القرآن شـعور الإنسـان بمُتعـة العطـاء، ومسـاعدة الآخرين. ويتميّز الناس عبر التاريخ على قدر ما يقدّمون مـن عطـاءاتٍ لبلـدهم، والعطـاء بكُلِّ تأكيد لا يشملُ لوناً واحداً، بـل يشـمل العطاء المعرفيّ، والفكريّ، والفنيّ، والطبـيّ، والأخلاقيّ، والماديّ.

قارئ القرآن ومهارة قوة الملاحظة

إن الشخص المواظِب على قـراءة القـرآن بعُمق وتدبّر، يكتسبُ مهاراتٍ عدّة، يستطيعُ أن يستخدمها في حياته المعيشية. فهـو يـتعلّم من قراءاتـه التأمليّـة التفكيريّـة قـراءة لغـات أُخرى، فهو يقدر على قراءة نبرات الصوت، ويميز إذا كانـت تعبّـر عـن صـدق أو ريـاء، ويقرأ لغـة الجسـد الـتي تـدلّل علـى أعمـال ومعان. كما يتمكّن القارئ الفَطِن من قـراءة العيون، الـتي تـوحي بمـا في نفـس الإنسـان. وبحديث الكاتب عن العين وأهميتهـا تكتمـلُ ثلاثية التلقّي والتفاعُل لمعاني القرآن، بعـد أن تحدث عن العقل المفكر، واللسان الذي ينطقُ بما يبثه إليه العقل. وهنا تأتي العينُ الـتي تقـرأ كتاب الله، فيتلقّى العقل ما قرأت، ثـم يبـث بما يبلغه إلى اللسـان، "وهـذا اللسـان يكـون موجّهاً إلى الآخرين في عمليّة التداول المعـرفيّ من جهة، والتطوّر الفكـريّ والحضـاريّ مـن جهةٍ أُخرى"(ص١٧٥). والعين المواظبة على قراءة القـرآن تعشـقُ النظـر إلى كُـلِّ مـوطن جمال، وتنفرُ من النظر إلى كـل مـوطن قـبح. وتجعلُ الإنسان يسلُك في حياته طريـق الخـير والصلاح، لا طريق الشر والخراب.

القرآن الكريم ومنهج الحياة

نجدُ عند قراءة القرآن، أنه يعبّر عـن مـنهج حيـاة متكاملـة، فهـو يتعـرّض لكُـلِّ كـبيرة

وصغيرة تمسّ جوهر الحياة الإنسانيّة. فهو مفصل ويحلّل صلب علاقة الإنسان بالحياة، وعلاقته مع نفسه، ومع الآخرين، وعلاقته بالله. يقوم القرآن بتنظيم الحياة الإنسانية للناس، ويبيِّن لهم طرق توظيف طاقاتهم، ويوضِّح العَلاقة بين الرجل والمرأة، والتي تشكّل البنية الأساسية للمجتمع البشريّ. وقد كرّم القرآن المرأة في الكثير من الآيات، وبيَّن دورها الذي لا تستقيم الحياة بدونه. إن التلقّي القرآنيّ هو "عمليّة فضّ الغلاف عن لُبِّ الكلمة لبلوغ المعنى، هذا المعنى الذي تستخرج منه التدبّر الذي يصلُح لك شأنك"(ص٢١١). ولذلك تراكَ مُواظباً على القراءةِ القرآنيّة، لأنك مع كُلِّ قراءةٍ جديدة تتلقّى معنىً جديداً، يُساعدك على تدبّر شؤون حياتك. بعكس القارئ الذي لا يصلُ إلى لُبِّ المعنى، الذي سيُصبح قليلَ القراءة، لأنه لا يقدر على النفاذ إلى باطن مبنى القرآن.

مشكاة قراءة تدبّريّة لسورة البقرة

يتناولُ الكاتبُ تحت هذا العنوان، كيفية قراءةِ سورة البقرة قراءةً تدبّريّة، فهي سورةُ منهج حياة جديدة، لمجتمع يستمدّ روح تجدّده من ثنايا هذه المقوّمات الجديدة، التي تشرعها هذه السورة العظيمة، وتؤسّس لها. فهي "تقلّب كُلّ الموازين والأعراف السائدة رأساً على عقب، وتسنّ لهذا المجتمع ما يميزه ويجعله متألّقاً ومتأهّلاً لنشر رسالة بلوغ الدين درجة الكمال، وإتمام نعمة الله على الإنسان"(ص٢١٣)، فهي ثورةٌ تنير ما أُغلق على البشر، حملها رجل وصفه الله أنه على خلق عظيم.

يبرّر الكاتب تناوله (سورة البقرة) بقراءةٍ تدبّريّة، تجلو ما تحتويه من لآلِئ، ولاتخاذها أنموذجاً للتلقّي القرآنيّ، بقوله: "إنها أكثر الآيات إسهاباً في التعرُّض لتفاصيل الحياة اليوميّة للناس، فهي تضعُ الإنسان الجديد أمام مرآة ذاته، وتجبره على النظر إلى مكنونات نفسه، وتتيح له النظر إلى آفاق الحياة الرحبة، ليعرف مدى نقاء هذا الإنسان، ومدى ما يملك من عذوبة وشفافية، فهي سورة تشريعيّة، وفقهيّة، ونفسيّة، تضع المحاذير: الحلال والحرام والنهي، وتوضّح حدود الله، لذلك لغتها مباشرة بحيث يفهمها أغلبيّة الناس، وبها آياتٌ لها أكثر من دلالة، وهي "تكشفُ غناها بتغيّر الزمان والمكان"(ص٢١٤)، وكذلك لمكانتها العظيمة في نفوس المسلمين، إذ قال الرسول الكريم: (من قرأ سورة البقرة، توج بها تاجاً في الجنة)(ص٢١٤). وكان الرسولُ (صلى الله عليه وسلم)، كُلّما أراد أن يشحذ هِمّة الصحابة، يُناديهم: (يا أصحاب سورة البقرة).

خاتمة

يخبرنا الكتاب في النهاية، أن الارتقاء في درجات معاني القرآن الكريم، يحتاج إلى تهيئة بدنيّة وروحيّة، ليستطيعَ الإنسانُ القارئ أن يتلقّى جواهِرَ معاني القرآن. وإن القرآن ثريٌّ بغاياتِ البشر ومصالحهم، ويُعطي كُلَّ ذي حاجة حاجته. ويجعلُك "تدرك أبعاد حقوقك في الحياة التي تعيش فيها، وتعلم معالم الواجبات التي عليك تأديتها، وهذا من شأنه أن يحقّق في نفسك شيئاً من التوازن"(ص٢٩٣)، ويمنحك مزية التصالُح مع النفس، وبالتالي التصالُح مع العالَم والوئام معه، وتشعرُ أنك جزءٌ من العالم، وهذا العالمُ يحملُ شيئاً منك.

إن كل قراءة جديدة هي اكتشاف جديد، وعلامة فارقة في محطات حياة الإنسان، وكما لا تشرق الشمس على الإنسان "مكررة مع صبيحة كل يوم، بل يستقبلُ يوماً جديداً، فكذلك الإنسان لا يعيد قراءة القرآن، مهما بلغ في ختمه، بل إنه مع كل بدء للقراءة، يشرع في قراءة جديدة، تمتاز بكُلِّ معطيات الجديد"(ص٣٠٠). ومن بين ثنايا السطور يستخرج القارئون روح الحكمة، ويكون القرآن مبعث طمأنينة وسكينة لهم في الحياة الدنيا والآخرة.

الكتاب غاية في الأهمية، ويتضمّن معلوماتٍ ثمينة، وقد كان لاشتغال المؤلّف في حقل الأدب (الرواية) دور كبير في تناول الموضوع بلغةٍ أدبيّة عذبة وسلسة، تشوّق القارئ لمتابعةِ القراءة حتى نهاية الكتاب، بل والجلوس بعد ذلك للتأمُّل في قدرة الله وحكمته جلّ شأنه. وفي ظلِّ الظروف السيئة المحيطة التي يعيشها الإنسان المسلم في هذا الوقت العصيب، يُصبح للكتاب قيمة استثنائية، لإشاعة الفكر البنّاء، وثقافة الحوار، ولكشف كنوز القرآن الكريم وجواهره، الذي هو منهاج حياة المسلم❐

* منشورات مجلة الحوار، إقليم كردستان العراق، سنة الطباعة: ٢٠١٤م، عدد الصفحات: ٣٠٠.

** ماجستير دراسات عربية، عضو اتحاد الكتاب الفلسطيني. صدر له: الوادي أيضاً، مجموعة قصصية، عن اتحاد الكتاب الفلسطيني، ٢٠٠١م. والحاجة إلى البحر، مجموعة قصصية، عن مركز أوغاريت الثقافي، ٢٠٠٧م. والأنا والآخر في الرواية الإسرائيلية، دراسات، مركز أوغاريت الثقافي، ٢٠١٣م. الأنا والآخر في الرواية الفلسطينية، دراسات، تحت الطبع.

التلفظية ومستويات التلقي في فصل:

(التلقي القرآني وترويض النفس)



محمد المشهوري - أكاديمي سعودي

✍ حاول (عبدالباقي يوسف) في كتابه (الارتقاء في تلقي معاني القرآن)، من خلال فصله السادس (التلقي القرآني وترويض النفس)، أن يلامس أثر القول الإلهي في النفس. والباحث في جنبات هذا التلقي يصل إلى مسلمة ظاهرة، هي وجود الأثر في المتلقي، فهو خطاب الله الذي خلق الإنسان وعلم خصائصه.

تأتي درجات التلقي بحسب اختلاف مدى قابلية المستقبل لهذه الرسالة، وكيف أنه ربما تؤثر فيه فتحقق الهدف، أو أن متلقيها يعرض عنها، ويترك الأخذ بها. هذا القول لا يتنافى مع قولي بمناسبة دراية هذا الخطاب الإلهي لنفوس البشرية–حاشا لله–، على العكس تماما فهو يتكامل معه. يأتي التكامل من حيث تنوع النفوس ذاتها، فكل نفس لها ميولها وأهواؤها وما تسعى إليه، وهنا تظهر معجزات القرآن الكريم في خطابه، إذ يناسب النفوس كلّها على تعدد طباعها، وأخلاق حامليها، فتنوع الخطاب منشأه تعدد النفوس والطبائع.

يتحدث (عبدالباقي يوسف) عن فكرة الإنسان، وعلاقته بالنفس، هذه الفكرة تستمر بعدد من الملامح، فيبدأ بأيهما يسيطر على الآخر: الإنسان أم النفس؟ ويشرح طريقة إمساك أحدهما بالآخر، من أجل

الانقياد لآيات القرآن الكريم. حدوث هذا الصراع لم تكن الآيات خلوا منه، فاستشهد المؤلف بقوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[١].

مناقشتي تنصب من خلال الوقوف على (تلفظية)[٢] السياق القرآني في إرساليته، وهنا أعني[٣] القصد وبغية إحداث الأثر، كما يقول (جين آدم)[٤]. فالفعل الإنجازي يهدف إلى إحداث الأثر المنوط به، من خلال مرسلته الكلامية التي يريدها المرسل من المرسل إليه. ويمكنني توسيع الدائرة أكبر، ببحث قضية التلفظ المشتملة أيضا على ما عناه (أوستين) من أنه عالم من التفاعلات في محيطه.

يأتي سؤال مهم نناقش فيه (عبد الباقي يوسف)، هو: كيف طرح هذا التفاعل، من خلال أثر بنية السياق القرآني في المتلقي؟ هل هذا التفاعل كان في ذهنية المؤلف عندما جعل عنوان فصله (التلقي القرآني وترويض النفس)؟ يمكنني القول: إن هذا التمثل بدا واضحا، من خلال آية استشهد بها على هذه الفاعلية القرآنية، في بنية سياقها، على النفس البشرية، فذكر قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾[٥] هذا الاستشهاد كان موفقا، فالنفس لا تميل في حياتها إلى أشد من المال والنساء والبنين.

إن موقف الناس ببشريتهم، وقت تلقيهم لهذه الآية، تجعل الواحد منهم يقف مع نفسه قليلا، ويتساءل: إنني فعلا كذلك، وهي فطرة الله في خلقه، إذن هي نعيم، فلمَ أُلام عليه؟! لكن هذا التساؤل ما يكاد ينتهي حتى تُختم الآية بما يعيد التفكير وفعل الصواب، ليرجّح العقل كفة الحكمة، وجعل الإنسان المؤمن ينسى شهوات نفسه، فتكون ﴿...وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[٦] هنا يحدث التحول في التلقي: من مجاراة النفس، إلى لجمها عن الانسياق المفرط في ملذاتها، بجعلها زائلة، وعند مقارنة الزائل بالخالد، فلا عقل راجح سيختار النعيم المؤقت.

مناقشة هذا الاستشهاد برؤية تداولية، نجد أن المؤلف حاول إشراك القارئ لسطوره، عموم المخاطبين في الآية السابقة ضمنا، فجاءت الحوارية المضمنة حاكمة للدلالة "العميقة للتلفظ: ما دامت الآلية الإحالية، والمضمون القضوي، والقوة الإنجازية للجملة في وضعية تخاطبية"[٧]. الوضعية التخاطبية المشتركة بين القارئ وذكر عموم الناس في الآية، جاءت من طريقين: الأول: حتمية أن القارئ للآية هو من عموم الناس. الثاني: أن المؤلف وجَّه كتابه للناس، وهنا يأتي منطق إشراك القارئ بمضمون الآية. إذن الآية فيها

مركزية خطاب أعلى، وهي من الله سبحانه وتعالى، ثم جاءت تقنيات المؤلف للإفادة من هذا الخطاب الرباني في توجيه مبحثه، المتعلق بأثر القرآن النفسي على متلقيه.

لا يقف (عبد الباقي يوسف) عند مستوى إشراك القارئ مع متلقي القرآن، فهو يحاول التصريح والانفضاض من شرنقة جمع خطاب طرفين في موضع واحد، بطرح وجه مسالم لتلك النفس، التي ليس شرطا أن تدخل في صراع مع الإنسان، إنما هي المسيطَر عليها من خلال الإرشاد القرآني، الذي كشف بعض أسرارها، فما عادت عصية تواقة إلى التمرد والخروج عن الحد. يشرح هذا المستوى من التلقي، المؤلفُ نفسه بقوله: "عندما نقرأ القرآن، نصبح أكثر معرفة بأنفسنا، حيث يقدم لنا القرآن الكريم مكوّنات النفس، يقدم مزاياها، تركيبتها، ميولاتها. كما يرشد القرآن قارئه الماهر كيفية قيادة النفس"[٨].

لا أستطيع تجاوز هذا الموضع دون أن أثير نقطة للنقاش. كيف للإنسان أن يصل هذا المستوى من التلقي، قبل أن يتجاوز المستوى الأول، المعني بصراع النفس، ومحاولة ردعها، لا سيما خلو الكتاب في مقدمته من العقد[٩] مع القارئ؟ العقد الذي يشير إلى ماهية عقيدة المتلقي، أمؤمن هو بالقرآن أم لا؟ ليس شرطا أن يصرح المؤلف بعقده، كأن يقول مثلا في عنوان الفصل: (أثر تلقي القرآن في ترويض النفس المؤمنة)، ليكون منطلق المؤلف واضحا في نوعية المتلقي ودرجة تلقيه، فالكاتب قد افترض مسبقا أن كل متلقٍ سيسلم له، بينما هذا ليس صحيحا.

صحيح أن القرآن نزل مخاطبا لكل العقول والنفوس، ومن يقترب منه بصدق إقبال، سيجد ما يطمئنه، لكن هذا لا ينسحب على ما كتبه المؤلف، فالله عليم بنفوس كل خلقه، وهذا لا يتحقق في خطاب الإنسان إلى الإنسان. لتقريب هذه الصورة أضرب مثالا: كأن يأتي أحدهم، ويحاول أن يقنع آخر بالإسلام، ومهما أقنع وملك حسن البيان، فقطعا لن يفوق بيانه بيان القرآن الكريم بقصد التأثير، لعجز الإنسان عن إلمامه بكل طبائع النفوس، ليخاطبه من خلال كتاب واحد. ومن يقول إن (عبدالباقي يوسف) تحدث عن أثر القرآن الكريم، ولم يأت بشيء يجاوزه أو يخالفه؟ فأجيب: نعم، لكن المتلقي يفرّق بين القرآن الكريم بوصفه كتابا، وبين كتاب تحدث عن القرآن الكريم، وهنا الاختلاف الذي سأنطلق منه.

أستحضر في هذا السياق قصة (الوليد بن المغيرة)، عندما سمع القرآن الكريم، متلفِّظا به من النبي (صلى الله عليه وسلم). هذا التلفظ بالقرآن الكريم يحمل دلالات خطابية، لها أثرها في النفس الإنسانية المتمردة، فجاء

الخطاب الإلهي في هذا الموقف أبلغ من أي قول، إلى حد التأثير، وخوف قريش من أن يؤمن. موضع جيد هذه القصة للموازنة بين الخطاب الإلهي –وأثره الفاعل الجامح– والخطاب البشري، الذي ما كان في وسع محمد (صلى الله عليه وسلم) إلا استخدامه، وهو أفصح العرب، وصاحب بيانها، مما يدلل على استشعار رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) لأثر القرآن في النفوس وترويضه لها.

أعود فأقول، وحديثي عن توظيف الكاتب للقرآن، لا عن أثر القرآن نفسه: إن ما حاوله (عبدالباقي) في كتابه لشرح أثر القرآن في ترويض النفس، رائع جدا للمسلِّمين بأثره، لكنني لم أجد أدنى محاولة لجعل المتشكك في القرآن يقتنع بالأثر والتأثير. فلنعد إلى المقدمة، ونرى ما يقول الكاتب: "القرآن الكريم هو دعوة للإنسان، كي تستيقظ حواسه على مدركات الحياة، فيشعر بجدية وحميمية ومسؤولية العلاقة بينه وبين مقومات حياته، وبذات الوقت يحافظ على حياة الآخرين...".

لا أجد ذكرا لعقيدة هذا الإنسان: أمؤمن هو أم لا؟ ومن يقول أنه موجه أصلا للمسلمين، فأقول: صحيح. لكن هناك من لا يؤمن بالقرآن، حينها لا يؤثر فيه خطاب الكاتب، لشديد تملك غواية النفس، مما يخرجه من مستويات التلقي بالكلية، ولم يعد خاضعا بعدها لسلطة خطاب المؤلف، الوارد في المقدمة" فالإعراض موجود حاصل. تلمَّس المؤلف شيئا من هذا بداية الفصل[١٠]، ربما دون أن يستحضر هذا، عندما قال: "النفس تتبع توجهات صاحبها، لا توجد نفس لا ترضخ لأمر حاملها".

وأعتذر للمؤلف أنه لم يرد من كتابه، في المقام الأول، أن يكون أداة حجاجية لتقديم الرؤية القرآنية، التي لا تقبل النقاش عند المسلمين، "حيث إن قدرتنا وكفاءتنا في التكلم، إنما هي موضوع جوهري لفلسفة العقل"[١١]، إنما جعل خطابه في الكتاب عاما لكل متلقٍ، ممن هو خاضع لنفسه المتمردة، أو مسيطر عليها، تاركا مدى الاقتناع من عدمه للقارئ. وفي ظني أن استدعاء شريحة أوسع، وقت التأليف، من خلال مواقفهم المتباينة، سيجعل الكاتب يعيد النظر فيما كتبه، ويدلف إلى تقويته، بجعله يخاطب المعرِض والمسلِّم.

لا تبقى التلفظية خارج بنية السياق، فلا تستطيع اللفظة أن تؤدي دورها المنوط بها من خلال أفعال الكلام، إلا بوجودها داخل بنية سياقية تحويها، فعلى" الأقل في كل موقف تواصلي شخصان: أحدهما فاعل حقيقي، والآخر فاعل جهة الإمكان"[١٢]. هنا أستدعي حالة كامل صفحات الكتاب الذي كتبه (عبدالباقي يوسف)، وما حواه من ألفاظ

قصد بها القارئ، ففي تأملٍ نمطي مسلَّم به، أنه وقت تأليفه استحضر أن يكون هناك قارئ لهذا الجهد. هذا الاستحضار هو ما يسمى بالافتراضات المسبقة[13] عند المؤلف عن متلقيه لخطابه/كتابه، ولا أستطيع قياس الافتراضات المسبقة، إلا بعد محاولة تقصي ردات فعل الكتابة على طول صفحات الكتاب، وهو متعذر الآن.

إن القارئ المتلقي ضمن أفق الرصيد الديني، المتشارِك مع المؤلف في مرجعياته الثقافية والدينيةِ[14]، وقت إمساكه بهذا الكتاب[15]، ما يكاد ينفك عن نورانية حرفه، وروح أمله، وجمال روحه" فهو ينطلق من مولِّدٍ قوي، انطلق منه المرسِل/الكاتب إلى رحاب المرسَل إليه/المتلقي، هو القرآن الكريم، حيث يشتركان في التصديق به، والإيمان بنفعية ما جاء لأجله.

من خلال فكرة (ياوس)، في حديثه عن التلقي وإعادة بناء الأفق[16]، نجد المؤلف يوجّه رسالته مباشرة للمتلقي في نهاية الفصل، ولم يعد يجنح إلى التضمين أو التلميح، فيصرح بدرجة أعلى باستخدامه القيمة التأشيرية[17] بما يريده، فيقول: " أنت الآن تجلس إلى مائدة عليها ألوان متعددة من طعام شهي وشراب لذيذ، لقد منحك الله هذا الطعام، ومنحك شهية وقابلية لتناول هذا الطعام، بيد أنك – ومن تلقاء نفسك – تترك شيئا على هذه المائدة، قبل أن تضجره، بل تنهض وفي نفسك رغبة للبقاء مزيدا مع مساميرك. هنا تشعر بقوتك على نفسك، وبسيطرتك على زمامك، وأنك لا تنقاد، بل تقود، لا تَرضخ، بل تُرضخ. ثم ترى هذا بشكل تلقائي يجري على سائر ممارساتك وسلوكياتك في الحياة، وفي الناس، وفي نفسك".

في الختام نخلص إلى أن (عبدالباقي يوسف)، في هذا الفصل، انطلق من قاعدة ودائرتين: فالقاعدة، استخدام التلفظية الجانحة نحو القصدية، وإحداث الأثر بواسطة فعل الإنجاز الكلامي[18]. وأما الدائرتان: فداخلية وخارجية، الداخلية اعتمدت على النص القرآني، والحديث عنه وقت الإشارة إلى النفس وتلقيها للقرآن، ومنها اتجه إلى الدائرة الخارجية، التي طوعها لضم القارئ – المتشارك معه في مرجعياته الثقافية – لخطاب القرآن الكريم. فهي علاقة تكامل مرحلية، لا تنفك إحداهما عن الأخرى❐

السيرة الذاتية:

محمد بن عبدالله المشهوري، ماجستير في الأدب والنقد. معيد في كلية اللغة العربية/ قسم الأدب بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وطالب دكتوراه في قسم الأدب والنقد بالجامعة ذاتها. له عدد من الكتابات في الصحف والمجلات محليا وخارجيا. صدر له: (الحوار في

شعر محمد حسن فقي: دراسة تداولية)، عام ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.

الهوامش:

(١) سورة النازعات: آية (٤٠-٤١).

(٢) التلفظ مصطلح يشوبه الكثير من التداخلات واختلاف الرؤى، فكل منهج نقدي يرى التلفظ من نافذته الخاصة به، وهذا لا يقلق بل يدل على الشمولية وعمق المصطلح، بحيث تعطي كل باحث ما يريده من أدوات، بحسب المنهج الذي يكتب تحت مظلته.

(٣) وذلك خروجا عن بعض ما يحيل إليه المصطلح من خلفيات بحثية غير مقصودة، وتركيز نظر القارئ على مقصود الباحث.

(٤) انظر: د.عبد الواسع الحميري ، ما الخطاب ؟ وكيف نحلله ؟ ، المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر (مجد)، بيروت/لبنان، ط١، ٢٠٠٩ م.

(٥) سورة آل عمران: آية ١٤.

(٦) المصدر السابق.

(٧) فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، (د.ت)، ص:٤.

(٨) اعتمدتُ على نسخة إلكترونية في البحث والنقل.

(٩) العقد: هو محاولة اتفاق يبرمه الكاتب مع المتلقي، لتوجيه فكره ورؤيته تجاه الهدف من الكتاب. وقد يكون من خلال المقدمة، أو الإهداء، أو التمهيد، أو حتى بطرح بسؤال يستفز به قارئه. طرحت هذه الفكرة كون الكتاب كُتب بلغة أدبية، فيه توظيف لكثير من التقنيات الكتابية، مما يبعده عن المسحة الدينية المكثفة، التي هي بالضرورة عقد واضح المعالم.

(١٠) أي: الفصل السادس، وهو ما تناولته بالبحث.

(١١) فان دايك، النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة: عبدالقادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، ط١، ٢٠٠٠، ص: ٢٢٧.

(١٢) المرجع السابق، ص: ٢٥٨.

(١٣) انظر: جورج يول، التداولية، ترجمة: قصي العتابي، دار الأمان، الرباط، ط١، ٢٠١٠م، ص:٥١.

(١٤) انظر: كريمة بنت دغيمان العنزي، تلقي النقد السعودي قصيدة النثر، مطابع جامعة الملك سعود/كرسي الأدب السعودي، ط١، ١٣٤٥هـ/٢٠١٤م.

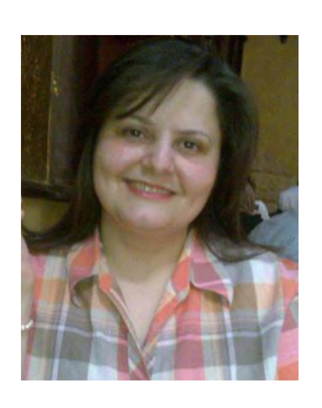
(١٥) عنيت: كتاب (الارتقاء في تلقي معاني القرآن).

(١٦) انظر: روبرت هولب، نظرية التلقي، ترجمة عزالدين إسماعيل، نادي جدة الأدبي، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م. ملحوظة: أحالني إلى هذا المرجع كتاب: كريمة بنت دغيمان العنزي، مرجع سابق، عندما عرضت للحديث عن التلقي والأفق.

(١٧) القيمة التأشيرية تحديد المعنى بالقول عموما. انظر: جورج يول، مرجع سابق، ص: (٢٧)وما بعدها، (٣٩) وما بعدها.

(١٨) انظر: جون لانكشو أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة، ترجمة: عبدالقادر القنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، ط٢، ٢٠٠٨م.

رتبة الفهم الصحيح للقرآن في كتاب الارتقاء



أندره عيد قره - سوريا

لا شكّ أنّ المجلاّت التي تقوم بنشر سلاسل الكتب بشكل دوري، تُساهم بقدر كبير في إعلاء شأن المعرفة والثقافة عموماً، فكيف بها إذا قامت باختيار كتابٍ تفسيريّ، يتعلّق بالعبادة والدين! لروائي له أعمال روائية هامة، سيما وأنّ التفسير هو للقرآن الكريم.. إنّه لَفِعلٌ تستحقّ عليه كل الثناء والتشجيع، والشّكر أيضاً، لما له من آثارٍ تنويريّة تحمل الكثير من المعاني الإيجابيّة.

فهذا يعني أن هذا العمل القرآني سيُكتب بأسلوب روائي مشوّق، وبما يتمتع به الروائي الكبير من حساسية مرهفة، تجلّت في أعماله الروائية، مثل: (إمام الحكمة، دين، خلف الجدار، الآخرون أيضاً، روهات، بروين، جسد وجسد، هولير حبيبتي)، وهذا بذاته يضفي على الكتاب ميزة متفرّدة في مكتبة التفسير القرآني.

وما باكورة سلسلة كتب (مجلّة الحوار) هذه، إلاّ خطوّة مدروسة بعناية، وفق اعتقادنا، في الظروف الرّاهنة التي تمر بها منطقتنا العربيّة والإسلامية، على وجه الخصوص، من حروب وكوارث، ونزاعات أُشعلت باسم الدين.

كتاب (الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن)، للأديب والروائي السّوري (عبد الباقي يوسف)، يأتي في

٣٠٠ صفحة، وقد أُنجز في تسع سنوات، من العمل الجّاد، ونستطيع القول الشّاق أيضاً، الذي بدأ بكتابته في سوريا، وأنهاه في أربيل العراق، معتمداً لغة سهلة جذّابة، وسبك صحيح شيّق، لكلّ من تناوله، للاستزادة أو الاطلاع .

لن أخوض في تقسيمات الكتاب، والعناوين الفرعيّة – حيث أرى بأنّ أغلب الكتّاب سيتناولون هذه التفاصيل في قراءاتهم –، ولكني سأتناول عباراتٍ لامستني، كقارئة لكتابٍ تفسيريّ دينيّ، ربما يختلف عن معتقدي كمسيحية، ولكنّه يتوافق وتنشئتي وثقافتي وفكري.

وهذا ما شدّني إلى قراءة الكتاب، بل والكتابة عنه، فهو جعلني أنظر إلى الإسلام نظرة جديدة، واستطاع أن يقنعني، خاصة في هذا الميقات الحرج، الذي تسعى وسائل إعلام عالمية وإقليمية ضخمة للنيل من الإسلام، وإعطاء صورة مشوّهة عنه. فتعالوا جميعاً إلى متن هذا الكتاب، كي يعلمنا كيف نتجاوز تلك الصور المشوّهة غير الصحيحة، ونرتقي عن ذلك كله في تلقي معاني القرآن كما أنزله الله، وليس كما استغله المستغلون لغايات شتّى.

عبارات ومعان أوقفتني ساعات طويلة، وستوقفني لساعات طويلة:

لا أغالي إن قلت إن الكتاب كله، بكل حروفه وسطوره وصفحاته، أوقفني، وسيبقى يوقفني، ويبقى مرجعاً وحجة لي في حياتي القادمة، بيد أنني أختار جملة من ذلك، ولعلي أقدم دراسة مستفيضة في مناسبة أخرى عن هذا العمل الفذ .

يقول الكاتب:

– " ... الإنسان الذي في الأرض، ليس لديه شيء يقدّمه لربّه الذي في السّماء، لأنّه لا يملك خزائن كلّ شيء، ولا يملك الجديد، الذي يمكن أن يهديه إلى ربّه "، " فكلّ شيء أتاه من السماء"(١).

إنّها نصوع الحقيقة، فلا إهداءات يمكن للإنسان أن يقدّمها لله عزّ وجلّ، فالنِعم والعطايا هي التي يمنحنا إيّاها الله، وبالمجّان، وما تضرّعاتنا وصلواتنا إلاّ فروض تخولنا أن نكون نحن الرابحين دوماً.

– " علاقة الإنسان بربّه هي كعلاقة الأرض بالسماء، السماء التي لا تحتاج الأرض حتّى تكون سماء، بيد أن الأرض تحتاج السماء حتّى تكون أرضاً " (٢).

هي فكرة توضّح احتياج المخلوق للخالق دوماً، فالإنسان دائم التطلّع للسماء، التي فيها عرش الله، وكم يثمر هذا الإنسان حين تكون علاقته متينة

بربّه، لا تشوبها شائبة، وثماره تلك تكون واضحة جليّة ناضجة، يجنيها أيضاً، ويتقاسمها مع بني جنسه، من محبّة وتسامح وتقى.

- " إنّه كتاب التحوّلات الكبرى في حياة الإنسان (أيّ القرآن)، إلى جانب أنّه كتاب التحوّلات الكبرى في سلسل المنجزات البشريّة، على مختلف الصعد"(٣).

ولو أنّ القرآن لم يكن يمتلك تلك التحوّلات، والإحاطة بكل جوانبها، ربما كان الله (جل جلاله)، قد أنزل المزيد من الكتب، ففيه جواب لكل سؤال، لأن لا كتاب من بعده، وأن كل اكتشاف، وكل جواب على سؤال، سوف يأتي في زمانه ومكانه، وبذلك يغتني القرآن، ويمتلك مستقبل الإنسان.

- " إنّ كلّ قراءة للقرآن الكريم، تقدّم للقارئ ما لم تقدّمه قراءة سابقة، وتبثّ إليه أنواراً لم تبثّها قراءة سابقة" (٤).

حالة صحيّحة تماماً، حيث أن كلام الله وآياته، لم تكن موجهة لأناسٍ معيّنين، أو تناسب فترة أو حقبة معيّنة، إنّما هي صالحة لكل زمان، ولكل فرد وجماعة، لكلّ مجتمع وأمّة، إنّها كما المورد المعطاء، فكلما نهلت منه، كلّما أغدق عليك بوافر عطائه ونعمه، لتروي ظمأك، فتهدي بصرك وبصيرتك.

- " ... يبقى الإسلام كبيراً، واسعاً، ومستوعباً الناس كافة، على مختلف معتقداتهم وميولاتهم ونزعاتهم، وبذلك يحقق سمات العالمية الإنسانيّة بامتياز"(٥).

استوقفتني هذه العبارة كثيراً، وأعدتُ قراءتها كثيراً، وسوف أعيد -كما يعيد غيري- قراءتها كثيراً، فما كنت يوماً مقتنعة إلاّ بهذه الفكرة، وخاصّة في بلادنا، حيث يستظل تحت عباءة الإسلام، العديد من الطوائف والأديان، في جوّ من السماحة والتسامح والتآخي، تكاد تنعدم فيه كلمة (الآخر) بمعنى الاختلاف.

- " حياة لا إله فيها، أرض خالية من نفحات الله " (٦).

إنّها عبارة تحريضيّة لكلّ إنسان قد خلا قلبه من الإيمان بالله، وكيف تكون حياته جرداء خاوية، كأرض قاحلة، لا زرع فيها، ولا خصوبة.

- " مع قراءة القرآن الكريم يعترينا إحساس عميق بمسؤولية ورهبة القراءة. إننا نشعر بعظمة الكلمة إرسالاً وتلقياً، ونكون قد تهيأنا جيداً حتى نتلقّى الكلمة " (٧).

إنّها الروحانيّة التي يلمسها المؤمن بشفافيتها، عندما يكون في تماس مباشر وتواصل مع كلام الله، فالإحساس برهبة القراءة، وورعها، تقرب المؤمن من مناجاة خالقه.

- " إنّ بعض القراءات غير المتدبّرة للقرآن الكريم، قد تجعل من قارئها متشدّداً، وقامعاً لنفسه إلى درجة الكبت "(٨):

وكم رأينا بيننا أمثلة حية من البشر، بنماذج لا تعدّ ولا تحصى، قد حفظت كل ما هو مكتوب فقط، فتشدّدت وتعصّبت وتعنتت، وأغرقت في الغلو.

وهنا لا بد لي من القول بأنني تمنّيت على الكاتب لو أنّه تناول القرآن الكريم كاملاً، في كتب قادمة، وفق هذا المنهج التحليلي البارع، المالك لكل مقومات وحجج الإقناع، فتطرّق لجميع آياته، شارحاً لنا ومفسراً، بطريقته الناجحة هذه، ما شُرح عند بعض المفسرين بكثيرٍ من التعصّب، وبالتطرّف، وعند آخرين بكثير من التعقيد والإبهام، حيث كدنا نحتاج لشارحٍ، يشرح لنا ما قيل بأنّه قد شُرح.

مرتبة الارتقاء القرآني

إنّ الأديب (عبد الباقي يوسف)، لَهو غنيّ عن التعريف، حيث اشتهر بأعماله الروائية والقصصيّة أيضاً، والتي تصف - في معظمها- الحياة الكورديّة - السوريّة، حيث أن قضيّة شعبه حاضرة دوماً بكل إخلاص ووفاء منه، في كل ما تمثله، وما كُتُبه التي قد جاوزت العشرين كتاباً، صادرة عن وزارات، ومؤسسات، واتحادات ثقافية وعلمية، في مختلف البلاد العربية والإسلامية، إلاّ غيضاً من فيض عطائه. ولعل ذلك هو الدافع خلف الكثير من الدول لتدريس أدبه في المناهج الدراسية، وما الجوائز الكثيرة التي حصدتها تلك المؤلفات، من سائر الدول العربية، إلاّ نتيجة مواظبته، وفهمه وإدراكه، وسعة أفقه، ووعيه لكلمة إبداع، وإحاطته بأصولها، وامتلاكه لمفاتيحها.

إنّ قراءة هذا الكتاب، لَهي محاولة للوصول بنا لاتخاذ موقف وسطيّ، كي نجيد العلاقة مع ذاتنا والآخرين، ونحسّن علاقتنا مع الله الخالق، فتجعلنا قادرين على فهم القرآن الكريم بانفتاح، بعيدين عن التشّدد والعصبيّة، وفي الوقت ذاته بعيدين عن التراخي، فقراءة القرآن تحتاج إلى قراءة بالشكل الصحيح، لتلقّي مفاهيمه، والوصول لمراميها، بكل أبعادها، وما كان مضمون هذا الكتاب

إلاّ مرتبة من مراتب الارتقاء حقاً، في درجات تلقي معاني القرآن الكريم.

وهنا أقول: لا أقليّات في بلدي، فكلّنا أكثرية في ظلّ وطن، نهبه كلّ قدراتنا النفسية والمعنويّة، والفكريّة أولاً، بحسب مشيئة رب العالمين (جل جلاله)❐

سيرة ذاتية

أندره عيد قره، من مواليد (دمشق)، عام ١٩٧٣. إجازة في الإعلام – جامعة دمشق. عضو عامل في اتحاد الصحفيين السوريين من تاريخ ١٥/ ٢/ ٢٠١٠.

- عملت في مجلّة وجريدة (الثقافة) لمدة ثلاثة عشر عاماً، منذ ١٩٩٧ حتى ٢٠١٠، كمحررة.

- عملت في مجلّة (الاقتصاد العالمي) اللبنانية، بتوصيف وظيفي (أمينة التحرير) بين عامي ٢٠١٠– ٢٠١١.

هوامش:

[١] – الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن، عبد الباقي يوسف، من منشورات مجلة الحوار العراقيّة، ٢٠١٤ م، ص ١٢ .

[٢] – المرجع السابق نفسه، ص ١٣.

[٣] – المرجع السابق نفسه، ص ١٦.

[٤] – المرجع السابق نفسه، ص ١٨.

[٥] – المرجع السابق نفسه، ص ٢٢.

[٦] – المرجع السابق نفسه، ص ٤٥.

[٧] – المرجع السّابق نفسه، ص ٩٢.

[٨] – المرجع السابق نفسه، ص ١٢٢.

الأنساق المهيمنة في كتاب

(الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن)



أثير محسن الهاشمي*

✍ يكرّس الكاتب (عبد الباقي يوسف) في كتابه (الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن) المفاهيم الجمالية للخطاب القرآني، ويتطرق إلى محاور وأنساق مهيمنة، للارتقاء في درجات التلقي لمعاني القرآن الكريم، ومنها: (وعي القارئ – جماليات الخطاب القرآني – العقل/ اللسان)... إلخ من الأنساق المهيمنة، التي تحتاج إلى وقت أكبر، ومساحة أوسع، لعرضها وتفصيلها. لا يسعنا إلا أن نحيي الكاتب الأستاذ (عبد الباقي يوسف)، وهو يفصّل لنا مواضع الجمال في معاني القرآن الكريم، ودرجات تلقيه، على وفق منهجية جليّة وغير معقدة، بالإضافة إلى شرحه وتفصيله وأدلته الشاملة لما اختاره من أمثلة قرآنية، ودعمه لها من خلال الأحاديث النبوية الشريفة.

وعي القارئ (المتلقي)

يطرح الكاتب فكرة (وعي القارئ) المتجدد في ثقافته، والواعي لقراءته. فالقراءة الحق تحتاج إلى إدراك ووعي لما يُقرأ" لذلك نحن إزاء كتاب يهتم بتشكيلات القراءة، ووعيها، تنطلق من

منظور ثقافي يُحدد فكرة القراءة وتنوعها وتجددها في الآن ذاته، كما يبيّن ذلك الكاتب: "إن كل قراءة للقرآن الكريم تقدم للقارئ ما لم تقدّمه قراءة سابقة، وتبثّ إليه أنواراً لم تبثها قراءة سابقة"(١).

إن منظومة القراءة تحتاج دراية تامة بالكلمات، ومعانيها، وأنساق الخطاب القرآني، وجماليته. خاصة تلك القراءة المتعلقة بالقرآن الكريم، وآياته المباركات، وعلى هذا الأساس نجد أن القارئ المتدبر –كما يسميه الكاتب– هو من يكشف (بعض) جماليات القرآن وأنساقه الفكرية، لا (جميعها)، لأننا إزاء إعجاز قرآني متكامل (البلاغة، النظم، الصوت...إلخ). وعلى وفق ذلك، فإن القرآن الكريم بكليته يكون كتاباً جامعاً، ومُعجزاً، فهو يحتاج إلى دراية ووعي تام، بالإضافة إلى أن جزئياته القرآن الكريم من صوت معجز وبلاغة أعجز ونُظم تُبهر العقول.

كل ذلك، وغيره، يدخل ضمن جمالية اللغة، بكلّ تجلياتها. وكيف لا، وهو الخطاب الإلهي المُنزّل من السماء: "كل تأمل، كل نظرة، كل قراءة، تحقق حلاوة: بسم الله الرحمن الرحيم .."(٢)

إن الارتقاء في درجات تلقي القرآن الكريم – كما ينصّ عليه الكاتب – تكمن في ماهية الكلمة ككلمة، والجملة كجملة: "انظر إلى كلّ حرف من حروف البسملة التسعة عشر، التي ميّزها الله بمرتبة أن تكون فاتحة كتابه الحكيم، تأمّل لفظ الجلالة، انظر جمالية تنسيق الكلمات الأربع"(٣).

ويعبّر (عبد القاهر الجرجاني) عن بلاغة ونظم القرآن الكريم قائلاً: "وما من حرفٍ أو حركةٍ في الآية، إلا وأنت مصيب من كل ذلك عجباً في موقعه، والقصد به، حتى ما تشك أن الجهة واحدة في نظم الجملة والكلمة والحرف والحركة، إنما تلك طريقة في النظم قد انفرد بها القرآن، وليس من بليغ يعرف هذا الباب، إلا وهو يتحاشى أن يلم به من تلك الجهة، أو يجعل طريقه عليها، فإن اتفق له شيء منه كان إلهاماً"(٤).

يقرن الكاتب في درجات وعي القارئ ما بين جمالية الخطاب القرآني من جهة، والمضمون الديني من جهة أخرى.

كما يتطرق الكاتب إلى الجانب الأخلاقي، المُتشكل على وفق منظومة القرآن الكريم، والمُتعلق بوعي القارئ ودرجات تلقيه، فالقارئ الجيّد غير القارئ المتوسط، وغير القارئ العادي. فلكل قارئ وعيه وفكره ومميزاته في

القراءة والتلقي، لذلك يحتاج تلقي القرآن الكريم إلى درجات وعي أكبر، وإدراك أكثر، تمتاز فيها القراءة التدبرية، لتكون ذا رؤية صحيحة، كما يشير الكاتب إلى ذلك(٥).

وكل جانب من القرآن الكريم بحاجة إلى ثقافة خاصة، فالجانب الصوتي -مثلاً- يحتاج إلى دراية تامة في المنهج الصوتي وسماته الخاصة، وكذا الحال مع الجانب النفسي، وهكذا.

ويعد الأسلوب التصويري للقرآن الكريم "أداة فعّالة ومؤثرة في جماهير المتلقين للعمل الفني، كما يُنشئ علاقة إيجابية بين محور العمل وعناصره وأحداثه، وبين السامع أو القارئ... والتصوير الجمالي الحي يشيع جوّاً من الحياة في ثنايا القصة، بحيث تنطلق الأخيلة، وتتابع الصور على الأذهان"(٦)

إن القراءة جانب مهم في إنتاج المعنى الصحيح، المتوافق شكلاً ومعنى مع النص، فالقراءة "المتأنية لمعاني ودلالات قراءة البسملة جعلتك تقبل على حمد الله ورب العالمين، ومعنى لفظ الجلالة: يعني المألوه المعبود حباً وتعظيماً"(٧)

جمالية لغة الخطاب القرآني

يذكر الكاتب أن جمالية الخطاب القرآني تكمن في رقي الكلمة، ودلالاتها اللغوية والمعنوية، إذ إن ما يؤديه الخطاب القرآني من جمالية، سواء على مستوى الجزء أو الكل، يندرج ضمن مفهوم الخطاب الصادر من الأعلى للأدنى، كما في الآية القرآنية: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ، نُورٌ عَلَى نُورٍ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)(٨).

يبيّن الكاتب أن ذلك التشبيه في الآية الكريمة يرتقي في بديع المعنى القرآني بقراءتك – الاستنارية – لتعرفك على مثل نور ربك، في علاقة بالغة العذوبة بينك وبين جمالية الخطاب القرآني، وأنت في ذروة محراب عبادة قراءة القرآن الكريم(٩)

إن المعرفة الذاتية لتشبيهات القرآن الكريم للنور الإلهي يفرض علينا عملية التأمل والتدبر في تلك الصور، وذلك

المعنى، فيكون لزاماً علينا أن نتعلم ماهية القراءة الصحيحة والواعية على أساس التأمل والإدراك.

إن الدلالات والصور التي يستشهد بها الكاتب غنية للمتلقي، وهي تعكس فكرة الإعجاز القرآني وخطابيته الجمالية أو جماليته الخطابية، فـ (النور، الماء، الأرض، السماء)، جميعها تشكل منبراً للجمال ومعناه، والحياة وأسرارها:

{وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى كُلوا من طيبات ما رزقناكم}(١٠)

يتجه الخطاب الجمالي للقرآن الكريم باتجاهين:

الأول: الألفاظ وأشكالها وبلاغتها.

الثاني: المعاني ودلالاتها.

ومن ثم يوضح الكاتب أن قارئ القرآن يرى "أن الله يضرب الأمثال، كي يبيّن له بعض الحقائق، ومن ذلك ما قيل عن النبي (عيسى) عليه السلام، حيث شبه الله خلقه بخلق (آدم) عليه السلام، وأخبر الله عباده بخصوصية خلق (عيسى)، وضرب به مثلاً (آدم) عليه السلام"(١١): {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون}(١٢).

العقل/ اللسان:

إن علاقة الإنسان بالقرآن الكريم علاقة روحية وعقلية: فالقراءة، والوعي الفكري، والثقافة الدينية، متعلقة بعقلية الإنسان وإدراكه، إذ إن خصائص العلاقة -كما يعددها الكاتب- مرتبطة ما بين الإرسال الإلهي والتلقي البشري: "بين الله كمرسل، وبين الرسول كمبلّغ، وبين الناس كمتلقين بمزايا الخطاب اللغوي، الذي هو تكريم للإنسان، الذي أكرمه الله تعالى بقسمة العقل، ثم وجه خطاباً إلى عقله، هذا العقل الذي تكلل بنعمة اللسان الذي ينطق عنه، وهو يخاطب عقلاً آخر، فيكون حديث الناس، حديث العقول للعقول"(١٣).

يعكس اللسان ماهية العقل وفحواه، سواء في الوعي أو اللاوعي، وبالتالي يكون اللسان أداة للعقل، يبوح ما يبوح به العقل، ويستر ما يشعر فيه. وقد استشهد الكاتب بحديث للرسول صلى الله عليه وآله وسلم: "أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له: اقبلْ فأقبل. ثم قال له أدبرْ فأدبرَ، فقال عز من قائل: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أعز عليّ منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك أحاسب، وبك أعاقب"(١٤).

إن ماهية العقل مرتبطة باعتبارات شتى، أهمها: التفكير والتدبر. والحلم -كما يصف الكاتب- هو دليل رجاحة

العقل، بدليل قوله تعالى: {أتأمُرون الناسَ بالبرّ وتنسون أنفُسكُم وأنتم تتلون الكتاب َأفلا تعقلون} (١٥).

إن فقه التلاوة ومعناه يختصر الطريق أمام العقل، فالتلاوة عند القراء: قراءة القرآن الكريم متتابعاً، كالأوراد والأسباع. ويراد بترتيل القرآن: تلاوته تلاوة تبين حروفها، ويتأنى في أدائها، ليكون أدنى إلى فهم المعاني(١٦).

فالإنسان –كما يعبّر عنه الكاتب– يرتقي "في درجات تلقي معاني القرآن الكريم، على قدر ما يتمكن من توظيف طاقاته العقلية بشكل إيجابي، فيمسي القرآن بالنسبة اليه كتاب التحولات الكبرى في محطات حياته، وعندئذٍ يقال عنه بأنه إنسان عاقل"(١٧).

إن سلّم الصعود، أو الارتقاء، إلى المستوى الذي يصل به الفرد إلى مرتبة العقل، ليست بالصعبة، كما أنها ليست سهلة، في الوقت ذاته. فما هو معروف أن الناس مراتب، كلّ ومرتبته العقلية والفكرية، فصاحب العلم غير الجاهل، كما في قوله تعالى: {قُلْ هل يَسْتوي الذين يعلمون والذين لا يعلمُون، إنّما يتذكر أولُوا الألبَاب} (١٨).

العقل يورث العلم، فيكون غنياً تابعاً له، والعكس صحيح. وفي ذلك يقول الإمام (علي) في وصية لابنه (الحسن) –عليهما السلام–: (يَا بُنَيَّ، احْفَظْ عَنِّي أَرْبَعاً وَأَرْبَعاً، لاَ يَضُرَّكَ مَا عَمِلْتَ مَعَهُنّ: إنَّ أَغْنَى الْغِنَى الْعَقْلُ، وَأَكْبَرَ الْفَقْرِ الْحُمْقُ، وَأَوحَشَ الْوَحْشَةِ الْعُجْبُ)(١٩) .

كما أن "الذوق أداة العقل والوجدان، لا يصقل إلا بالعلم، ولا يكمل إلا به، ولا يوفق إلا بكثرة مران الحسّ والعقل على رؤية الجميل تلو الجميل"(٢٠).

وعلى هذا الأساس نقول إن ما يميز الإنسان هو العقل لا غير، فالغني غنيٌّ بعقلهِ وإدراكه ووعيه، ويكون على "قدر ما يتمتع به العقل، ويتميز أكثر على قدر ما يوظف هذا العقل في سائر وقائع حياته اليومية. فالعقل نعمة، وكذلك يمكن أن يودي بصاحبه إلى المهالك"(٢١).

وهكذا يأخذنا الكتاب إلى أنساق مهمة في الخطاب القرآني المُعجز. إنه كتاب يحتاج إلى أكثر من قراءة وقراءة، لما يغتني به من معلومات قيّمة، ودراسة وافية لجماليات اللغة القرآنية❐

***عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق.**

له :

- صورة المرأة بين السياب وأدونيس/ دار الكتب الحديثة/ عمان، ٢٠١١.

- المفارقة في الأدب المسرحي العراقي المعاصر/ دار نيبور/ ٢٠١٤.

الهوامش:

١- الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن، عبد الباقي يوسف، مطبوعات مجلة الحوار، ط١، أربيل، ٢٠١٤م: ١٨.

٢- المصدر نفسه: ١٩.

٣- المصدر نفسه: ١٩.

٤- دلائل الإعجاز، عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني، مطبعة المدني، ط٣، القاهرة، ١٩٩٢م: ٤٧٤.

٥- ينظر: الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن، ٢٢.

٦- القصة في القرآن "مقاصد الدين وقيم الفن"، محمد قطب عبد العال، دار قباء، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م: ٣٣.

٧- الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن، ٢٦.

٨- سورة النور: ٣٥.

٩- ينظر: الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن، ٨٤.

١٠- سورة البقرة: ٥٧.

١١- الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن، ٨٩.

١٢- آل عمران: ٥٩.

١٣- الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن، ٤٧.

١٤- المصدر نفسه: ٤٧.

١٥- سورة البقرة: ٤٤.

١٦- فتح الباري، الإمام الحافظ ابن حجر، طبعة الريان: (٨/٧٠٧).

١٧- الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن، ٤٧.

١٨- سورة الزمر: ٩.

١٩- نهج البلاغة، مجموعة خطب الإمام علي عليه السلام، جمعها الشريف الرضي، تحقيق محمد عبد: ٨٧٥.

٢٠- البناءات الجمالية في النص القرآني، رائد مصباح الداية، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية (غزة)، ٢٠١١م: ١٢.

٢١- الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن، ٤٩.

(الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن)
كتاب أوصلنا إلى قطاف مثمرة



رولا عبد الرؤوف حسينات/ الأردن

سبيل الارتقاء القرآني في مواجهة التطرف

بهذا المدخل، أتحدّث عن هذا الكتاب الجديد الذي بين يَدي، لأقول بأن الناظر للخريطة العامة للمعمورة بأهليها، على اتساع الرقعة الامتدادية للوجود الإسلامي، يجد الشخصية المسلمة، التي أثبتت وجودها من قبل ألف وأربعمائة عام، حيث ولجت إلى دين الرحمة السماوية، لتدفع عنها أعباء المادية .. العبودية.. الظلم والفجور.. على الرغم من تباين العوامل الأيديولوجية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية المتفاوتة لصقلهم معا، ولكنها بولوجها إلى بؤرة الإسلام شكلت الشخصية المسلمة، بإحداثيات ثابتة تميز الدين الإلهي، خاتم الأديان السماوية للسلام والطمأنينة، الحوار والتبادل الثقافي، التسامح والعدالة والمساواة..

غير أن تشتت نهج السلوكيات الفردية، الذي ما لبث أن غذى سلوكيات جماعية حملت مسمى (إسلام)، وساهمت بفرز نوعي لأجيال متباينة: جيلاً من القائمين على التفرد النوعي المميز للفرد، ضمن المنظور الوسطي، وجيلاً حمل المنظور التطرفي، وقد أشرب من نوازع ظالمة، لتسمى فيما بعد بـ(الإرهاب الإسلامي).

فالتطرف في اللغة: هو الوقوف في الطرف، وهو عكس التوسط والاعتدال، ومن ثم فقد يقصد به التسيب أو المغالاة، وإن شاع استخدامه في المغالاة والإفراط فقط. والتطرف كذلك يعني: الغلو، وهو ارتفاع الشيء، ومجاوزة الحد فيه. وفي (المصباح المنير): غلا في الدين غلوا، من باب: تعد، أي تعصب وتشدد حتى جاوز الحد. فالتطرف هو الميل عن المقصد، الذي هو الطريق الميسر للسلوك فيه، والمتطرف هو الذي يميل إلى

أحد الطرفين.

التطرف في الاصطلاح: يرتبط بأفكار بعيدة عن ما هو متعارف عليه سياسياً واجتماعياً ودينياً، دون أن ترتبط تلك المعتقدات بسلوكيات مادية متطرفة، أو عنيفة، في مواجهة المجتمع أو الدولة. ويرى البعض أن التطرف يحمل في جوهره حركة في اتجاه القاعدة الاجتماعية أو القانونية أو الأخلاقية، يتجاوز مداها (أي الحركة) الحدود التي وصلت إليها القاعدة، وارتضاها المجتمع.

إن التفريق بين الإرهاب والتطرف هو مسألة جد شائكة، وذلك لشيوع التطرف والإرهاب كوجهين لعملة واحدة، ومع ذلك فالتفرقة ضرورية. ويمكن رسم أوجه الاختلاف بينهما من خلال النقاط التالية:

التطرف يرتبط بالفكر، والإرهاب يرتبط بالفعل، كيف ذلك؟

قلنا إن التطرف يرتبط بمعتقدات وأفكار بعيدة عما هو معتاد ومتعارف عليه سياسياً واجتماعياً ودينياً، دون أن ترتبط تلك المعتقدات والأفكار بسلوكيات مادية عنيفة في مواجهة المجتمع أو الدولة. أما إذا ارتبط التطرف بالعنف المادي، أو التهديد بالعنف، فإنه يتحول إلى إرهاب. فالتطرف دائماً في دائرة الفكر، أما عندما يتحول الفكر المتطرف إلى أنماط عنيفة من السلوك، من اعتداءات على الحريات أو الممتلكات أو الأرواح، أو تشكيل التنظيمات المسلحة، التي تستخدم في مواجهة المجتمع والدولة، فهو عندئذ يتحول إلى إرهاب.

التطرف لا يعاقب عليه القانون، ولا يعتبر جريمة، بينما الإرهاب هو جريمة يعاقب عليها القانون. فالتطرف هو حركة تجاه القاعدة الاجتماعية والقانونية، ومن ثم يصعب تجريمه. فتطرف الفكر لا يعاقب عليه القانون، باعتبار هذا الأخير لا يعاقب على النوايا والأفكار ، في حين أن السلوك الإرهابي المجرم، هو حركة عكس القاعدة القانونية، ومن ثم يتم تجريمه.

يختلف التطرف عن الإرهاب أيضاً من خلال طرق معالجته، فالتطرف في الفكر، تكون وسيلة علاجه هي الفكر والحوار. أما إذا تحول التطرف إلى تصادم، فهو يخرج عن حدود الفكر إلى نطاق الجريمة، مما يستلزم تغيير مدخل المعاملة وأسلوبها..

الإرهاب بذاته تهيئة منطقية لمفاضلة السلوك، التي تتبنى تصوراً منطقياً في أجندتها عديمة الرحمة، في إنهاء وجود المسلم بذاته، بتقتيل المسلمين علانية في أرض الله، ثم غيرهم، في أطر ضيقة من الحكم والقضاء في التطهير العرقي، وهي أبعد ما تكون عن الرسالة السماوية التي عمت البشرية، بالسعادة والخير والإنجاز والإبداع.

وهنا نجد أننا أحوج بأن نعود للقرآن

الكريم كحكم في تشكيل الشخصية الإسلامية، بعلاقاتها المتداخلة مع غيرها من الأمم والعالم الإسلامي، على اعتبارية {لا إكراه في الدين}.. بالعودة إلى القرآن الكريم، والتمعن فيه، والتدبر بآياته، لإحلال روح السكينة والألفة، وتوسيع قاعدة الفهم العامة، المترابطة مع العولمة بأوجهها المختلفة..

وقد ناقشتْ عدد من الكتب فكرة التلقي والرقي بطرائقها، وقد تنوعت بأساليب عرضها للدارس، وفق معايير متباينة بين السهولة والتعقيد، ومن بين هذه الكتب التي فصلت فكرة التلقي: (نعت الدرجات لتلقي القرآن والقراءات)، للكاتب (صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي)، ويحمل الكاتب في مضمونه ما يجب أن يتصف به الطالب والدارس في أدب القرآن الكريم، وتلقيه، والحرص على الرقي في تقانة التجويد، ومخارج الحروف. وتعرض للقراءات العشر، وغيرها من القراءات.

ومنها: الحضور القرآني والصوفي في (مواقف الألف) للشاعر (أديب كمال الدين) لـ (فاضل عبود التميمي).. وكذلك كتاب (كيف نفهم القرآن الكريم؟ للكاتب (عبد السلام بن إبراهيم بن محمد الحصين)، وهي دراسة في كيفية فهم المتلقي للقرآن الكريم. وقد تعرض بطريقة سلسة لأساليب الإقناع في القرآن الكريم، ووسائل وأساليب الإقناع في الرسالة الاتصالية.

للمتفحص في ماهية الطرح لمجموع هذه الكتب، التي وقفت على قضية المتلقي، وآلية تلقي النص القرآني بوسائط ناقلة، تتباين في الأسلوب والنمطية والانبعاثات العاطفية أو القلبية، نجد أنها أسهبت بشكل مستفيض بقضية بحثية، تمايزت، وكيفية طرح الكاتب السوري (عبد الباقي يوسف)، وهو تشكيل لقضية خصص لها كتاباً مفصلاً، محكماً في طرحه وغايته، ليس منوطاً بكيفية التلقي، بل والارتقاء في تلقي معاني القرآن الكريم، بسلاسة تفقهية مقربة، بل محببة للقلب.. حيث لم يعمد الكاتب إلى تعقيد الصورة في الطرح بل تبسيطها، ليصل إلى أكبر شريحة، مسلمة كانت أم غير ذلك..

بأسلوب دعوي لمتشوق عاشق للقرآن، سابح بترتيله آناء الليل وأطراف النهار، وما جنح لرخامة اللفظ والتعقيد، بل انسيابية مريحة من الملقي للمتلقي، ليعتلي درجة متقدمة من التقييم، من حيث القبول والقراءة، بل وإعادة قراءة الكتاب لأكثر من مرة، بعيداً عن الملل..

كيف لا، وهو يمحص بحذاقة آيات الله ليفرد تلامسها الحياتي مع كل مفردة سلوكية كاستجابة أو كسلوك فطري.. (عبد الباقي يوسف) روائي وكاتب سوري، تفرد بأسلوبه الروائي بطرحه الكتاب، وسهولة

التبحر في عبابه، والانتشاء بقيمه.. له العديد من المؤلفات الروائية، والناقدة، والكتب الإسلامية، مبرزاً لنا حصيلة فكرية متقدة، مبسطة في منهجية التلقي ذاتها، بين أصول البنية التكوينية للتواصل بين الملقي والمتلقي، وماهية الكتاب، الذي يتداول فيه موضع الإلقاء، بطرائق لم تكن عبثية في اختيار أوجه البحث، ليحمل هكذا عنوان، يناقش فيه النص القرآني من منظور موضوعي عقلاني.. وعرض ذلك من خلال بابين: (نور السماء إلى ظلمة الأرض) و (فضل القران على الإنسان).. لعلني أستفيض وروح الكاتب بدلالته وطرحه من روح معطاءة عميقة، في الدلالة والاستدلال على واقع الصلة بين القرآن والمتلقي، وهو ليس كأي كتاب يُملُّ ويهجر، إنما كتاب متطور في الطرح، متوافق بين كل معتركات الحياة، بشرائع ونصوص وآليات تفكريّة.. وهو الكتاب المتجلي إنسانه فيه، من حيث النوعية القرائية، أو المغزى من التدبر والدعاء والغاية الاستدلالية، التي تنمي تلكم العلائق العميقة بين القرآن ومرتله.

وقد تعددت القراءات لتتوافق واحتياجات الفهم والإدراك لجميع المسلمين حول العالم، من حكمة يقينية من الخليفة (عثمان بن عفان)، ثالث الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) وأرضاهم، وفق منهجية السلاسة في النطق اللغوي، ليتوافق ومخارج الحروف، وليكون القرآن سلسلاً في التعايش اليومي..

وهو الكتاب السماوي الذي ما كان نزوله على سيد المرسلين وخاتم النبيين إلا هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، فيفرض الطريق اللاحبة ظلاله على حامله، ليرقى به إلى حالة من التوازن العاطفي والعقلي، في جميع مجالات الحياة.

لقد قدم لنا الكتاب مقومات التشويق الحاكي لنسيج الحياة، متغلغلاً في شغفات لفائف متراكمة من التلقي النوعي المعرفي..

فهو الإنسان المنوط به المسؤولية، المستخلف في الأرض، مذللة له بالكيفية التي يرضاها بفطرته السليمة، ليقدم قرابين الشكر لله تعالى على هذه الهبة، مستقرئاً النصوص، متدبراً أحكامها، لينفذ هبة الله له على أكمل وجه، وعلى أحسن صورة، وليستقر أمره بالعبادة، حمداً وشكراً لرب السماء والأرض..

التحوّلات الكبرى

استقبلنا الكتاب بالتحولات الكبرى، بمفردة القدرية: وما كان لينفعك ما كان ليضرك، فكل بأمره، بيده الأمر كله، عالم الغيب، الرحمن الرحيم.. ليعجل علينا يقين الرحمة الإلهية، وهي الفاتحة، ومن ثم ليختتم بسورة البقرة، وهما هبتا الرحمن من تحت العرش، منتان من الرحمة.. تلكم السبع المثاني

والقرآن العظيم.. لنبتل وإياه في التفحص الدقيق لآياتهما، كل على حدة، بالمعنى والمقصود، لينطق طاقة العقل المكبوتة المصفدة بغيبية الغاية، إنها ليست مجرد آيات بقدر ما تقوم به من النطق الأجوف للآيات، لكنه أسلوبه العقلي في المخاطبة، للتقرب لمنابت الرحمة: رحمة الخالق بالعبد الفقير الذي ليس له ملجأ ومنجى منه إلا إليه، وإن بلغ هذا الإنسان أعلى المراتب، فسيبقى صغيراً أمام عظمة الخالق.

فالرحمة استأثر بها الخالق، وجعل للخلق جزءا بسيطاً منها، ليتوب إليه مسيء الليل، ومسيء النهار.. يبتغون رضوان الله.. إنها المصالحة مع الذات لتحقيق التوازن، لتحيل الذنوب إلى نعم بالحسنات.. ووصل بنا الكاتب لمفردات لم تتجاوز تصرفاتنا الذاتية، ليعيد إلى أذهاننا أهمية البسملة في كل حال، وفي كل زمان، ومع أي أمر، لتغير كل مكونات الموجود بقيمته، وكونه من التهذيب الذاتي.

وهيأ لنا هذا الكتاب مرجعية تفسيرية للولوج للنص القرآني، من وجهة تفسيرية تقويمية للسلوك الفردي، بتهيئة الجو العام، والخلق الكريم في السلوك القويم، وأوجد النقيض، ليتنبه العقل بخطأ التضادية السلوكية..

وعليه فقد بنى لنا بنياناً من التهيئة الحسية السلوكية، القائمة على العقلانية المنطقية في ضرورة التواجد المتوازن للشخصية التكاملية، بالسلوك المتعبد في الصلاة أو الصيام وغيرها، وأهمية الغاية منها بثورة التفسير..

فقه حدود الله في التلقي القرآني

ودرج بنا الكاتب في تبيان تقسيم آيات القرآن الكريم، التي ما يدرك حصافتها إلا متعمق دارس.. وقد نهل من جل وقته معرفة خالصة، بيّنها ببضع سطور، نغتنم فيها الرؤية المتكاملة للنص القرآني، وأنواع الطرح فيه، ليرقى بنا ليس من مجرد قارئ أو مسترسل بعينيه، بعلم أم بغيره، ليُعدَّنا لنتفقه بأمور ديننا، وإن لم نصل لمراتب المرتلين..

"انحصرت سور القرآن وآياته في ستة أنواع: ثلاثة منها هي السوابق، والأصول المهمة، وثلاثة هي الروادف والتوابع المغنية المتمة. أما الثلاثة المهمة، فهي:

١ تعريف المدعو إليه.

٢ وتعريف الصراط المستقيم، الذي تجب ملازمته في السلوك إليه.

٣ وتعريف الحال، عند الوصول إليه.

وأما الثلاثة المغنية المتمة – فأحدها: تعريف أحوال المجيبين للدعوة، ولطائف صنع الله فيهم، وسره ومقصوده: التشويق والترغيب. وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن الإجابة، وكيفية قمع الله لهم، وتنكيله بهم، وسره ومقصوده: الاعتبار، والترهي.

وثانيها: حكاية أحوال الجاحدين، وكشف فضائحهم، وجهلهم بالمجادلة والمحاجة على الحق، وسره ومقصوده، في جنب الباطل: الفضح والتنفير، وفي جنب الحق: الإيضاح والتثبيت والتقهير.

وثالثها: تعريف عمارة منازل الطريق، وكيفية أخذ الزاد والأهبة والاستعداد. مفصلة السوابق والروادف والتوابع المغنية المتمة..

لقد أوجد الأديب اليوسف في كتابه القيّم، بطريقة ما مدخلاً لبوابة زمنية تفصلنا عن ترهات حياتنا، الحدود.. ومن منا لا تشكل له الحدود هاجساً.. غاية.. عبئاً..؟

أيا كان ما تشكله الحدود لنا، فهي موجودة بواقع جغرافي متأصل الجذور، وإن كان أمرنا مصغراً في البيت الواحد، المكتب الواحد.. بل السيارة أو الوسيلة التي تنقلنا، توجد لنا حدوداً، بل وللآخرين.. تلك الحدود التي لا نؤذي بها أنفسنا والآخرين.. فليست لله الحدود وحسب، فله ملك السموات والأرض.. يا من هو في السموات إله، وفي الأرض إله.. إنه تأدبنا في حواريتنا مع الخالق بأدبية الحوار، العلاقة التي توصلنا إلى أبواب رحمته، أليست هي مقصدنا ونحن مسافرون نحمل حقائبنا، وما كدنا نتبلغ رشفة الماء؟.

سمو العلاقة بين الإرسال الإلهي والتلقي البشري

ليستنير في ظلال قرآنية، حصيف في عمله وإنجازه.. ليقيم الفرد من خلاله هويته، مهارته وإتقانه، عبثيته واستهانته، أم ازدواجيته وإفراطه، توحده جنونه وبلهه، وضاعته وإسفافه.. ليثيرنا الكاتب بخاصية جديدة، وهي الإبحار في المرئي والمسموع وإعمال الحواس.. ليوظفها ضمن منهجية تأديبية، تتأبى على أزقة الظلام والضلالة.. ليعرِّفنا بالقليل والكثير.. أعطانا بشفافية مطلقة النتيجة، وارتحل بنا إلى تبيان معاني العقل .. ولم يكتف بذلك فقد انبرى يتساءل عن اللسان، وهو إدراك المضمون العقلي بترجمة نصية من الحواس، وعلى رأسها اللسان، لندرك أنه ما يوقعنا في غياهب الجحيم، لنكف عنا ألسنتنا، صنائع أعمالنا، ومذهب حسناتنا، ليحفظه بالسرد علمياً ودينياً، ويبقى العقل، ومكانة القلب، بأسلوب مقارب للمخيلة البشرية..

يقول الله تعالى: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ (ق: ١٨).

وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا أصبح ابن آدم، فإن الأعضاء كلها تُكَفِّر اللسان (تذل له وتخضع) تقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمتَ استقمنا، وإن اعوَجَجْتَ اعوَجَجْنَا" (الترمذي). وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يستقيمُ إيمان عبد حتى يستقيمَ

قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه" (أحمد). وقال ابن مسعود: "والذي لا إله غيره، ما على ظهر الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان".

وما يقع من أمراض اللسان، من: النميمة والغيبة والكذب واللغو في الحديث والسباب والفجور والمكر والخديعة، وغيرها، موغر في الصدر.

إنه الصوم عن كل رذيلة، إذ ربط (عز وجل) الصوم بأن يكون بلا فسق أو فجور، والحج كذلك، بل الإيمان ذاته: المؤمن من أمن المسلمون من يده ولسانه.

لم يكتف الكاتب بالمأثور من القول، وترجمان القرآن، وتأييده بالسنة الشريفة، وأقوال الصحابة، وما مر من التاريخ، لكنه ربطه بالتطور التكنولوجي، من وسائط متطورة، تفتح قنوات الاتصال على رحابتها، فجعلت لغة التخاطب متنوعة موجهة، لترد مساحات فضفاضة في الخطاب،إذ إن القرآن الكريم، بكيفية الإلقاء والتلقين، هو متكيف متجدد بالقيمة والمنطق.

المقارنة كأسلوب تتبعي للنص القرآني المتمثل فيه ذات الأسلوب، من التوجيه الإلهي، ليعتبر أولوالإبصار. فأصحاب النار قبيلهم أصحاب الجنة. وأصحاب الدسائس والغدر، يقابلهم أصحاب العلم والدراية والحكمة والإبداع، بكافة صوره، في شتى مناحي الحياة.

المتلقي لمعاني القرآن الكريم ليس ذلك النص المفرغ بجمود الصخر وتخلف الأيام، إنما هو نص مرن شمولي: بلاغة وحصافة وقصداً ومدلولاً ومعنى، كلٌّ متكامل منهجاً ونصاً.. كيف لا وهو الرسالة الإلهية، خاتمة الكتب السماوية، ليستمتع فيه في كل حين، وكأنه يرتل لأول مرة، بكل زمن، وكأنه في غيره المكان.

ومن خلال جلِّ كتابه، نأى الكاتب إلى ظلال من تشابيه، ومحسنات لفظية، ودلالات قلبية وعقلية، وبلاغة، وكناية، وتشبيه تمثيلي، والتي هي بمجملها صور فنية بأسلوب سلس متسلسل شيق، نابع من خالص التفقه اللغوي، ببراعة المعلم للمتلقي، والشارح للدارس، والمتضادات في قنوات الحياة: الماء والحياة، سنبلة الصدقة..

قارئ القرآن وفقه الموقف

(أم سليم الأنصارية) والبنية القصصية المفصلة لجدلية الصورة بمفردات شاخصة في التاريخ، لتبرز الفكرة العامة التي أوردها في بداية النص، ثم أتبعها بمناقشة الخصائص.. للمرأة والرجل على حد سواء، مبرزاً دورين متساوين متوازيين، ليضرب لنا المثل القدوة في الحياة السلوكية، زوجية كانت أم عملية، في مناحي الحياة المختلفة. وقد أبرز مدى تحرر المرأة المسلمة، في البحث

العلمي والأدبي والفقهي، والعمل والإنجاز، والمبادرة والقوة، العنفوان لدى المرأة كلاعب أساسي في مغارب الحياة ومشارقها.. قالت (أم سليم) قولتها الشهيرة: يا رسول الله أقتل من بعدنا من الطلقاء، انهزموا بك. فقال رسول الله: "يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن ". إنها نقطة البداية التي أوردنا الكاتب إليها، لنستبق الزمن، ولو لساعة، نتساءل فيها: من نحن؟؟ وما أنت أيتها المرأة: كائن الجمال، أم كائن معجون من عجينة العطاء والصبر؟؟ ماذا قدمت كل منا لنفسها، أو لبيتها وأسرتها؟؟ ما هي نصوص الرسالة المثلى التي تنادي بها، كأرضية لرقيها، لقيم وجودها؟؟ لقد حفظ الله المرأة، بل عنون لها أبواب حياتها، ورسم منهجية الوصل الآمن في معتركات الحياة. لقد كانت المرأة متاعاً يوماً، فأمن لها الله تعالى حقها في الحياة، والاختيار، والتعلم، والشخصية الاعتبارية، والتصرف المالي، والميراث، وحقها الدعوي التفقهي، ومنحها كل مقومات أن تبلغ فيها عنان الإنجاز والإبداع، مصونة معززة مكرمة، في أطر تحفظها من نفسها أولاً، ثم الآخرين، لتكون ثمينة، كما لؤلؤة في جوف محارة، ما ينالها إلا الصياد الحصيف. إنها المرأة، التي أفردها الله تعالى بنصوص قرآنية، لها دون سواها، بل كرمها بسورة حملت اسمها.. ومن غيرها يعين على فواجع الزمان.. إنها الكفة المتوازنة، بل هي التي ترجح بعقلها ورزانتها.. وهل تقل عن أن تكون كائناً مصوناً، كما نبتة سحرية ما يبين منها إلا عطر فواح؟!

﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾.

﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾.

﴿واهجرهم هجرا جميلاً﴾ .

فليكن المرء فينا صاحب الموقف، هي الدعوة الصريحة للإيجابية، للمنح، للعطاء، للبناء، وللثبات على الفطرة السليمة، المتيقنة بقدرة الله وإرادته، التي يفرزها عميق إسلامه وإيمانه، في الأفعال، والأقوال، وغيرها، واستنهاض القوة في إيجاد الخطوة المناسبة، وتيقن الخطوة المقبلة، التي يفيد منها الفرد ذاته، والمجتمع..

معالم الطريق ومنعرجات الفوضى

أوقفت يوماً عند الإشارة الضوئية؟! وانتظرت لدقائق طويلة في الزحام؟! لتنير بأضوائها الثلاثة، التي كل منها تعني الكثير لنجاتك، ووصولك الآمن لمبتغاك.. أرأيت لو كنت غير قادر على رؤية الطريق، وعيناك معصوبتان.. أو لسبب ما، ألمّ بك، ولم تستطع الوصول للضفة الأخرى من الطريق، دون أن تمد لك يد لتساعدك، لتميل عليها ميلة واحدة، وأنت كامل الثقة بأنها ستوصلك إلى حيث تريد دون أن تلحق بك الآذى، إنه الطريق الإيماني الذي يبين لك منهج الحياة كلها، بخيرها وشرها.. بل يبدع في تصويرها،

تصنيفها.. طرق وعثاء، قفراء، مليئة بالأشواك، فيها مجون الدنيا ولهوها، وكل شقوتها، وإن كانت تمنحك سعادة الخروج عن المألوف، لكنه ملك الساعة، ومنتهاه التهلكة: نار تلظى.. وطريق مليء بالخير والعطاء والمنح والأخوة، من غير ظلم ولا تظالم.. بفطرة سليمة، ونهاية في جنة عالية، سقوفها دانية، فيها كل ما اشتهيت، وكل ما امتنعت عنه في الدنيا، لتناله في الآخرة، وهي دونك.. أو ليس هذا الصديق مبدع حقا في منحك الصورة الكاملة لنواتج سلوكك!!؟؟

النهاية، كل ما يسعى إليه كل منا معرفة الغيب، وما سيحصل معه غدا، وإن أتتك النهاية على طبق من ذهب، بل جعلت لك استراتيجيات واضحة لتسلك أي الطريقين..

فقد زيّن الله لك متاع الحياة الدنيا بقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾آل عمران١٤.

ويخاطب الله نبيه قائلاً : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾القصص٧٧.

إنه منهج الترويض للأهواء الجنحة للنفس البشرية، ليكون الإنسان سيد الساعة، لا عبدها، وبالترويض تتمكن من الأناة والخبرة في التقول والقول ذاته..

إنه الدين الحنيف الذي يرتقي بنا، مفصلاً كل جوانب حياتنا.. فهو الذي يفسرنا كمرآة، وكصفحة ماء: ميولنا، تركيبنا، مزايانا.. تلكم النزعات الصغيرة والروح فينا.

خاتمة المبحث

وجاء هذا الكتاب ليوصلنا إلى هذا الرقي بتهيئتنا لبداية جديدة، لم يتصف نصه بالسرد المفزع بملله، بل بيقينه القائم على الروية، متميزاً بجدلية الحوار مع الإنسان، كحالة في كل مفردات وجوده، وليس كجملة لم تمهد لتفصل.. بشحنات من التشويق والإثارة، وتفسير المفرد، ليس بعفوية تامة، بل بعفوية زاوج فيها التفسير المنطقي للمفرد، الذي قدر ليكون تفسيراً شرعياً، لمجموعة من السلوكيات الواجبة.. القسط والاعتدال كتوجيه للسلوك.. فقد أكد على الإقساط، وجعل له جزءاً بارزاً في الحدث، في المآكل، والمشرب، والإنفاق.. الغلو في الشيء..

لقد جعلنا، بسلاسة، طوافين مرتحلين في فيضه، كيف لا وهو كتاب معمق البحث في النهج القرآني القويم.. لقد أوردنا الكاتب لتشرأب ضلوعنا في حلاوة موئلها، الروح حلوة ندية حرة لترتوي من نجيع المعرفة.. ألفاظه الجزلة.. لغة العرض المبسطة، في أبعاد النور المتوهج للنص القرآني على المتلقي، من

كافة المراحل العمرية، ولجميع المتلقين .. ليبقى القرآن الكريم هو منهج الحياة، ببنية مترابطة مع كل مناحي الحياة الواقع والأمل..

لعلي أختتم قولي بقول نشرته السيدة (جليلة مهدي) عن هذا الكتاب، الذي تقول بأنه بعد قراءتها له، قد غيّر حياتها من حال إلى حال، وقد تداولت وسائل الإعلام مقالتها، ومنها:

"لم أكن أعلم أن مصادفة غريبة من نوعها سوف تتسبب في هذا المنعطف الأكبر الذي زلزل لي أركان حياتي كلها، حياة شارفت على الثلاثين، مضت وفق نمط معيّن... لم أكن فيها آبهة كثيراً بقضايا الدين، وأحياناً كنتُ أراني منفصمة عنه، خاصة في الفترة الأخيرة، التي شاهدتُ فيها أناساً يرفعون راية الإسلام، ويتسببون بإلحاق كل هذا الأذى بالناس، وهم الذين تسببوا في تركي لبيتي في (الموصل)، واللجوء مع زوجي وأبنائي إلى الشتات، لقد أحدث ذلك شرخاً كبيراً في نفسي، وفي نفوس الكثيرين ممن أعرفهم عن قرب.

هكذا إذن... كما تعصف السماء فجأة، وتنهمر منها الأمطار، لتغسل كل شيء، وتؤسس لربيع هذه الطبيعة... بعد ثلاثة أيام من ذلك، اقتنيتُ لأول مرة في بيتي القرآن، وبدأتُ أقرأه للمرة الأولى، إذ لم يسبق لي أن أمسكتُ بالقرآن وقرأته، رغم أنني مسلمة، ثم بدأتُ أتعلم الصلاة وأصلي، وهي المرة الأولى التي أصلي فيها.. وعلى رأي المثل، فـ(رب ضارة نافعة).. فقد هربنا من رعب المسلمين هناك، لندخل باب الهداية إلى الإسلام هنا... لا أقول بأنني الآن أختار أجمل ما في هذا الكتاب.. ولو كان الأمر بيدي لكتبته كله حرفاً حرفاً ونشرته.. لكنني في الآن ذاته أقتبس بعض عباراته، التي كان لها الأثر الشديد إلى هذا التحول المفصلي في حياتي، وأنا أرى بأن هذا الكتاب تحول بالنسبة لي إلى صيدلية روحية، لا يمكنني بأي حال من الأحوال الاستغناء عنها.. القرآن الكريم هو دعوة للإنسان، كي تستيقظ حواسه على مدركات الحياة، فيشعر بجدية وحميمية ومسؤولية العلاقة بينه وبين مقومات حياته، وبذات الوقت يحافظ على حياة الآخرين.." ❒

السيرة الذاتية

رولا عبدالرؤوف حسينات، كاتبة من مواليد الأردن، ١٩٧٦، حاصلة على بكالوريوس في إدارة الأعمال من جامعة اليرموك.

لها قصة بعنوان (المهاجر)، وقصة بالإنجليزية، لويب الحياة (The valuable treasure)، وهي عضوة في تجمع (ناشرون)، وهو تجمع أدبي عربي، فضلاً عن كونها عضوة في رابطة الأدباء والمبدعين ٢٠١٤.

حداثـة الطرح القرآني في كتاب (الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن)



غادة حلايقة - الأردن

صدر هذا الكتاب عن مجلة (الحوار) الإسلامية الثقافية الكوردية التي تصدر باللغة العربية عن مكتب الإعلام في الاتحاد الإسلامي الكوردستاني في أربيل – عاصمة إقليم كوردستان العراق، لمؤلفه الروائي السوري (عبد الباقي يوسف). وقد جاء هذا الكتاب في (٣٠٠) صفحة من الشرح في تقديم كتاب الله، ومدارج الارتقاء في تلقي معانيه، ثم انقسم الكتاب إلى قسمين، لكل قسم فروعه المتصلة به، أما **قسمه الأول** فقد جاء تحت عنوان (نور السماء إلى ظلمة الأرض)، ومنه تفرّعت الفروع الآتية:

الفصل الأول: كتاب التحولات الكبرى.

الفصل الثاني: حدود الله .. حدود الناس .. في القرآن.

الفصل الثالث: خصائص العلاقة بين الإرسال الإلهي والتلقي البشري.

الفصل الرابع: قارئ القرآن وفقه الموقف.

الفصل الخامس: معالم الطريق ومنعرجات الفوضى.

الفصل السادس: التلقي القرآني وترويض النفس.

ثم جاء **القسم الثاني** من الكتاب متخذاً عنوان (فضل القرآن على الإنسان).

وتفرّعت بعد كلمة الاستهلال الفروع

الآتية:

الفصل الأول: حاجة الإنسان إلى القرآن.

الفصل الثاني: ارتقاء قارئ القرآن في درجات متعة العطاء.

الفصل الثالث: قارئ القرآن ومهارة قوة الملاحظة.

الفصل الرابع: القرآن الكريم ومنهج الحياة.

الفصل الخامس: مشكاة قراءة تدبرية لسورة البقرة.

ثم خاتمة الكتاب.

لعل المتأمل لهذا الفهرس التشويقي أول ما ينتابه هو أن يمسك بالكتاب ولا يدعه قبل أن يكمل قراءته، والحقيقة فإن هذا لم يكن كافياً، حيث يجد القارئ نفسه مندفعاً إلى إعادة القراءة، بل وعدم وضع هذا الكتاب بين الكتب المفروغ من قراءتها، لأنك كلما أخذت منه شيئاً ودونته في دفترك للرجوع إليه، اكتشفت شيئاً جديداً، وهكذا ترى هذا الكتاب يمتلك جاذبية أنه يتحوّل بالنسبة إليك إلى كتاب يومي، تستمتع بقراءته، والحصول على جواهر ثمينة من ثنايا صفحاته.

القدرة على تناول الموضوعات وآفاق تحليلها بلغة أدبية متفرّدة:

بادئ ذي بدء، أول ما يشد انتباهنا لهذا الكتاب القيم هو قدرته على تناول موضوعات القرآن الكريم بطريقة عصرية تختلف اختلافاً كلياً عن كل كتب التفاسير التي اعتدنا عليها، مما يجعلنا نقرأ الكتاب بكل شغف وبكل طمأنينة وراحة بال، كما يضعنا في حالة تساؤل: لماذا لم يتناول المفسرون القدامى قضية التفسير بمنظور المؤلف عبد الباقي يوسف؟

اشتهر الأديب في مجال الرواية، فكان له فيها صولات وجولات، حتى انعكس تأثيرها على تفسيره ههنا؟ وقد استطاع الكاتب إضفاء قيمة أدبية ولغة شائقة وأسلوب متكامل، وبلغة سلسة حلقت بنا عالياً فوق السحاب.

بدأ الكاتب مؤلفه بالحديث عن منزلة القرآن الكريم، وخصائصه في مجال القراءة، ثم قام بتفسير البسملة، فسورة الفاتحة، ثم أتبعها بتفسير سورة البقرة تفسيراً عصرياً موافقاً لمقتضيات العصر ومستجداته الحديثة، فشرح مدلولات السورة التي تعد أطول سورة في القرآن الكريم، فكان الكاتب دقيق الوصف حين وصفها بأنها: "سورة منهج حياة جديدة، لمجتمع يستمد تجدده من ثنايا هذه المقومات الجديدة، التي تشرعها

وتنصها وتؤسس لها هذه السورة. إنها تقلب كل الموازين والأعراف السائدة رأساً على عقب، وتسن لهذا المجتمع ما يميزه ويجعله متألقاً ومتأهلاً لنشر رسالة بلوغ الدين درجة الكمال وإتمام نعمة الله على الإنسان. إنها ثورة استنارية جديدة، لقد وقع اختياري على هذه السورة الكريمة، لاتخاذها نموذجاً للتلقي القرآني..."(١).

يقول الأديب الروائي عن سورة البقرة بأنها: "تُعنى بالتفاصيل، والشرح المستفيض، وهي تضع أسس وقواعد بناء أمة جديدة، سوف تشرق على العالم، وتأخذ على عاتقها مسؤولية تصحيح المسار البشري. وآية ثم آية تتدرج بالإنسان، حتى تسن له الشرائع والقوانين والنواميس، التي هي فضل من الله عليه، ورفعة لمنزلته كإنسان حظي بتكريم إلهي وعناية إلهية. القراءة التدبرية لهذه السورة، تجعل الإنسان يقف أمام ما يتمتع به من خصال و مزايا، حيث ترسخ هذه السورة لديه معالم السلوك الإنساني الذي يتمتع به الإنسان"(٢).

وقد تعرضنا لقول الكاتب هذا، كون هذا القسم من أهم الأقسام في الكتاب، بل في الكتاب جله.

ثروة حديثة في حقل الفكر القرآني:

لقد ظهرت في عصرنا الحاضر حركات مجرمة مثل "داعش" و"القاعدة"، حيث استطاعت تلك الحركات المجرمة أن تشوه الإسلام، مما انعكس أثرها سلباً على المسلمين في جميع أنحاء العالم، وجعلهم يبتعدون عن الإسلام" لهذا فالكتاب يجعلك تشعر بالتفاؤل والأمل ويفتح لك آفاقاً جديدة للتوبة وإعادة النظر في الحياة، ويكاد الترهيب يكون معدوماً، فلم يقع الكاتب بهذا المستنقع كما وقع فيه الذي سبقوه من المفسرين الأجلاء.

لعلي لا أغالي إن قلت بأن هذا الكتاب الثمين يُشكل منعطفاً تحولياً هاماً في مسار الفكر الإسلامي، وهو الكتاب الذي يبث الأمل ويقول صحيح الإسلام وسمحه، فلا تملك أن تقول: أجل هذا هو إسلامنا الحق.

لقد تميز كتاب "الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن" بقدرته على التغير والتغيير، ولا بد لي من الاعتراف بتغيير حياتي أنا شخصياً فكان له كمفعول السحر في نفسي.

يقول شيخنا وأديبنا في كتابه: "إن الارتقاء في درجات معاني القرآن الكريم، يحتاج إلى تهيئة بدنية وروحية، ليستطيع الإنسان القارئ أن يتلقى

جواهر معاني القرآن. وإن القرآن ثري بغايات ومصالح البشر، ويعطي لكل ذي حاجة حاجته، ويجعلك تُدرك أبعاد حقوقك في الحياة التي تعيش فيها، وتعلم معالم الواجبات التي عليك تأديتها، وهذا من شأنه أن يحقق في نفسك شيئاً من التوازن"(٣).

لقد كشف لنا الكتاب عن فن قراءة القرآن، وتدبر معانيه في ظل هذا العصر المجنون الذي أبتلي بحركات إرهابية تدعي الإسلام، وتشوهه بذات الوقت، أسأل العلي القدير أن يكون هذا الكتاب شفاء ودواء لكل داء والله من وراء القصد.

عبارات أعجبتني من هذا الكتاب النفيس كان لها الأثر الكبير في نفسي:

– "إن القرآن الكريم يهب فرصاً ذهبية لقارئه المواظب المتدبر، كي يتلقاه على أوجه عديدة، حتى يمنحه كنوزه ولآلئه الثمينة، التي لا يمنحها إلاّ لأولئك الذين تعلقت أفئدتهم بأنوار القرآن الكريم، فيقرؤه قراءات استثنائية استنارية متقدمة، يستخرجون من نفحاتها المباركة أنوار سمو المعاني الإلهية، التي تتجلى لهم بين ثنايا السطور، إنهم يتجاوزون القراءة الظاهرية اللفظية، يغورون، ويستجلون نفائس لألئ المعاني الثمينة، يستخرجون روح الحكمة من ثنايا السطور، فيكون ذلك مبعث سكينة لهم في الدنيا والآخرة"(٤).

– "كلما يزداد الإنسان إيماناً بالله، فإنه يزداد توازناً في الحياة"(٥).

– "يمتلك القرآن الكريم مقدرة هائلة على إمكانية التجدد، وهو لا يكتفي بذلك، بل يتجاوزه ليجدد قارئه كذلك، عندئذ لا يكتفي القارئ بأنه يقرأ كتاباً متجدداً فحسب، بل يشعر بأنه يتجدد مع كل قراءة جديدة لهذا الكتاب. ولذلك فإن القرآن يمتلك المقدرة على تغيير الناس بشكل نافذ، بحيث ينقل شخصاً ما من تاريخ عريق في الإلحاد، إلى تاريخ عريق من الإيمان، من إنسان سلبي يقف على تاريخ من الجور، إلى إنسان يشرق بنور إيجابيات الفطرة الإنسانية"(٦).

– "إن ما يميز قراءة القرآن، أن كل قراءة تقدّم للقارئ علماً جديداً لم يكن يعلمه، كل قراءة تقدم إليه شعوراً جديداً لم يكن يشعره، كل قراءة تقدم له متعة قراءة جديدة لم يكن يدركها، تضيف إلى نفسه لمسات جمالية جديدة، لم تكن لديه من قبل. إن كل قراءة تجعله يشعر باتزان، وهو يتأمل مجريات الحياة، ولذلك نرى المريض يلجأ إلى قراءة

القرآن، ويشعر بأنه يتداوى به، والذي تصيبه مصيبة كبرى يلجأ إلى قراءة القرآن، فيجد متنفساً عن نفسه، والذي يبتغي ذكر ربه في السراء والضراء، يلجأ إلى القرآن فيشعر قلبه بطمأنينة ذكر الله. هذه الأنوار، التي يكتسبها الإنسان من صلب قراءته القرآن، لا تنتهي عند فراغه من القراءة، بل ينتفع بها في وقائع حياته اليومية، سواء مع نفسه، أو مع الآخرين، أو مع مقومات حياته"(٧).

- "يجد قارئ القرآن منهج حياة متكاملة في القرآن، الذي يتعرض لكل كبيرة وصغيرة، تمس مقومات الحياة البشرية. إنه كتاب تحليلي مفصل عن صلب علاقة الإنسان بالحياة، علاقته بنفسه، علاقته بالآخرين، علاقته بالله يفضي التلقي القرآني بقارئه المتدبّر إلى منزلة أن يعيش حياة قرآنية مميزة، تتحوّل فيها مقومات الحياة إلى آيات قرآنية أمام ناظرَيه تزيده حكمة، ونضجاً، وتوازناً، وصبراً، وامتلاءً بالحياة .يغدو في مراتب متقدّمة من تذوّق المعنى القرآني، وبناء علاقة قويمة مع قرآنية الحياة"(٨).

- "إنه كتاب مبارك أنزله الله لك كي تكتشف مكنونات نفسك، تستطلع أسرار ما تخفيه النفس، يعلّمك بأن المعرفة الكبرى والمجدية الأولى تبدأ من معرفتك لنفسك، وكلما عرفت نفسك جيداً، عرفت ربك جيداً، وكلما عرفت ربك جيداً، عرفت الإنسان جيداً، وكلما عرفت الإنسان جيداً، عرفت الطبيعة جيداً، وكلما عرفت الطبيعة جيداً، استنارت نفسك بنور الإنسان، لتستمتع بممارسة مزايا إنسانيتك"(٩).

هذه هي بعض النفحات للأديب البارع عبد الباقي يوسف، والذي أتحفنا بعشرات النفحات مثلها، ومما لا شك فيه أن الكتاب سيثري المكتبة العربية والكوردية الإسلامية بهذا المؤلف العصري النفيس، وسيبقى علامة مشرقة من علامات الفكر الإسلامي الصحيح❐

هوامش:

١- الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن الكريم، عبد الباقي يوسف، مجلة الحوار، العراق، ٢٠١٤م، ص ٢١٣-٢١٤.

٢- المصدر نفسه، ص٢٤٣.

٣- المصدر نفسه، ص٢٩٣.

٤- المصدر نفسه، ص١٠.

٥- المصدر نفسه، ص١٣.

٦- المصدر نفسه، ص١٦.

٧- المصدر نفسه، ص٨٠.

٨- المصدر نفسه، ص١٩٠.

٩- المصدر نفسه، ص٢٩٣.

قراءة موضوعية في كتاب

(الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن)*



غادة هيكل - مصر

✍ لقد كرم الله الأرض بنزول آدم وحواء لتعميرها، وأكرم البشرية من نسل آدم بخلق (محمد) عليه السلام ، وأكرم الأمة الاسلامية والعالم أجمع بنزول الوحى المحمل بآي القرآن، الذي هو المعلم المتجدد الذي لا ينضب معينه من علم الأولين، وعلم الحاضرين، وعلم المتأخرين، إلى قيام الساعة. وقد أرسى (أ / عبد الباقي يوسف) بعض دعائمه في هذا الكتاب القيم، حيث أوضح طريقا مهما لكل من وجد في نفسه هوى ليكون نبراسا ومعلما، أو هوى ليكون متعلما، يترقى الدرجات في رحاب هذا الكتاب المتين، الذي فضله الله على سائر الكتب في السابقين والأولين، وعلى كل الرسالات من لدن آدم، وحتى قيام الساعة .

لقد ضمت دفتا هذا الكتاب قسمين هامين متصلين بالقرآن الكريم، وهما :

١– القرآن نور السماء إلى ظلمة الأرض.

٢– فضل القرآن على الإنسان.

أما القسم الأول: نور السماء إلى ظلمة الأرض، فقد أتى في ستة فصول متتابعة، هي:

الفصل الاول – كتاب التحولات الكبرى

الفصل الثاني – حدود الله .. حدود الناس.. في القرآن

الفصل الثالث – خصائص العلاقة بين الإرسال الإلهي والتلقي البشري

الفصل الرابع – قارئ القرآن وفقه الموقف

الفصل الخامس – معالم الطريق ومنعرجات الفوضى

الفصل السادس – التلقي القرآني وترويض النفس

أما القسم الثاني، فقد تناول فيه خمسة فصول، على جانب كبير من الأهمية لحياة كل مُطّلع، وكل حافظ، وكل محب لقراءة القرآن الكريم، وهي:

الفصل الأول – حاجة الإنسان إلى القرآن

الفصل الثاني – ارتقاء قارئ القرآن في درجات متعة العطاء

الفصل الثالث – قارئ القرآن ومهارة قوة الملاحظة

الفصل الرابع – القرآن الكريم ومنهج الحياة

هذه أربعة، والفصل الخامس منها هو مثال كبير جدا، ومهم، للتطبيق الحياتي على ما سبق وذكر من التواصل القائم بين قارئ القرآن وحياته وفكره وعقله وقلبه ومكنونات نفسه وسمو روحه، وغيرها من الفضائل كانت أو المثالب، التي ترتكز عليها الحياة وتقوم بها، وهي (سورة البقرة)، أكبر سور القرآن الكريم، وكان الاختيار هنا من الأهمية بمكان، لأن (سورة البقرة) تعكس أكثر التفاصيل المرتبطة بحياة الأفراد اليومية، ومعاملاتهم مع بعضهم البعض، ومع الكون المحيط بهم، ولأنها سميت باسم هذا الحيوان النافع، الذي اختصه الله بعظيم الفوائد، وكان بها ضرب المثل، الذي يبين قاعدة العسر واليسر في الدين.

كتاب الحوار (١)

الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن

عبدالباقي يوسف

لو تعرضنا بشيء من التفصيل لهذا الكتاب المهم جدا، من وجهة نظري، في عرضه لعلاقة مهمة جدا في حياة الفرد اليومية، بل في حياة الفرد اللحظية، ومنهج حياته الذي يرتضيه لنفسه المؤمنة، التي نزل من أجلها القرآن الكريم، لتعرفنا على بعض العناصر المهمة، التي شملها هذا الكتاب، ومنها:

١–القرآن الكريم كتاب الله المنزل، بوحي من السماء، على سيدنا (محمد)، حقيقة لا نقاش فيها.

٢–القرآن الكريم متجدد وصالح لكل العصور، لا يتوقف عند زمن معين، بل ينطلق من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل القريب والبعيد.

٣–قدرة القرآن الكريم على الارتقاء بالدرجات الإيمانية لدى الإنسان.

٤–قدرته على تحويل الفرد من حالة اعتقادية إلى أخرى، مثل أن ينتقل من الكفر إلى الإيمان، ومن الإلحاد إلى التوحيد.

٥–قدم الكتاب العديد من البراهين والأدلة على كيفية تأثير القرآن في حياة البشر، وتأثرهم به، وتفاعله مع مقتضيات حياتهم اليومية .

٦–قدم الكاتب، بشكل مشوق، ومرتب، حالات تهيئة الفرد، ثم قراءته، ثم تدبره، ثم تماهيه، ثم انطلاق أعضائه، ثم الذوبان الكامل مع آي القرآن. وهي مراحل الترقي مع القرآن، بداية من البسملة وفاتحة الكتاب، ثم انتهاء بمثال قوي وهو (سورة البقرة).

٧–استطاع الكاتب، بمهارة الرواي العليم، والكاتب الحصيف، أن يقدم الأمثلة القوية على كيفية ترقي الفرد من حالة إلى أخرى، كلما انطلق لسانه، وتدبر عقله، وتناغمت روحه مع القرآن.

٨–أكد الكتاب على علاقة القرآن بكل أنواع العلوم الأخرى، من: فن، وأدب، وفكر، وسياسة، وطب، وفلك، وغيرها مما يهم الإنسان في حياته.

٩–أكد على علاقة القرآن، ليس فقط بالعالم المادي، بل بالعالم الروحاني، والنفسي، للشخص، ومدى تأثير القرآن في تلك الشخصيات بالإيجاب، ومساعدتهم على التحول من حالة السلب إلى حالات الإيجاب.

١٠–كما بين الكتاب قوة القرآن الكريم في إخراج الطاقات الكامنة لدى الفرد، والتي تتأثر بمراحل قراءة القرآن، حتى تصل إلى ذروتها في الطمأنينة، والإيمان، والعمل، والعطاء بلا مقابل، ومعرفة قوة الخير، وجذبها إلى النفس، ومعرفة سطوة الشر، وتجنبها بلا أدنى مشقة أو تعب.

١١– أظهر الكتاب أن الارتباط الوثيق بين معاملات الفرد والقرآن الكريم، والتي تمثلت في العطاء، هذه الكلمة التي تحوي عدة معان، بيّنها القرآن جملة وتفصيلا، بضرب الأمثلة، والتي استطاع هذا الكتاب القيم أن يفردها، ويدلل عليها، بشكل مبسط وشيق.

١٢– أوضح الكتاب ثلاثة محاور رئيسية، يستخدمها الإنسان القارئ، وينتقل فيما بينها، خلال مراحل تدرجه، وهي: اللسان، هذا الناطق بالألفاظ ، والعقل، الذي يتدبر هذا اللفظ، ثم العين التي تبصر.

١٣– لم يقتصر الكتاب على تبيان مراحل التدرج الإيماني، المرتبط بقارئ القرآن بحواسه الثلاث السابقة، ولكنه أوضح مهارة مهمة جدا، مرتبطة بتلك الحواس، وهي مهارة قوة الملاحظة لدى العين، التي ترسل بإشارتها إلى العقل، فيتدبر، ثم ينطلق اللسان، فيتحدث، ويؤثر في الغير.

١٤– لم يترك الكتاب آفة مرتبطة بهذه الحواس الثلاث إلا وبيّنها، وأوضح كيفية ترقي القرآن بالإنسان، حتى يتخلى عنها كلية. وكيف يتحول من إنسان سلبي مشوش العقل، بغيض القول، عديم الرؤية، إلى شخص إيجابي، طيب، مواظب على التدبر، منطلق التفكير نحو العمل الصالح، حتى يتخذه منهج حياة يومي، فيكون لغته التي يتحدث بها، وعقله الذي يفكر به، وعينه التي لا ترى سواه في حياته، فيكون –كما قيل عن المصطفى (صلى الله عليه وسلم)–: (كان خلقه القرآن).

١٥ – وعندما يتحول القارئ إلى اتخاذ القرآن منهجا لحياته، فهو بذلك يقي نفسه الوقوع في الملذات، ويعمل على ترويض نفسه، وكبتها، بلا تفريط أو افراط. وهو بذلك يتبع منهج الوسطية التي نادى بها الاسلام الحنيف. وهنا كان موقفه من النفس، وبيان سطوتها، وقوة سيطرتها على الإنسان، إن ترك لها الحبل على الغارب، كما بين كيفية ترويضها بالقرآن، في يسر وسهولة.

١٦–إن هذا الكتاب القيم لم يكتف بذكر فضائل القرآن على الإنسان، ومراحل تدرجه الإيماني، واتخاذه منهجا لحياته، والقضاء على وسوسة نفسه، وكفى. ولكنه يعلم، بعين المجتهد، أن للشيطان دورا لا يغفله غافل، بيّنه القرآن الكريم، وهو دوره في الوسوسة لهذا المتلقي للقرآن. ولم يغفله الكاتب أيضا، بل استطاع أن يبين متى يغافل الشيطان نفس الإنسان، ومتى يطلب منها المعصية. ثم بين كيفية مواجهته، والخروج من مأزق الوقوع في براثنه. وبين كيف اهتم القرآن الكريم بذكر الشيطان، والاستعاذة منه، في مواقع عدة. وبيّن مواطن الوسوسة لدى الإنسان، ومتى يتوغل فيها الشيطان بوسوسته، وأسبابها، وكيفية علاجها، متخذا من التلقي القرآني هدفا لذلك.

١٧– لم يغفل الكاتب أيضا أن أي مجتمع لا يقوم إلا بشقيه الأساسيين، وهما: الرجل والمرأة. فوجه حديثه السلس الواعي نحو أهمية المرأة، كعضو شريك في أي مجتمع، وإلقاء الضوء عليها في آي القرآن، بل واهتمامه بها في مواضع كثيرة، لأنها اللبنة الأولى التي تحمل هذه الذرية، وتربيها، وتعلمها، وتهذب أخلاقها. فكلما صلحت المرأة، صلح حال المجتمع ككل. ولم ينس أن يوجه إرشاداته إلى الرجل، كي تكتمل منظومة الصلاح في المعاملة، والرفق، والتوجيه القويم. ودلل على ذلك بآيات القرآن، والأحاديث النبوية، ص(١٣٠–١٣١)

١٨– ضرب لنا الكاتب العديد من الأمثلة القوية، التي أكد عليها القرآن في كثير من المواضع، والتي تلهي النفس عن الترقي والتدرج في مراحله الإيمانية، التي ترتبط ارتباطا وثيقا بتلقي القرآن، وفهمه، وتدبره، والتي تهزم الروح، وتُشقي النفس، وتفتح بابا للشيطان، ومنها: الكبائر، وأخص منها: الزنا، فأفرد له مساحة للشرح، وكيف أنه يخرج الإنسان من منظومة البشرية، ويجعله عالما همجيا.

١٩– لم يترك الكاتب طرح آفة، أو فعل عصيان، بيّنه القرآن، أو أشار إليه، بدون إظهار الحل المناسب له من آي القرآن، وكيفية علاجه، والتخلص منه، بشكل ميسر. فيبين الآيات التي نهت عنه، ويأتي بالأحاديث التي تتكفل بالعلاج الواضح، حتى تكتمل أركان الترقي والتدبر، حتى تصل النفس إلى مبتغاها.

٢٠–وأخيرا استدل الكاتب بأكبر وأقوى الصور التي جمعتها (سورة البقرة)، كدليل على أهمية القرآن والارتقاء في تلقي معانيه، حتى لا يكتفي القارئ بظاهر القول، وبثرثرة اللسان، كعادات فقط، دون الغوص إلى ماهية الألفاظ، ومعانيها، ومخرجاتها، وتأثيرها في كل ما يحيط به من أفعال وأقوال وعبادات وفروض ونواه وعلاقات، وكل ما يهم الإنسان في حياته، بل وفي آخرته أيضا، مع شرح مبسط لتلك الآيات، تصل بمعانيها إلى كل مهتم في يسر بالغ.

٢١– مما لفت نظري، وكنت أحب أن يكون عنصرا في هذا الكتاب القيم، هو القصص القرآني، ودوره في تربية الإنسان، كمرحلة أولى

لدخول عالم المعاني. فنحن نعلم جيدا أن للقصص مفعولا جيد جدا في تلقي المفاهيم المختلفة، ولها تأثير كبير على النفس، منذ الطفولة، وحتى في مراحل الشباب، وغيرها. والقرآن الكريم حافل بالقصص المفيدة، التي تمتلئ بالعبر والعظات، والتي تفتح أمام النفس الأبواب المغلقة، وتعبر إليها بسهولة كبيرة. ولكن راقني كثيرا الأمثلة الحياتية التي صاغها الكاتب، مثل:

(المرأة التي أبت إلا أن يكون حديثها القرآن/ ص ١٢٧)

الأمثلة والأقوال التي نقلها عن بعض المشاهير، كسقراط وأفلاطون والرازي والكندي و... غيرهم كثير) ص ٣٥-٣٩

الاستدلال بآيات القرآن الكريم في المواقف المختلفة، وشرحها المبسط.

الأمثلة الحياتية وارتباطها بالقرآن: (سنبلة الصدقة، الماء والحياة، شجرة الكلمة، ...) ص ٥٦.

٢٢- إن كل ما سبق ذكره، من: فضل القرآن، وفضل متلقيه، والمتمعن فيه، والمترقي بدرجاته العلى، والعامل به، والتارك له، وكيفية عودته إلى الطريق الصحيح، وأن يرتكز على القرآن كصراط مستقيم، وأن أثر القرآن الواضح الجلي على كل قارئ وعامل ومجتهد وبالغ الذروة في الإيمان، لن يصل إلى ذلك إلا برحمة من الله. وكما سأل (الشافعي) (وكيع)اً عن سوء حفظه، فقال:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي
فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال إن العلم نور
ونور الله لا يهدى لعاصِ

كما بين أن القرآن لا يرتبط بمكان، ولا زمان، ولا تكنولوجيا، ولا أوراق، بل هو يتغلغل في النفس التي صنعت، والتي قرأت، والتي تعلمت التكنولوجيا، فهو شريك يكرم المكان، ولا يتكرم به، ومن أفضل الأماكن منبت الوحي، التي ذكر فضلها: (مكة المكرمة)، ومنها انتشر وفاح عطره في كل أرجاء العالم. قصة (مايكل وولف) ص ٢٨.

وفي الختام، فإن هذا الكتاب القيم، والذي يقع في ٣٠٠ صفحة، لهو دليل قيم على أهمية القرآن الكريم للحياة القائمة، والسابقة، والمستقبلية، لكل من يبرهن على أهميته، ولكل ساع إلى محاولة الترقي في دنياه، والفوز بآخرته ❒

السيرة الذاتية

غادة هيكل، كاتبة مصرية حاصلة على شهادة الليسانس في الآداب من قسم تاريخ / جامعة الأزهر، والدبلوم العام فى التربية وعلم النفس. وهي صحفية تعمل في جريدة (عين الشعب) الورقية.

شاركت في عدد من الكتب منها:

قصص عربية قصيرة جداً، قصص نسائية قصيرة جداً، روائع وقمم، كتاب حواديت.

وهي عضو مؤسس في الاتحاد العالمي للثقافة والأدب، وعضو في جمعية شمس النيل لعلوم الأهرام.

القرآن إثابة وتربية وسموّ

قراءة في كتاب الارتقاء في درجات معاني القرآن




الدكتور:مصطفى عطية جمعة
أديب وأكاديمي وناقد أدبي وباحث في الإسلاميات
وزارة التربية - الكويت

✍ كثيرة هي الكتب التي تدفعها المطابع كل يوم عن القرآن، وتفسيره، والاستفادة من تعاليمه، ونادرة هي الكتب المتعلقة بالتربية القرآنية، والتعامل مع القرآن، من منطلق يتجاوز كونه كتاب عقيدة وتشريع شامل، إلى كونه كتاب الحياة كلها، حياة المرء والأمة. ولعل مقولة الشاعر العظيم (محمد إقبال) تثري ما نقول، عندما ذكر نصيحة والده له: "اقرأ القرآن كأنه يتنزل عليك" (١). ولك أن تتخيل أن تتعامل مع الآيات المعجزة، كأنها تخاطبك أنت، وتتناول وقائع حياتك أنت، وتجيب عن أسئلتك أنت، وتدفعك إلى المعرفة والاستزادة منها وبها ولها، وساعتها سيصحو المرء منا على القرآن، ويقضي لحظاته متدبرا، مترنما. وكما يوضح المؤلف (٢): "لو لم تكن حاجة الإنسان إلى القرآن بلغت ذروتها، لما أرسله الله إليه، إنه رحمة من الله بالإنسان، ونور حلّ على

ظلمتـــَي الإنســـان والأرض معـــاً " (٣). فالبشـرية في أشـد الاحتيـاج للقـرآن، فكـم أضلتها كتب كثيرة، وعبثت بهـا تشـريعات، وعبث البشر بتشريعات ربانية منزلة بالكتب السابقة، فجاء القرآن كتابا محفوظا سليما من التحوير، على مـدى الأزمـان، ليسـد حاجـة الناس في كل صعيد وفترة ومكان.

ومـن هنـا، وكمـا يشـير المؤلـف في ثنايـا كتابه: فــ "إن التلقي القرآني هو عملية فض الغلاف عن لب الكلمة لبلـوغ المعنـى، هـذا المعنى الذي تستخرج منه التدبّر الذي يُصلح لك شأنك، وهكـذا تـراك مرتقيـاً في قـراءة القرآن، لأنك تتلقـى مـن كـل قـراءة معنـى جديداً، تستخرج منه تدبّراً، يُصلح لك شـأناً جديداً من شؤون حياتـك، وعلـى قـدر مـا يجعلك ذلك مواظبا على قراءة القرآن، يقف قارئ القرآن، غير الفاض عن اللّـب غلافـه، دون ذلك، وهـو يغـدو قليـل القـراءة، لأنـه وقف أمام مبنى القرآن، دون أن يلج باطنه " (٤). نجـد هنـا إشـارتين مهمـتين: الغـلاف والمعنى، فصارت الكلمة غلافا، ويجلو المعنـى بالتدبر، فالتدبر الذي هو التلقي الدائم المعمق للقرآن، قـائم علـى فـض إيحـاءات الآيـات، والكلمات، ودلالات السور.

أيضا، شتان بين القرآني والـدنيوي، فالنـاس مشـغولة بشـؤون معاشـها، وهـؤلاء هـم الـدنيويون. أمـا القرآنـي، فهـو مشـغول بمـا حفظه وما يسترجعه، غير منصرف عن دنيـاه ، بقدر مـا يأخـذ دنيـاه إلى قرآنـه، أو يجعـل قرآنه في كل زمن ومكان في دنياه، حتـى إذا أسـند شـقه الأيمـن، وتوجـه إلى الله، متمتمـا ببعض الآيات، قبل أن يخلد إلى نومه، سيكون في غاية الراحة، لأنـه خلـد إلى النـوم حـاملا القـرآن في حنايـا صـدره، فـإذا شـاء الله أن يقبضه، كان القرآن شاهدا وشفيعا لـه، وإذا شاء أحياه ليوم جديد، استيقظ وهو طامح أن يجعـل يومـه، الـذي مُـدَّ في أجلـه، سـبيلا للاستزادة القرآنية: فهما وتفسـيرا وتطبيقـا، وأيضا سلوكا وتعاليم ووصايا وإرشادات.

وسـتكون قراءتنـا لهـذا الكتـاب في محـاور عديدة، تستهدف تغطية ما فاضت به أسطره، وأوحت به عباراته، وفاح عبيرها من كلماته.

بنية الكتاب :

عندما نتعرض للبنية، فنحن نلـج بـالمنظور الكلـي أو الرأسـي، وهـذا يسـاعدنا في فهـم

خطة الكتاب، ناهيك عن محاوره ونقاطه الرئيسية. فقد انقسم الكتاب إلى قسمين رئيسين، حمل الأول عنوان: **نور السماء إلى ظلمة الأرض**، وشمل ستة فصول، سعت إلى تغطية هذا العنوان، الذي فيه الكثير من الحس الأدبي، والتناص مع القرآن الكريم، فقد نُعِت القرآن والإيمان كثيرا بنعت مشترك، وهو: النور، مثلما نعت الكفر بالظلام. أما الفصول فقد سعت إلى تبيان هذا العنوان، فشملت محاور، وهي : **كتاب التحولات الكبرى ، حدود الله .. حدود الناس.. في القرآن، خصائص العلاقة بين الإرسال الإلهي والتلقي البشري، قارئ القرآن وفقه الموقف، معالم الطريق ومنعرجات الفوضى، التلقي القرآني وترويض النفس.**

وكما نلحظ، فإنها تبدأ بتبيان الحدود، التي أنزلها الله تعالى في كتابه المقدس، ثم حدود الناس في الحياة، كما أبانها القرآن. ونرى أن المؤلف ابتدأ بالرؤية الكلية، ومن ثم انحدر تدريجيا إلى الجزئيات. فقد تطرق إلى طبيعة العلاقة بين الوحي والبشر، واستخدم في ذلك لفظ (**التلقي**)، الذي يعني – فيما يعنيه – كيف يعي المسلم القرآن، شفاهة وسماعا ورسما مكتوبا، وأيضا كيف يعيه: فهما وإدراكا. فالقراءة من المكتوب، والشفاهة من المسموع، من أهم سبل تلقي القرآن الكريم (٥)، وكذلك سائر العلوم الإسلامية الناشئة حوله. ومن خلال التلقي، بدأ في عرض علاقة قارئ القرآن بالحياة، في مواقفها وفقهها، وسلوك الطريق السوي في الحياة، والتعرف على معالم الخير، ونبذ منعرجات الشرور، وأيضا سبل ترويض النفس، وتهذيبها، قرآنيا.

وجاءت نعوت المؤلف للقرآن بأنه : "كتاب تشريعي، تنويري، فكري، تعبدي، تأملي، معرفي، حقوقي، رباني، إنساني، وهو كتاب الدنيا بامتياز، إلى جانب أنه كتاب الآخرة بامتياز، فهو يخاطب الناس الأحياء، وموجه إلى الأحياء، ويتوارثه الأحياء، وينتفع به الأحياء، بالدرجة الأولى " (٦)، ليكون القرآن كتابا تشريعيا لشؤون الدنيا، وعقيديا وتربويا لشؤون الآخرة.

أما القسم الثاني، فهو يتمحور حول (فضل القرآن على الإنسان)، وهنا تكون

الصورة التطبيقية. بمعنى أن القسم الأول نظري، والقسم الثاني تطبيقي، سعى المؤلف فيه إلى التبيين – من خلال المواقف والأمثلة والدلائل– لآثار القرآن على المرء المسلم، والحياة، والمجتمع، والأمة، كما نقرأ في عناوين الفصول: (حاجة الإنسان إلى القرآن، ارتقاء قارئ القرآن في درجات متعة العطاء، قارئ القرآن ومهارة قوة الملاحظة، القرآن الكريم ومنهج الحياة، مشكاة قراءة تدبرية لـ سورة البقرة). وقد جاءت صياغة الفصول من خلال الأسلوب الجزل، والأمثلة الواقعية، والاستشهاد بالقديم والحديث، من الحديث الشريف، والسيرة العطرة، والتاريخ الإسلامي، وأيضا من العلوم الحديثة، لنخلص إلى أن القرآن سبيلنا للخير، كل الخير في حياتنا، وأننا به نرتقي، ونسمو، ناهيك عن الإثابة والأجر. والأهم أنه وضع القرآن في موضعه الصحيح، وأظن أن هذا هو غاية الكتاب، بأنه يجعل صلة المسلم مباشرة، دون وساطة، بالقرآن الكريم، فيقرأه المسلم، ويعيه، ثم يستعين بما يشاء من تفاسير وعلوم ليعرف المزيد، أي أن يعيش المسلم في القرآن فيتخذه صاحبا، وأنيسا، ومدرسة، وجامعة، وبيتا، وسكنا. ومن ثم صار القرآن سببا في تشكل الحضارة الإسلامية، وكما يشير المؤلف بأن للقرآن الكريم أثره الجلي على سائر ألوان وأجناس الآداب والفنون الإنسانية. ويمكن أن نصنف مرحلتين انعطافيتين: مرحلة ما قبل نزول آي القرآن، ومرحلة ما بعد النزول، فإذا نظرنا إلى الآداب والمناهج الفكرية الإنسانية، التي اتسمت بالنبوغ، نراها لا تتمتع بالمزايا التي تمتعت بها في مرحلة ما بعد انتشار القرآن الكريم في الناس. وهذا أمر طبيعي في مواكبة الفكر، والمنجز، ومحطات تطور العبقرية البشرية، لأسباب وعوامل ومستجدات التطور (٧)، وتلك رؤية جديدة ، فعلينا أن ننظر إلى المعارف والعلوم التي أبدعها البشر في حضاراتهم المتعاقبة، وما جادت به حضارة الإسلام المؤسسة على القرآن، ناهيك عن العلوم التي استقت نبعها من هدي القرآن، مثل: التاريخ، والفلسفة الإسلامية، والجغرافيا (٨)، فكلها نهلت من النبع القرآني. والخطأ الذي يسقط فيه كثير من المسلمين، أنهم ينزعون الرؤية القرآنية عن علومهم، ولا

يخاطبون البشرية علميا، من خلال التصور القرآني.

وكما يقرّ المؤلف: "كنتُ دوماً عندما أقف أمام تشريع الله، أو نهيه، في القرآن الكريم، أرى أن هذا الإرشاد إنما هو توجيه للإنسان، حتى يفقه الحياة التي يعيشها، يتجنب العبثية في مسيرة حياته، وهو إرشاد من خبير يعلم (السر وأخفى)" (٩)، فجوهر رسالة القرآن / الإسلام ، أن الإنسان لم يخلق عبثا، وإنما هو عابد، متعبد، عليه رسالة عظمى، تتمثل في نشر التوحيد، وعمران الأرض.

ومتى وعى كل مسلم: الفرد أولا، ثم الأسرة، والجماعة، والمجتمع، ثم الدولة، ثم الأمة كلها، كل هؤلاء وعوا دورهم القرآني، فإنهم سيتحولون إلى طاقات إيجابية ودعوية وحضارية، لها كل الأثر في التاريخ الإنساني.

فرادة الموضوع والهدف :

مفهوم الفرادة يعني: الاختلاف، والجدة، والإضافة، في الجانب النظري، عما هو حالي وسابق. ويعني أيضا الجانب العملي والسلوكي في الحياة، لتكون المحصلة، تنظير شاف للعقل، وتطبيق شاف للروح والسلوك.

إن الكتاب فريد في مؤلفه، فالأستاذ (عبد الباقي يوسف)، أديب وباحث متعدد الاهتمامات، وتأتي فرادته في كونه اضطلع بتأليف كتاب عن القرآن، مستندا إلى تجربته السردية الممتدة، وأيضا إبحاره في ميدان المعارف والعلوم المختلفة، فجاء كتابه جامعا بين الحس الأدبي، والمشاعر المرهفة، والتعامل السامي، والثقافة المتعمقة المتبحرة.

وهذا الكتاب فريد في موضوعه، وفي بنيته، وفي عناصره، والفكرة الأساسية لهذا الكتاب تتمثل في النظر إلى الحياة مع القرآن، كيف يعيش المسلم مع القرآن، وكيف يعيش القرآن معه. ربما يتخيل البعض أن هذه فكرة ليست بجديدة، وحتى لو افترضنا هذا، إلا أنه لم يتم تعميقها بالشكل الكافي من قبل، بحيث يصبح القرآن – الذي هو لب الإسلام وأساس ثقافة وحضارة المسلمين – سبيلا للتربية، ونهجا في المعايشة اليومية، والمعايشة الحياتية، وأيضا سلّما للترقي الإيماني، والسمو الخلقي والروحي للمسلم.

وقد أبان المؤلف في مقدمته، حيث يتناول: "صلب العلاقة بين مقومات حياة الإنسان، وبين القرآن الكريم، الذي كلما

يُقرأ، ترسخت تعاليمه في النفس، وبذلك يتمكن الإنسان أن يتجاوز القراءة الظاهرة لهذا الكتاب المبارك، إلى تلقي معانيه، ومن خلال هذا التلقي القرآني، يرتقي بسلوكه الإنساني، على قدر ارتقائه في درجات تلقي معاني القرآن "(١٠). فهناك جملة أمور نقف عندها: أن القرآن مصدر للإيمان والتعاليم والسمو الروحاني، وأن الوعي بهدي القرآن لن يكون بالترتيل الآلي، وإنما بالغوص في معانيه، فتصبح المعاني تعاليم، وتترسخ التعاليم في النفس، ومن ثم يرتقي المسلم. فالمؤلف يعيدنا بطرحه إلى معين الإسلام الصافي، لتكون العلاقة بين المرء والقرآن علاقة وطيدة، سرًا وخبيئة بين العبد ومُنزِل القرآن.

وهو لن يتحقق إلا بالتدبر، والتأمل، ومصاحبة الآيات، والعيش في حياضها، ومن ثم ننظر إلى الأثر النفسي الناتج عن ذلك. حيث يقرر مؤلفنا: "إن قارئ القرآن المتدبّر، يتمتع بحالة هائلة من الاتزان البدني، والنفسي، والاجتماعي، والعقائدي، والفكري، والاقتصادي، يقرأ وقائع الحياة قراءات قرآنية. يتلقى الأنباء السارة والحزينة، وفق المخزون القرآني الكامن في أعماقه، إنه كائن لا تزحزحه أعتى الرياح، يستمد حصانته من صلب علاقته القويمة بالقرآن" (١١)، مما يثير قضية غاية في الأهمية، وتتصل بالتربية القرآنية للمسلم، التي تجعل القرآن حاضرا في بصر وبصيرة وذهن المسلم، كلما وقعت حادثة أو مشكلة، أو قرأ واقعة تاريخية أو علمية أو اجتماعية.. فإنه يخرج مما اختزنته أعماقه قرآنيا، ما يجعله يعي ما يصادفه ويعاينه من المنظور القرآني. وبالتالي نعيد فهم قوله تعالى: {وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا} (١٢)، وقد جاء في تفسير الآية، أن القرآن "يذهب ما في القلوب من أمراض، من شك ونفاق، وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله. وهو أيضا رحمة، يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة" (١٣).

فالقرآن شفاء للقلوب من أدرانها وأحقادها، والعقول من أسقامها وحيرتها وتشتتها، والروح من تقلباتها. وفوق ذلك: سيتراحم المؤمنون، لأن القرآن بركة ورحمة بآياته إذا

تليت، ورحمة لكل من سمعه، وتعامل به، واستحضره.

ويكون السؤال: وهل هذا فريد؟ وكيف؟ والجواب بالإيجاب. لأن تعاملنا مع القرآن، في أسوأ الحالات، بأن نجعله مهجورا، وفي أحسن الأحوال نقرأه آناء الليل، وأطراف النهار، ونحفظ آياته، ونصلي بها، ونرتلها في وردنا اليومي. ولكن القضية تتخطى هذا، وتبنى عليه دون ريب، حيث يصبح القرآن نهجا في الرؤية والعمل، وساعتها سينعم المؤمن بالراحة الكبرى، في مختلف أحواله، لأن صلته مع الله سبحانه وتعالى مباشرة، فالله تعالى يكلّم العبد بالقرآن، والعبد يناجي ربه بالدعاء، والله تعالى يرشد عبده، كلما استحضر الآيات القرآنية في سائر شؤونه، والعبد يلوذ بكلام ربه في كل ما يعنّ له.

يقول الأستاذ (عبد الباقي يوسف): "إن القرآن الكريم هو دليل الإنسان إلى معرفة الله، وإلى معرفة مقاصده في تشريعه، ومن ذلك انفجرت ثورة التفسير، التي يسعى المفسر من خلالها إلى محاولة لبيان مقاصد الله"(١٤)، فلن يعي المسلم الشريعة مادام يهجر كتاب الله، ولن يعي أي تفسير دون الرجوع إلى المصدر القرآني، والتفاسير تعددت، وكما يسميها المؤلف (ثورة التفاسير)، لأن التفسير عنوان لتفاعل العقل المسلم الواعي المدرك المتدبر – مع العلم والإحاطة باللغة والعلوم الشرعية – مع الآيات القرآنية.

ولاشك أن هناك إدانة صريحة ضد هؤلاء المسلمين الذين يعيشون بلا مبالاة وخمول في حياتهم، وهذا الأمر ينطبق أيضا على جماعات ودول مسلمة، وكانت سببا في الركود الحضاري الذي أصاب المسلمين جميعا.

فاللا مبالاة، يقول مؤلف الكاتب: "في أمور صغيرة، تؤدي إلى لا مبالاة في أمور كبيرة، والاستمرار فيهما يؤدي إلى لا مبالاة مطلقة تجاه كل خصائص وميزات إنسان اجتماعي يتسم بقيمة الأخلاق، ثم في مرحلة لاحقة إلى فقدان المسؤولية كاملة تجاه نواميس الحياة برمتها"(١٥). وقد يكون مصطلح اللامبالاة صادما، ولكنه واقع، فمسلمون كثر تركوا رسالتهم القرآنية على الأرض، وانهمكوا في الملذات، أو التبلد الحسي والعلمي.

القرآن والتغيير :

ونعني به: أن القرآن الكريم قادر على إحداث التغيير في الفرد والمجتمع والأمم والحضارات. والسيرة النبوية والتاريخ يخبرانا بذلك، فقد حوّل القبائل البدوية القاطنة في الجزيرة العربية من عرب رحّل إلى مؤمنين مهديين، ومن ثم توحّدوا تحت راية النبوة، وتحلت قلوبهم بالإيمان، فاندفعوا لينشروا الإسلام في الأرض، وتمكنوا من فتح غالبية الأقاليم المعروفة في زمانهم، ومن ثم استطاع القرآن أن يقيم حضارة تالدة، ظهرت عظمتها في الحواضر الإسلامية، مثل: بغداد والقاهرة ودمشق وفاس، والأهم أنها انطلقت برؤى القرآن، وصيغت علومها بلغته.

وبالتأكيد، فإن ما صلحت به أحوال المسلمين في أول حياتهم، ستنصلح به أحوالهم الآن، وفي القادم من الزمان.

وهذا ما أدركه مؤلفنا، حيث أشار إلى أن "القرآن يمتلك المقدرة على تغيير الناس بشكل نافذ، بحيث ينقل شخصاً ما من تاريخ عريق في الإلحاد، إلى تاريخ عريق من الإيمان، من إنسان سلبي يقف على تاريخ من الجور، إلى إنسان يشرق بنور إيجابيات الفطرة الإنسانية. إنه كتاب التحولات الكبرى في حياة الإنسان، إلى جانب أنه كتاب التحولات الكبرى في سلسلة المنجزات البشرية على مختلف الصعد"(١٦). وهي نظرة نحسبها شمولية، لأنها ارتأت أن القرآن ليس كتابا فحسب، ولا مصدرا للتشريع، وإنما هو قادر بآياته على أن يغير النفوس والأمم، وهذا ما أدركه الرسول والجيل الذهبي الأول، جيل صحابته الكرام، حين كانوا يحفظون الآيات، ويطبقونها لحظة بلحظة، ويوما بيوم.

"فعندما نقرأ القرآن، نصبح أكثر معرفة بأنفسنا، حيث يقدم لنا القرآن الكريم مكوّنات النفس، يقدم مزاياها، تركيبتها، ميولها. كما يرشد القرآن قارئه الماهر كيفية قيادة النفس" (١٧)، وهذا مصداق لقوله تعالى: {وفي أنفسكم أفلا تبصرون}(١٨).

وينقل (ابن كثير) عن (قتادة) في تفسير الآية: قال قتادة: "من تفكر في خلق نفسه، عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة"(١٩).

فإن التفكر لا يشمل الكون برحابته، ولا العالم البشري حولنا بتعدده، وإنما يبدأ بالنفس، والجسد، والذات، فإذا أدرك المسلم نفسه، وعرف جوانحه، ومطامع جوارحه، فله

أن يتعمق فيما حوله، فقد انفسح عقله على داخلها وخارجها.

أيضا، فإن متلقي القرآن، يستشعر سمو المعاني والقيم، فالرحمة مثلا وردت في القرآن في عشرات المواضع، إلا أن المؤلف يزيد في فهمها، فيقول: "فالإنسان يجوز له أن يكون رحيماً، كما يصفه الله، وهي رحمة إنسانية محضة، بيد أنه لا يمكن له أن يكون رحماناً، بأي مقياس من المقاييس، وذلك لشمولية معاني ودلالات هذا الاسم، المقتصر على الله وحده عزوجل" (٢٠). وهنا يبزغ مفهوم قرآني غاية في السمو، يتصل بأسماء الله الحسنى، ووقعها في قلب المسلم، الذي يتوقف أمام الرحمة المطلقة، كما تتجلى في الذات الإلهية، ويشتق منها أن يكون العبد رحيما، وهو موقن أن النموذج السامي اللامتناهي في الرحمة، الذي يقرأه في القرآن، يكون مع المولى جل وعلا، فهو الرحيم الرحمن بسائر مخلوقاته.

مع الأخذ في الحسبان أنه: "ليس بالضرورة أن يرتقي كل قارئ مع كل قراءة، بل قد تكون قراءة سلبية، فينحدر من درجة سابقة كان قد بلغها، لأن القرآن ليس كتاباً سهلاً، وليس بوسع الإنسان أن يبني علاقة قرائية نورانية معه، إن لم يستعد لذلك بدنياً وروحياً ومكانياً، ولا يفتح القرآن الكريم مرآته للقارئ، إلاً إذا كان متأهباً ومتأهلاً لهذا الفتح"(٢١). وتلك هي الوجهة الأخرى إذا تقاعس المسلم في قراءته، أو جعلها تلاوة آلية، ففي هذه الحالة سيرتد إلى الدرجات السفلى، وهكذا تكون العلاقة طردية بين العبد والقرآن، على قدر اجتهاده يسمو، وعلى قدر ركونه يتأخر.

يقول: "إن قراءة القرآن التدبرية تجنّب الإنسان كي يبقى هامشياً لا معنى لوجوده، إنها تعلمه كيف يتواصل مع سائر الفعاليات والمقومات الاجتماعية والإنسانية، فيشير ذلك إلى حضوره، كما أن غيابه يشير إلى فراغ" (٢٢)، وهذا بعد مهم، لأن القرآن حافز للمسلم على أن يكون مبرزا متميزا، لا يعرف هامشية ولا ركونا، ونفس الأمر مع الدولة المسلمة والحضارة المسلمة، لا يمكن أن تكون على هامش التاريخ، أو خارج السياق العالمي والدولي. وكما يقرر المؤلف بأن "هناك أبطال، كجنود مجهولين يعيشون في كل أحياء ومناطق وعواصم وبقاع العالم، بيد

أنهم يُعرفون بمواقفهم، على الأقل في نطاقات ضيقة، حتى لو كانت مقتصرة على أسرهم"(٢٣) ، وهؤلاء هم الدعاة الذين يبذلون الغالي والرخيص من أجل نشر الدين، سواء مع فرد أو مجموعات قليلة، المهم أن ينال المثوبة وشرف الدعوة.

فالإسلام لا يعرف الشخص السلبي، وإنما يعرف الإيجابي، يقول: "فالإيجابيون هم الذين يجعلون من الحياة مادة قابلة للعيش، إنهم مصابيح الهدى. محظوظ ذاك الذي يجد كائنا يميل إليه كل الميل، ويتعلق به كل التعلق، ويتفاعل معه كل التفاعل"(٢٤). فقارئ القرآن المتدبر إيجابي، والعالم والداعية في قمة الإيجابية.

المعايشة مع السور القرآنية وآياتها :

أورد المؤلف تفسيرا لبعض السور القرآنية، كنموذج للمعايشة القرآنية، يستهدي به من يتلو الآيات المعجزة. ففي (سورة الفاتحة)، التي يرتلها المسلمون في سائر صلواتهم، نجدها جامعة كل الخير، يعلق المؤلف عليها بقوله: "سورة مترابطة، متكاملة، لا تقبل التجزؤ: أولها رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة. عندما يبلغ الإنسان الصراط المستقيم، فإنه يبلغ الطمأنينة، وليس من سبيل إلى الطمأنينة الروحية، سوى سبيل الصراط المستقيم"(٢٥). فالسورة مناجاة، وحسنا فعل المؤلف بأن توقف عندها، ونظر إليها كوحدة مترابطة كلية المعنى والأثر، والمتمثل في الطمأنينة الروحية. وبتكرار التلاوة للفاتحة، مع التأمل الدائم في مضمون دعائها، يتحقق الالتزام بالصراط المستقيم.

يقول: " ندرك بأن الإنسان يرتقي في درجات تلقي معاني القرآن الكريم، على قدر ما يتمكن من توظيف طاقاته العقلية بشكل إيجابي، فيمسي القرآن بالنسبة إليه كتاب تحولات كبرى في محطات حياته، وعندذاك يُقال عنه بأنه إنسان عاقل" (٢٦).

ويقول :"إذ يتميز الإنسان دون سواه من مخلوقات الأرض، بلسان بليغ، يمكن أن يرفعه إلى درجات متقدمة في صفوف البشر، ويمكن أن ينحدر به إلى درجات سفلى من درجات الخزي" (٢٧) .

ويطرح المؤلف عدة أمثلة من القرآن الكريم، موضحا أن النظرة للمثل القرآني،

"تكمن في لغته الرمزية وسعة معانيه، التي تنطبق على أشخاص بعينهم، دون ذكرهم بالاسم، وهنا يبقى المثل مفتوحاً، وقابلاً لإنسان أي زمان ومكان، فالمثل – مهما بلغ من قِدم – يستمد تجدده من الحدث الجديد، والواقع الجديد " (٢٨). فالمقصد من ضرب المثل في القرآن: {إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا} (٢٩) هوالتعقل، والتدبر، والتفكر. المثل هنا يمنح فسحة للتعقل، وأخذ العظة(٣٠)، مصداقا لقوله تعالى: {وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون} (٣١).

وعندما يتعايش المسلم مع هذه الأمثلة والقصص، فإنه يستحضرها في كثير من لحظات حياته، عندما يجد موقفا مشابها، أو يحتاج إلى عبرها وعظاتها.

كما تعرّض المؤلف أيضا إلى (سورة البقرة)، وامتدت وقفته في ظلالها إلى عشرات الصفحات، استظل بفيئها، ونعم بما فتح الله عليه بها، لذا هو يؤكد أن " سورة البقرة هي سورة منهج حياة جديدة، لمجتمع يستمد تجدده من ثنايا هذه المقومات الجديدة، التي تشرعها وتنصها وتؤسس لها هذه السورة. إنها تقلّب كل الموازين والأعراف السائدة رأساً على عقب، وتسن لهذا المجتمع ما يميزه ويجعله متألقاً ومتأهلاً لنشر رسالة بلوغ الدين درجة الكمال، وإتمام نعمة الله على الإنسان " (٣٢). وهي قراءة كلية المقاصد لهذه السورة" متعددة الموضوعات والقصص والإرشادات والأحكام ، التي حفلت كتب التفسير بشروحاتها الجزئية.

السور القرآنية .. رؤية مكانية كونية :

ونعني بها كيف نظر المؤلف إلى القرآن المنزل في مكة والمدينة، إنه يرى أن الحكمة الإلهية شاءت أن يتنزل القرآن في مكانين: (مكة) حيث القبلة، و(المدينة) حيث تأسيس الدولة المسلمة، فالعلاقة بين مكة والمدينة هي "علاقة تبادلية وتكاملية". ففي (مكة) تنزلت أولى الآيات على الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وفي الهجرة إلى (المدينة) بدأت مرحلة انتقالية جديدة من مراحل نشر الدعوة. لقد لبث في (المدينة)، بيد أن العلاقة بدأت تأخذ تكامليتها، لأن القبلة لبثت في (مكة)، وهذا يرمز بأن الرسالة هي ليست مكية فحسب،

بل هي مدنية أيضا، والمدينة هنا ترمز إلى رحابة العالم، إنها ليست المدينة المنورة فحسب، على قدر ما هي المدينة الكونية، هنا يمكن أن أقول بأن الإسلام منذ هذه المرحلة بدأ في النداء العولمي، من أجل أن يكون عالم الإنسان عالما واحدا، مع الحفاظ على خصوصيات المجتمعات" (٣٣). ومعلوم أن مكة تتوسط العالم بموقعها الجغرافي المتميز في قلب كوكب الأرض، وأن المدينة لها نورانية الإشعاع، حيث اكتملت الدعوة والدولة، وكانت مركزا للحكم، وفيها قبر حامل القرآن ومبلغه (صلى الله عليه وسلم).

أيضا، فإن الرؤية المكانية تتجاوز إلى الكونية، "ربما من أهم التحديات التي تواجه الإنسان لحظة يبدأ وعيه بالتشكل (كونيا)، هو أنه يرى نفسه أمام وقائع حياتية متناقضة، ليس بوسعه أن يعيش في معزل عن مؤثراتها. هنا يكتشف مدى حاجته إلى ترويض النفس على استيعابها، والإحاطة بها، والوقوف موقفاً وسطيا أولياً منها، حتى يستقر الحدث، ومن ثم يأخذ موقفه المعتدل من واقع هذا الحدث"(٣٤)، فالتغيير في الكون والعالم حولنا لن يبدأ بالماديات، كما يظن الإنسان الغربي الحديث، وإنما يبدأ بالوعي الداخلي للإنسان، بأن يقهر نوازعه وشهواته، ويروضها، ومن ثم يندفع إلى الكون / الأرض / العالم / الناس.

فتاريخ الإنسان يثبت بأنه كائن مقاوم، فقد استطاع أن يبني الأرض، ويقدم ما يستطيع في سبيل أن يجعل من الأرض مسكناً صالحاً له. ومن جانب آخر، فقد تأججت نزعة الشر لدى فئات كثيرة من الناس، وهذه الفئات، التي تمضي وفق ما يملي عليها الشيطان، تبتغي نشر الفساد والطغيان في الأرض والناس معاً(٣٥)، هذا هو الإنسان العادي ، فما بالك لو كان مسلما واعيا بعقيدته ورسالته؟ ❐

هوامش:

١- انظر: عبد اللطيف الجوهري، الشاعر محمد إقبال وخطابه لأمة العرب، على موقع الألوكة للدراسات والبحوث
http://www.alukah.net/culture/0/4/7968

٢- الأستاذ عبد الباقي يوسف، سوري من أصل كوردي، من مواليد الحسكة في سورية، عام ١٩٦٤م، وقد أصدر سبعة أعمال روائية ومجموعات قصصية، وله موسوعة المعرفة في ثلاثة أجزاء. انظر موقع القصة السورية ،

ttp://www.syrianstory.com/youssef.htm

٣- ص٨٩ ، الارتقــاء في درجــات تلقــي معــاني القرآن .

٤- ص١٣٩ ، الارتقـاء في درجـات تلقـي معـاني القرآن.

٥- استقبال النص عنـد العـرب، د.محمـد المبـارك، المؤسسة العربية للدراسات والنشـر، بـيروت، ط١، ١٩٩٩م، ص٢٢٠.

٦- ص٩٢ الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن.

٧-ص٤٧ الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن.

٨-هناك علوم منبثقة من القرآن، مثل علم القراءات والتفســير وأســباب النـزول .. إلخ ، وهنـاك علـوم متعلقة بالقرآن، مثل: علوم اللغة، والفقه، وأصـوله. نظرة في نشأة القرآن وعلومه، د. مساعد بن سليمان الطيار على موقع :

http://www.attyyar.net/container.php?fun=artview&id=465

٩-ص٨٥ الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن.

١٠- ص٥. الارتقــاء في درجــات تلقــي معــاني القرآن.

١١- ص٧ . الارتقــاء في درجــات تلقــي معــاني القرآن.

١٢- سورة الإسراء ، الآية ٨٢.

١٣- تفسير ابن كثير للحافظ إسماعيل بن عمـر بـن كثير ، ، دار طيبة ، الرياض ، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٢م ، ج٥ ، ص١١٣ .

١٤- ص٢٣ الارتقــاء في درجــات تلقــي معــاني القرآن.

١٥- ص٧٨ المصدر نفسه.

١٦-ص١١ الارتقــاء في درجــات تلقــي معــاني القرآن.

١٧- ص٨٢ المصدر نفسه.

١٨- سورة الذاريات ، الآية ٢١ .

١٩- تفسير ابن كثير ، تفسير الذاريات، الآية ٢١.

٢٠- ص١٥ الارتقــاء في درجــات تلقــي معــاني القرآن.

٢١- ص٢٢ . الارتقـاء في درجـات تلقـي معـاني القرآن.

٢٢- ص٦٩ . المصدر نفسه.

٢٣- ص٧٢ . المصدر نفسه.

٢٤- ص١٢٣ المصدر نفسه.

٢٥- ص٢٠ المصدر نفسه.

٢٦- ص٣٣ المصدر نفسه.

٢٧- ص٤٠ المصدر نفسه.

٢٨- ص٥٠ . الارتقـاء في درجـات تلقـي معـاني القرآن.

٢٩- سورة البقرة ، الآية ٢٦ .

٣٠- ص٥٣ الارتقــاء في درجــات تلقــي معــاني القرآن.

٣١- سورة الحشر ، الآية ٢١ .

٣٢- ص١٤٠ الارتقـاء في درجـات تلقـي معـاني القرآن.

٣٣- ص٢٨ . المصدر نفسه.

٣٤- ص٨٢ الارتقـاء في درجـات تلقـي معـاني القرآن.

٣٥- ص١٥٥ المصدر نفسه.

قراءات سياسية

لا تجعلوا آفة الحزبية تفتك بالانتصارات وتقلل من أهمية البطولات



أحمد الزاويتي

ليس هناك كوردي لا يفرح بانتصارات (البيشمركة) و(الكريلا) و(وحدات الحماية)، من الرجال والنساء، في مقاومتهم لغزو (داعش) للمناطق الكوردية، من أقصى الغرب في (كوباني)، في غرب كوردستان، وحتى أقصى الشرق في (السعدية) و(جلولاء) جنوب كوردستان. وقد أثبت هؤلاء الأبطال، أن المقاتلين الكورد هم الأكثر أهلية، في المنطقة، وبذلك رأى العالم في الكورد عمليا الأمل في أن يكونوا رأس حربة في مواجهة الخطر الذي يشكله (داعش) تجاه عموم المنطقة، وهذا ما أكسب كوردستان شرعية واعترافا دوليا لم يسبق له مثيل، وأصبح اسم (البيشمركة) يتردد في خطابات وكلمات، وعلى ألسنة، أكبر المسؤولين، ورؤساء أكبر الدول، كالولايات المتحدة الأمريكية ودول الاتحاد الأوروبي، وأصبحت (أربيل)، عاصمة إقليم كوردستان العراق، قبلة لمسؤولي الدول العظمى، التي تسابقت في الإعلان عن استعدادها لتسليح البيشمركة وتدريبهم. وربما تكون هذه هي بداية الاعتراف الدولي بكوردستان، ككيان سياسي قائم بذاته، قد يتطور مستقبلا ليكون أكبر من كونه مجرد إقليم محاصر بدول، لا هي ترغب في كوردستان، ولا كوردستان ترغب فيها. لقد أصبح إقليم كوردستان، موقعا يبحث فيه عن الحلول لمشاكل المنطقة، بعدما كان هو نفسه مشكلة للمنطقة، ولما حواليها.

بطولات تنتظر التقدير

من الضروري في البدء الإشارة إلى بطولة المقاتلات الكورد، في (كوباني) خاصة، واللواتي قاومن لأكثر من مائة يوم، مقاومة بطولية، أجبرت (داعش) على التراجع، ومنعتها من السيطرة على المدينة، الأمر الذي شكل هزيمة لـ(داعش)، ومن يدعمها، ويشجعها، ويفرح لها، ويراهن عليها. هنا أشير بالتحديد إلى تلك البطلة، التي تم محاصرتها، ورفاقها، في المعبر الحدودي بين (كوباني) و(تركيا) (معبر: مرشد بينار)، حيث كانوا على وشك أن تعتقلهم (داعش)، لولا البطلة (آرين ميركان)، التي نفذت عمليتها الاستشهادية، وقتلت ٢٠ عنصرا

من (داعش)، وبها فكت الحصار، وأنقذت رفاقها من براثنهم. أو المقاتلة الأخرى، (بيريفان ساسون)، والتي قاتلت حتى نفذت كل ذخيرتها، وتجنبا لوقوعها في أيدي مسلحي (داعش)، أطلقت آخر طلقة على نفسها. هذه بطولات سيتذكرها التاريخ.

أما (البيشمركة)، فيمكننا الإشارة إلى نماذج من بطولاتهم: فهذا المقاتل المتطوع (فاخر برواري)، والذي كان بساق واحدة، حيث سبق أن فقد إحدى ساقيه بانفجار في مدينة (الموصل)، وكان يتحرك بساق صناعية، ويقوم بتفكيك المفخخات، وبذلك أنقذ حياة المئات، من مفخخات (داعش)، الذين كانوا يتركون المدن والقرى مفخخة بعد أن ينسحبوا منها، حتى سقط هو ضحية إحدى تلك المفخخات، وقضي عليه شهيدا في (زمار). وآخرهم البيشمركة البطل العقيد شيخ (أحمد مزيري)، والذي جعل من نفسه فدائيا لرفاقه، بعدما تقدمت نحوهم سيارة مصفحة مفخخة، ولم يتمكنوا من إيقافها بإطلاق النار عليها، فما كان منه إلا أن قاد سيارته إلى تلك المفخخة، وصدمها، لتنفجر قبل وصولها إلى صفوف البيشمركة الآخرين، وبذلك قضى نحبه شهيدا في معركة تحرير (سنجار). ويجب أن لا ننسى الشهيد البطل (عطا) ابن (محمد حاج محمود) رئيس (الحزب الاشتراكي الكوردستاني)، والذي كان يرافق والده في معركة (تل الورد) بـ(كركوك)، وقاتل حتى استشهاده.

هؤلاء يذكروننا ببطولات (البيشمركة)، على مدى العقود السابقة، من أجل حصول الكورد على حقوقهم المهضومة، ودفاعا عن وجودهم كشعب ووطن.

وهناك المئات من مثل هذه البطولات والشهداء، دماؤهم تستوجب على الجميع احترامها وتقديرها، وذلك بالابتعاد عن الصراعات الحزبية. فمن المؤسف أن نرى بعد كل انتصار، أن حزبا بعينه يحسب الانتصار لنفسه، وينفيه عن الآخرين. إن الانتصار يجب أن يكون كورديا وكوردستانيا، وليس حزبيا، فما من انتصار جعلناه حزبيا إلا وقد قللنا من قدره، وما من انتصار جعلناه كورديا إلا وقدرناه حق قدره، خاصة إذا علمنا أن (البيشمركة) في كوردستان الآن أصبحت مؤسسة محسوبة على الحكومة، وليس على حزب معين. وقد قاتل مع البيشمركة في (سنجار) و(مخمور) و(كركوك)، وغيرها، مقاتلون من أجزاء كردستان الأخرى (الشمال، والشرق، والغرب)، وهناك أيضا في (كوباني)، يقاتل (البيشمركة)، جنبا إلى جنب إخوانهم في (وحدات حماية الشعب) و(الكريلا)، هذا ما يجعل المعركة كوردية بحتة، لا معركة طرف كوردي دون آخر❐


دراسات

تطور أسطورة (صلاح الدين) في الغرب



المستشرقة البريطانية
كارول هيلينبراند

ترجمة وتعليق
ا.د. ناصر عبد الرزاق الملا جاسم
كلية الآداب / جامعة الموصل

تعليقات استهلالية(١)

✍يعد تطور أسطورة (صلاح الدين) في أوروبا، مثالاً نادراً واستثنائياً لتحول محارب مسلم من العصور الوسطى إلى بطل أوروبي. وهذا المثال للانتقال الثقافي بالغ الأهمية، طالما أن (صلاح الدين الأيوبي) كان الخصم الرئيس للغرب المسيحي، في زمن الحروب الصليبية.

وسيتم تحليل ثلاثة موضوعات رئيسة هنا: أولاً: (صلاح الدين) في مرآة المصادر المعاصرة له. ثانياً: تطور أسطورة (صلاح الدين) في أوروبا" وأخيراً: التساؤل عن سبب اجتذاب (صلاح الدين) – دون سواه من القادة الزعماء المسلمين الآخرين، من الحقبة الصليبية – هذه الشهرة الفائقة في أوروبا الغربية، بعد وفاته.

(صلاح الدين) كما يظهر في مرآة معاصريه الصليبيين

تستند معلوماتنا عن وجهات نظر الصليبيين عن (صلاح الدين)، خلال حياته، أساساً، على التاريخ المفصل الذي كتبه رئيس الأساقفة (وليم الصوري)، الذي كان مستشاراً للمملكة اللاتينية في (القدس) ١١٧٠-١١٨٤. وشهادة (وليم) لا تقدر بثمن، عند إجراء أي تقييم سليم لإنجازات (صلاح الدين الأيوبي)" فالإمكانيات الفكرية لـ(وليم) مؤثرة جداً، فضلاً عن مركزه المرموق في دوائر الحكم الفرنجية، وبالتالي يمكن أن يتكلم بحجية وببصيرة عن مواقف ومعتقدات النخبة السياسية الصليبية.

ولد (وليم) في الشرق الأدنى، وأجهد نفسه لتعلم اللغة العربية، وكذلك اللاتينية،



واليونانية، والفرنسية. وكان مشاركاً فاعلاً في الأحداث السياسية، ولا سيما في زمن ظهور وارتقاء (صلاح الدين)، حتى عام ١١٨٤. ولـ(الصوري) كتاب تاريخ عظيم، هو: (تاريخ الأعمال التي تمت ما وراء البحار)، الذي كتبه باللاتينية، والذي بقي مصدراً رائعاً لهذه السنوات الحاسمة. من المؤسف أن (الصوري) – ونتيجة لأسباب شخصية – أجبر على مغادرة (القدس)، وتوفي قبل سنتين من معركة (حطين)*. ومع ذلك، فإن تلك الظروف هي التي جعلت تقييمه لـ(صلاح الدين) ذا قيمة تنبؤية خارقة. وتعليقاً على ارتقاء (صلاح الدين) للسلطة، بعد وفاة (شيركوه) في عام ١١٦٩، وصف (وليم الصوري) (صلاح الدين الأيوبي) على النحو التالي: رجل حاد الذهن، نشط في الحرب، وسخي دونما حد(٢).

ومع ذلك، فإن صورة (وليم) لـ(صلاح الدين) لا تخلو من الانتقادات وعدم الدقة، فهو يورد – على سبيل المثال – أن (صلاح الدين) قتل بنفسه الخليفة الفاطمي، وأبنائه، قبل الاستيلاء على ثروات الخزينة في (مصر)، وأفسد عسكرها بالذهب(٣). وفي وقت لاحق، وبعد وفاة (نور الدين)، يلوم (وليم) (صلاح الدين) لنكرانه الجميل تجاه سيده السابق، بقوله: إزدرى (صلاح الدين الأيوبي) قوانين الإنسانية، وتغافل عن أصله (المتواضع)، وتنكر للأفضال التي أسبغها عليه والد الصبي من قبل، فقام بالتالي ضد ابن سيده، الذي لم يبلغ بعد الحلم(٤).

هذه الانتقادات الصارخة لـ(صلاح الدين) من قبل (وليم)، لا تنال، مع ذلك، من احترامه الثابت، وإعجابه به، وخوفه منه. فهو لم يقلل في أي موضع من كتابه من شأن العدو، أو الخطر الذي تمثله قوة (صلاح الدين) المتنامية تجاه مملكة القدس. في الواقع، إنه كان يدرك تماماً طموح (صلاح الدين)، ومزاياه القيادية، حينما يقول: إنه من دواعي سرور جميع الحاضرين... أننا ينبغي أن نبذل كل جهد لمقاومة هذا الرجل العظيم، المندفع من انتصار إلى آخر، إلى أعلى القمم(٥).

يتوقف وصف (وليم الصوري) لتاريخ الحروب الصليبية فجأة في عام ١١٨٤. كما

أنه يضع قلمه، وهو في حالة من اليأس، من النتيجة الحتمية التي كان يتوقعها للصراع مع (صلاح الدين). ومن حسن حظه أنه لم يعش ليرى انتصار (صلاح الدين) في (حطين) و(القدس). لذا فإن حكم (وليم) على (صلاح الدين) نابع من الخوف والإعجاب، لكنه كان قادراً أيضاً على انتقاد أخطائه، ولا سيما طموحه الذي لا حد له.

فيما يخص الرأي الصليبي لأسمى لحظتين من لحظات دور (صلاح الدين)، وهما: النصر في (حطين)، وفتح القدس عام ١١٨٧، نعتمد على رواية مصادر أدنى مرتبة من (وليم)، تتمثل بالمذيلين على كتابه** وأحدهم، هو: (أرنولد) سائس (باليان أبلين)***، وكان قادراً على تقديم صورة إيجابية لـ(صلاح الدين)، حتى في ساعة مريرة من الهزيمة، بعد فقدان (القدس)(٦)، فنراه يشيد بسلوك (صلاح الدين) في (القدس)، بعد الفتح، مشيراً إلى شفقته وعطفه تجاه السكان المسيحيين الذين هزمهم. وتحدث عن شهامته تجاه زوجات وبنات الفرسان في (القدس)، فيكتب أنه أعطاهم الكثير، حتى أنهم شكروا الرب، ونشروا في العالم اللطف والشرف الذي أنعم به (صلاح الدين) عليهم(٧). في وقت لاحق، في عام ١١٩٢، وبعد الهدنة مع (ريتشارد)، يُظهر (صلاح الدين) – في هذا المصدر – شفقته نحو القادة الصليبيين(٨). مثل هذه الأقوال كلها أكثر من رائعة، طالما أنها صادرة عن مصادر العدو، وأنها كتبت في أعقاب أعظم هزيمة سياسية ومعنوية للصليبيين.

ونحن نعرض صورة (صلاح الدين)، التي يمكن استخلاصها من الكُتاب الصليبيين، ذوي التجربة الشخصية في القتال والحياة في الشرق الأدنى، في القرن الثاني عشر، نجد أن (صلاح الدين) حتى في حياته، عندما كان العدو الرئيس للصليبيين، ينتزع من هذه المصادر الإعجاب تجاه شخصيته وإنجازاته. ويمكن الاحتجاج بالقول إن هؤلاء الكتاب قد يكونوا، تحت إلحاح الرغبة في تخفيف مرارة الهزيمة، قدموا المنتصر في ضوء إيجابي مبالغ به. وهذه مسألة ستتم مناقشتها لاحقاً في هذا البحث، لكن التفاصيل التي تبرز فروسية (صلاح الدين) الشخصية، وشفقته، وعطفه، لا تنسجم مع هذه النظرية، إذ يبدو أنه لم يكن هناك دافع لتمجيد (صلاح الدين) بهذه الطريقة، غير الرغبة في تقديم الوصف الحقيقي لما حدث، فشهادتهم المتوهجة تتماثل مع مديح كُتاب سيرة (صلاح الدين) العرب.

تطور أسطورة (صلاح الدين) في غرب أوروبا

لم يكد يمر بعض الوقت حتى دخلت شهرة (صلاح الدين) الأساطير والأدبيات

الرومانسية الأوروبية، فإذا كان (وليم الصوري) المعاصر تماماً لـ(صلاح الدين)، قد خشى كثيراً هذا الأمير "الأقوى"، وسلط الضوء على كبريائه، فإن هذه الصورة تحولت في بحر جيل واحد إلى صورة الزعيم الشهم والنبيل، والشخصية المحورية، والنموذج الذي تقتدي به الفروسية المسيحية، وذلك في نص لمؤلف مجهول، ذيّل فيه على النسخة التي كتبت بالفرنسية القديمة لكتاب (وليم الصوري): (تاريخ الأعمال)، في العقود الأولى من القرن الثالث عشر، وحملت عنوان (تاريخ هرقل)(٩).

ثم أصبح (صلاح الدين)، في مصدر آخر من القرن الثالث عشر، كُتب بالفرنسية القديمة، وحمل عنوان (تاريخ ما وراء البحار، وأصل صلاح الدين)، موضوعاً لأسطورة بطولية(١٠). يطلق المؤلف المجهول، صاحب هذا الكتاب، على (صلاح الدين): "(صلاح الدين) التركي، الفارس، الذي كان باسلاً جداً، وحكيماً"(١١). وفي حكاية طويلة، بعنوان (ابن الكونت بونتيو)(١٢)، يظهر (صلاح الدين) سليل عائلة (بونتيو) الفرنسية النبيلة، ويورد حكايات متسلسلة، تناولت حرب (صلاح الدين) مع ملكة تركيا، وحلفائها: الملك الايكسلن ملك النوبة، وخليفة بغداد(١٣). ويقص هذا المصدر أيضاً، في القسم المعنون: (نظام الفروسية)(١٤)، أن (صلاح الدين) يطلب من سجينه (هيو)، صاحب (طبرية)، تعليمه كيف يصبح فارساً مسيحياً(١٥).

ويمكن أن نجد ما يثبت الدافع الأسطوري المتعلق بـ(صلاح الدين) في قصة الديانات الثلاث، التي يرمز لها بثلاث خواتم، قد وجدت بالفعل في شكل جنيني في كتاب (تاريخ ما وراء البحار)، المشار إليه أعلاه. ووفقاً لهذه القصة، نرى (صلاح الدين)، وهو على فراش الموت، يطلب من ممثلي الديانات السماوية الثلاث إجراء مناقشة حول مسألة أي من هذه الديانات هو الأفضل، فيقول الكاتب: أرسل (صلاح الدين) الأيوبي، قبيل وفاته، إلى خليفة بغداد، وبطريرك القدس، وأحكم من وجد من اليهود في منطقة القدس بأكملها، لأنه كان يرغب في معرفة أي شريعة هي الأفضل(١٦).

وبعد انتهاء المناقشة، لم يعرف (صلاح الدين) أي دين يختار، لذلك قسم مملكته إلى ثلاثة أقسام، وأعطى الأفضل للمسيحيين، والثاني للمسلمين، والثالث لليهود(١٧).

تظهر صورة مماثلة (صلاح الدين) كبطل شهم، في العديد من الرومانسيات الفرنسية في القرون الوسطى. والمثال النموذجي هو عمل القرن الثالث عشر، بعنوان (أغنيات المطرب الجوال من مدينة ريمس)(١٨)، الذي يربط (صلاح الدين)

بـ(إليانور) صاحبة (بوردو)، زوجة لويس الوسيم (السابع) ملك فرنسا. هذه الملكة الفرنسية الشهيرة، التي استبد بها الضجر في (صور)، في شتاء عام ١١٤٨-١١٤٩، وفي حالة من اليأس تاقت إلى (صلاح الدين)، الذي تأثرت كثيراً بمآثره. وهنا لا تهم الدقة التاريخية، على الرغم من أنه ينبغي أن نتذكر أن (صلاح الدين) لم يكن سوى طفل في هذا الوقت****.

لا نعرف الكثير عن مؤلف قصيدة، تعود إلى بداية القرن الثالث عشر، بعنوان (نظام الفروسية)(١٩)، وتظهر صورة (صلاح الدين) من خلالها رائعة للغاية: فهو الملك الذي كان في ذلك الوقت أعظم سيد في الأرض الوثنية، والمسلم الأكثر ولاء(٢٠).

وتتحدث القصيدة عن دفع (صلاح الدين) لتعلم طقوس الفروسية، من قبل شخص (هيو/ صاحب طبرية)، الذي أسر من قبل (صلاح الدين) قرب (قلعة الشقيف)، ثم أطلق سراحه(٢١). فهو يخبرنا أن (صلاح الدين الأيوبي) كان يتحدث مع (هيو) باللاتينية، التي كان "يعرفها بشكل جيد جداً"(٢٢). وهذا يسبق بوقت طويل نسبة (بوكاشيو) لـ(صلاح الدين) القدرة على الحديث بلهجة أهل (لومبارديا)(٢٣).

لذلك، فمن الواضح أنه في غضون جيل واحد فقط، أو اثنين، أصبح (صلاح الدين الأيوبي) يتمتع بشهرة واسعة النطاق في الغرب، في القرون الوسطى، بوصفه رجل شجاعة كبيرة، وتهذيبٍ عال. وكانت بعض المصادر تبتهج لمجرد أنها تمتدح فضائله، وبعضها الآخر ذهب أبعد من ذلك، للإشارة إلى أنه اعتنق الدين المسيحي(٢٤).

(دانتي) (ت ١٣٢١) و(صلاح الدين)

أضافت معالجة (دانتي) لـ(صلاح الدين الأيوبي) الكثير إلى مكانته في أوروبا، في القرون الوسطى. ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أن (دانتي) وضع (صلاح الدين) في الجحيم، ولكن في الحلقة الأولى، بين فضلاء الوثنية وأبطالها في الماضي الغابر(٢٥)، ومع أن (صلاح الدين) قد وضع لوحده، إلا أنه لم يكن على مبعدة عن رموز، مثل: سقراط، وأفلاطون، وأقليدس، وجالينوس. كما تمتع (صلاح الدين) بقرب اثنين من عظماء الفلاسفة المسلمين: ابن سينا، وابن رشد. وبعزل (دانتي) لـ(صلاح الدين) قليلاً، فإنه كما يبدو أراد أن يخصه بعناية خاصة واستحسان: ومنعزلاً على جانب، رأيت (صلاح الدين)(٢٦). ويلهم (دانتي)، من خلال رؤية هذه الشخصيات، فيصفهم بأنهم: أرواح عظيمة، امتلأت أوداجي بالفخر لمجرد رؤيتهم(٢٧).

إن إدراج (صلاح الدين) ضمن هذه الجماعة، يدل على ثبات شهرته بالفضائل في أوروبا القرن الرابع عشر، على الرغم من انتشار الأحكام المسبقة المعادية للمسلمين بين المسيحيين في العصور الوسطى. ومع ذلك، من خلال وضعه وحده، أكد (دانتي) على أن (صلاح الدين) هو استثناء. وبالطبع، إن تمثيل (دانتي) للنبي كان عدائياً للغاية، عندما وضعه في أعماق الجحيم، بين صفوف أولئك الذين قد خلقوا الانشقاق، وهو أمر معروف جداً(٢٨).

(صلاح الدين) و(بوكاتشيو) (ت ١٣٧٥)

حظي (صلاح الدين) أيضاً بالأهمية في (ديكاميرون)***** حيث أورد (بوكاتشيو) حكايتين عنه. الحكاية الأولى ترتيبها الثالثة من حكايات اليوم الأول، وهي تقص القصة السابقة عن الخواتم الثلاثة. البطل الرئيس للقصة يهودي، إسمه ميلكيادِيس، من الإسكندرية، والذي سعى (صلاح الدين)، نتيجة إسرافه المعتاد، أن يقترض منه المال في حالة الطوارئ. وفي نفس الصورة التي ذكرها (وليم الصوري)، أشاد (بوكاتشيو) بـ(صلاح الدين): لم تقتصر بسالة (صلاح الدين) على أنه أصبح سلطان (مصر)، مع أنه من أصل متواضع، لكنه أيضاً حقق العديد من الانتصارات على الملوك المسلمين والمسيحيين(٢٩). كما هو الحال في (تاريخ ما وراء البحار) يقول (صلاح الدين) لميلكيادِيس: لهذا السبب أود بكل سرور أن أعرف منك أي من الشرائع الثلاثة باعتقادك صحيح: اليهودية أو الاسلام أو المسيحية؟

وبعد أن يقدم (ميلكيادِيس) رده المخضرم والحكيم، يعطيه (صلاح الدين) أكثر، أعطاه (صلاح الدين) هدايا نفسية جداً، "وجعله مقرباً منه، وأبقاه في مركز مرموق ومشرف، وجعله من المقربين"(٣٠).

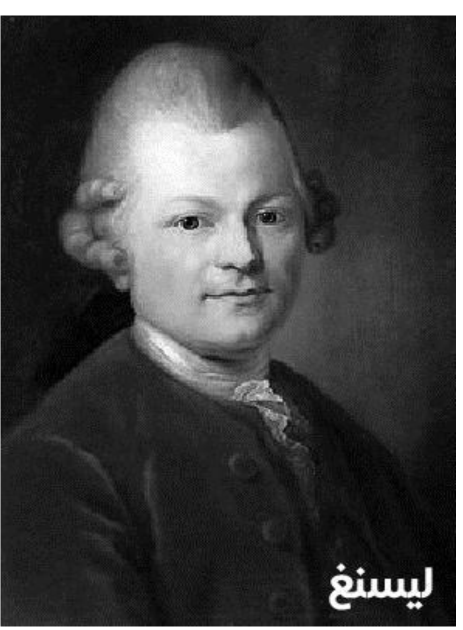
في القصة الثانية، التي ألقيت في اليوم العاشر، وكان ترتيبها التاسعة في ذلك اليوم، يخوض (بوكاتشيو) في مخزن غني من فولكلور القرون الوسطى حول أبطال الحروب الصليبية، ويروي فيها كيف "أن الأمير الأكثر بسالة، (صلاح الدين)"(٣١)، تنقل برفقة بعض قادته وخدمه، متنكراً في زي تاجر قبرصي على طريق (لومبارديا)، والتقى هناك برجل يدعى (توريللو)، الذي يستضيفه بحفاوة بالغة، على مدى عدة أيام. ولم يكن الحوار بينهم يمثل مشكلة، لطالما أن "(صلاح الدين) ورفاقه وخدمه يعلمون جميعاً اللاتينية"(٣٢). لقد صوروا بوصفهم سادة بالغي التهذيب: في الواقع، يصيح توريللو: أرجو من الله أن تنجب بلادنا سادة نبلاء على شاكلة ما أراه في تجار قبرص(٣٣).

ويذهب (توريللو)، في وقت لاحق، إلى الأراضي المقدسة، للمشاركة في الحملة الصليبية، لكنه يقع في الأسر، ويُجلب إلى (الاسكندرية)، فيجعله (صلاح الدين) مدرباً لصقوره(٣٤)، ثم يتعرف عليه فعلاً، ثم يُعرف نفسه لـ(توريللو)، ويعامله بأبلغ درجات التكريم(٣٥). وأخيراً يتم نقل (توريللو) إلى (لومبارديا)، حيث يقر لـ(صلاح الدين) الأيوبي بالصداقة والتبعية.

وهكذا فإن الصورة التي يقدمها (بوكاتشيو) عن (صلاح الدين) تبني على شهرته الثابتة، بوصفه بطلاً للفروسية، ونموذجاً للتسامح الديني.

(صلاح الدين) و(ليسنغ) (ت ١٧٨١)

يمثل (ليسنغ) أحد الرموز البارزة في عصر التنوير الألماني. وقد اختار (صلاح الدين) ليكون ممثلاً للإسلام في مسرحيته (ناثان الحكيم)، التي أكملها عام ١٧٧٩. وهذه المسرحية مشبعة بروح العصر – من قبيل التشكيك والتسامح الديني – فتظهر أن كل التصورات عن الحقيقة نسبية. وبعض جوانب شخصية (صلاح الدين) كما صورها (ليسنغ) تكشف عن تصوير (المستشرق) لـ(الآخر)، فيظهر متسرعاً، مستبداً، وحشياً، يحكم بإرادة النزوة والتعسف. ومع ذلك، يبذل (ليسنغ) عناء شديداً وهو يصف (صلاح الدين) في ضوء متعاطف، مع تطور



أحداث المسرحية(٣٦). وتدور أحداث المسرحية في بيئة شرقية، مما يتيح لـ(ليسنغ) الإفلات من العقاب، لنقده اللاذع للدين القائم في أوروبا. اختياره (القدس) موقعاً لمسرحيته، لذلك، موفق بدرجة كبيرة، لا سيما وأن هذه المدينة المقدسة، مقدسة للأديان التوحيدية الإبراهيمية الثلاثة، التي وضعها تحت المجهر في المسرحية. إن اختيار العمل ليكون في الشرق، في (القدس)، يمنح المسرحية رسالة من القبول العالمي.

ولكن لماذا اختار (صلاح الدين الأيوبي) لتمثيل المسلم الأصيل؟ مما لا شك فيه أن (ليسنغ) كان على دراية بالتراث الأسطوري الغني، الذي كان قد نشأ في أوروبا عن (صلاح الدين). وإن التركيز على

اختيار بطل مسلم، علاوة على ذلك، ينتمي للحروب الصليبية، مكّنه من إثارة ذكريات الصراعات الدموية بين الأديان، ويحمل رسالة بأن هذا الصراع يجب أن لا يتكرر. إن (صلاح الدين)، وليس فرسان الداوية، هو المحرك الرئيس للمسيحية، فقد ظهر منفتحاً ذهنياً بما فيه الكفاية ليسأل (ناثان) اليهودي السؤال الرئيس في المسرحية: أي دين، الذي تضيء لك شريعته أكثر؟(٣٧).

ثم يتم استخدام (صلاح الدين الأيوبي) لسان حال موقف ما قبل التنوير، الذي يؤكد على أن ديناً واحداً فقط، من الديانات السماوية الثلاث، يمكن أن يكون على حق، وعلى الرغم من رغبته في معرفة الجواب على سؤاله، يظهر جوابه كوهم مفاجئ من جانبه: يمكن أن أكون أنا حقاً السلطان الأول، الذي لديه مثل هذه النزوة(٣٨).

قصة الخواتم الثلاثة، التي استخدمت بالفعل من قبل (بوكاتشيو)، وغيره قبله، أصبحت بقلم (ليسنغ)، وسيلة إرشادية يستخدمها (ناثان) اليهودي للدعوة إلى التسامح الديني. (صلاح الدين) دافئ القلب وحساس بما يكفي لاحتضان رسالة (ناثان). في الواقع، وفي تعليمات مطولة بشكل غير عادي، وصريحة، كتب (ليسنغ) أن "(صلاح الدين) اندفع إلى (ناثان)، وأخذ بيده، ولم يطلقها حتى نهاية القصة"(٣٩).

وتحدث (ناثان) بالخير عن (صلاح الدين) حتى قبل أن يلتقي به، مؤكداً أن الرأي العام يقدره عالياً(٤٠)، وأن أحد الداوية قد أطرى شهامة (صلاح الدين) في إنقاذ حياته. كما أنه يعلن: إن الحياة التي أحياها هي منحة منه(٤١).

ذلك هو، بطبيعة الحال، حق الكاتب المسرحي لتشويه التاريخ، أو حتى تحويله إلى أسطورة. وهنا يسمح (ليسنغ) لنفسه بالتأكيد على مثل هذه الحرية. في الواقع، أسطورة كرم (صلاح الدين)، ورحمته، تجاه من هزم في المعركة، لم تمتد نحو فرسان الداوية، الذين كان يكرههم، والذين لم يسمح لهم بالبقاء بأي بقعة بعد معركة (حطين)(٤٢). ولعله من الممكن أن يكون فارس الداوية، الذي ذكره (ليسنغ)، هو صدى قصة (جيرارد ريدفورد)، سيد الداوية الفارس الشهير، الذي نجح بالهروب من الإعدام بعد (حطين)(٤٣).

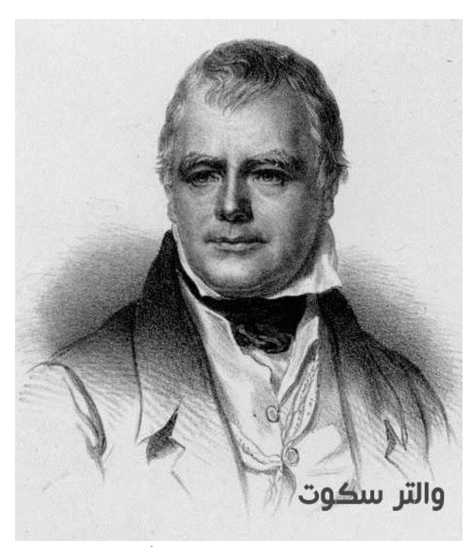
ولكن ما الذي كان يعرفه (ليسنغ) عن (صلاح الدين) "التاريخي"؟ اثنين من التفاصيل الصغيرة تظهر محاولة من جانبه لاستحضار سياق بلاط (صلاح الدين)، فنجده هو وأخته (ستّ) (الكلمة العربية لـ "سيدة") يلعبان الشطرنج معاً(٤٤)، والقول بأن (صلاح الدين) كان بحاجة لاقتراض المال من (ناثان)، ربما هو صدى لخزينة (صلاح الدين) الخاوية،

كما هو معروف(٤٥).

(صلاح الدين) والسير (والتر سكوت) (ت ١٨٣٢)

أثبتت الظاهرة الصليبية أنها كانت مصدراً غنياً للإلهام للخيال الأدبي والفني، في القرن التاسع عشر في أوروبا. وأسوة بكتاب مشهورين آخرين من القرن التاسع عشر، مثل: (دزرائيلي) و(مارك توين)(٤٦)، افتتن السير (والتر سكوت) بالحروب الصليبية، وهي الظاهرة التي استخدمها في أربع روايات له(٤٧)، لتكون خلفية للحكايات الغرائبية، وكتعبير عن المثاليات النبيلة.

لم يمتلك (سكوت) معلومات مباشرة عن العالم الإسلامي، لكن ذلك لم يمنعه من الكتابة عن مآثر الصليبيين في الشرق الأوسط. لقد قرأ على نطاق واسع في المصادر الأولية الأوروبية عن الحروب الصليبية، ولكن هو نفسه يعترف بأن المعلومات التي يمتلكها ثانوية. فكما يقر في مقدمة روايته (الطلسم) (بتاريخ ١ يوليو ١٨٣٢)، أي قبل شهرين من وفاته: أدركت صعوبة إعطاء صورة حية لجزء من العالم، الذي كنت تقريباً غير ملم به تماماً، إلا من الذكريات المبكرة لألف ليلة وليلة(٤٨). ويواصل (سكوت)، مبدياً ملاحظته بهذا الشأن، قائلاً: تحت عجز الجهل بالطباع



الشرقية، الذي طوقني بغيومه الكثيفة، إحاطة الغيوم بالمصري(٤٩).

في غياب الخبرة المباشرة استعان (سكوت)، في استعادته لشخصية (صلاح الدين)، مزيجاً من الخيال الاستشراقي، وأساطير الفروسية. والعنصر الأساسي الذي استخدمه (سكوت)، في تصوير (صلاح الدين)، هو المقارنة بينه وبين (ريتشارد قلب الأسد). فقد وضعت شخصية (ريتشارد)، الميالة للحرب، "المتوحش السخي، مثال الفروسية، بكل ما فيها من إسراف الفضائل، والرذائل، التي لا تقل عنها إسرافاً"(٥٠). وتميل كفة المقارنة لصالح (صلاح الدين). ومع ذلك، فإن هذه المقارنة، المرجحة لـ(صلاح الدين)، إنما صيغت بلغة التفوق الأوروبي والتعالي تجاه الشرق. في الواقع، "أظهر الملك المسيحي الإنجليزي كل قسوة

السلطان الشرقي، بينما عبر (صلاح الدين)، من ناحية أخرى، عن السياسة العميقة والحكمة، التي هي من صفات الملك الأوروبي"(٥١). ويرى (سكوت) هذا "التباين الفريد"(٥٢) بين الحاكمين، ثيمة أدبية مفيدة لروايته. وهما، فضلاً عن ذلك، سيتنافسان مع بعضها البعض على التفوق "في الصفات الفروسية، من الشجاعة والسخاء"(٥٣).

في داخل الرواية نفسها، يقتفي (سكوت) التقليد الغربي في العصور الوسطى، الذي عزا إلى (صلاح الدين الأيوبي) صفات "العدو السخي والباسل"(٥٤)، فظهر السلطان "طيب القلب مخلص أمين، إن صح أن تطلق هذه الصفات على كافر أعمى البصيرة"(٥٥)، وبدا (صلاح الدين) في نظر (ريتشارد)، مثالاً لقيم الفروسية الأوروبية: ما أجدرنا... أن نطبق ذلك على كرم (صلاح الدين)، منذ ذلك الحين، فهو إن يكن وثنياً كما هو، إلا أنني لم أعرف فارسا مثله يتوفر فيه النبل، ونستطيع أن نركن بأمرنا إلى عدله وكرمه ليقطع فيه(٥٦).

وتردد (الطلسم) أصداء أخرى من ذخيرة المواضيع الأوروبية، المرتبطة بـ"أسطورة" (صلاح الدين)، بما في ذلك رغبة (ريتشارد) بتحويل (صلاح الدين) إلى المسيحية(٥٧)، والمشروع المزعوم لتزويج (صلاح الدين) بقريبة (ريتشارد)، وهي سيدة من أسرة (بلانتجنت) المالكة، تدعى (ايديث)(٥٨). وكما جرت العادة، يصور (صلاح الدين الأيوبي) فخماً في عطاياه: تقبض اليد اليمنى للسلطان على كنوز الشرق، وهذا هو فيض سخائه(٥٩).

وتبلغ الصورة المثالية، التي رسمها (سكوت) لـ(صلاح الدين)، ذروتها الرومانسية، في لقائه مع (ريتشارد)، وهو الاجتماع الذي عقد مع أروع أبهة واحتفال: وتتمثل، في الحقيقة، بين ثنايا مظهر (صلاح الدين)، بوادر صورة (رودولف فالنتينو): (الشيخ العربي)*******: ارتدى (صلاح الدين) نوعاً من القناع معلق بعمامته، حجب جانباً من ملامحه النبيلة. وكان يمتطي جواداً عربياً، أبيضاً، يحمله وكأنه يحس ويفكر براكبه النبيل(٦٠).

وتعانق كلا الحاكمين "كأخوين وندين"(٦١). ومع ذلك، لا يستطيع (سكوت) مقاومة الرغبة لإجراء المزيد من المقارنة بينهما. عندما قطع سيف (ريتشارد)، القوي ذي المقبضين، "في امتحان سليم للقوة"، صولجان من الحديد إلى قطعتين، رد (صلاح الدين) بأن أخذ السيف ذي، "الشفرة المنحنية والضيقة"، وبحساسية غير عادية، قطع وسادة الحرير إلى شطرين(٦٢).

ولعل من المستغرب، مع ذلك، ونظراً للتهويمات الخيالية التي أظهرها (سكوت)، في اللقاء المطول بين (ريتشارد) و(صلاح الدين)، أن نجد أساساً تاريخياً صلباً لكلمات (صلاح الدين) على الصفحة الأخيرة من الرواية، حيث يردد ما ذكره المصدر العربي المعاصر لـ(صلاح الدين)، والذي فيه السلطان هاتفاً: أنا لا أسلم لك القدس، الذي تتحرق شوقا للاستيلاء عليه. فهو لنا – كما هو لكم – بلد مقدس(٦٣).

وخلاصة القول، بالتالي، كان (سكوت) ابن زمنه، قد قبض على العناصر الرومانسية في أسطورة (صلاح الدين). وقد امتلك (صلاح الدين الأيوبي)، بوصفه مثال الفروسية والشهامة، قلب (سكوت) ومخيلته. ومثل معاصريه، قدّر (سكوت) في اسكتلندا البعيدة، أن الحروب الصليبية لم تكن ذلك المشروع النبيل، كما يعتقد البعض، وأنه قدم التحية لـ(صلاح الدين) والثقافة الإسلامية التي مثلها بطله(٦٤).

(صلاح الدين) في الدراسات البحثية في القرن العشرين

ظهرت بعد سنوات عديدة على زمن السير (والتر سكوت)، سلسلة من السير عن (صلاح الدين الأيوبي)، كتب بعضها متحمسون، مثل: (روزبولت)، وأخرى لمستشرقين غربيين، مثل: (لين بول)،



و(هاملتون كب). وقد حافظ كُتاب مثل هؤلاء على الصورة المتوهجة لـ(صلاح الدين) سليمة لا تشوبها شائبة. لقد وصف (روزبولت) (صلاح الدين) بأنه "بطل متجذر في أسمى مبادئ الفروسية"(٦٥)، و"فارس لجميع الأزمنة، كامل في مظهره، كامل في سلوكه" عظيم في السخاء والتهذيب الأخاذ، كما لو أنه قد ولد بالتأكيد ليرتدي الأرجواني"(٦٦). تحدث (لين بول) عن (صلاح الدين الأيوبي) كـ" رفيق مألوف، وأنيس، يحمل اسماً محبباً"(٦٧)******* أما (جاكسون)، و(ليونز)، من ناحية أخرى، فلديهما نهج أكثر توازناً، فهما "جردا (صلاح الدين) من صورته الأسطورية، إلى حد ما، لكنهما لم يضرا بالخطوط العريضة



الأساسية لدوره التاريخي، وسمات شخصيته، وحجم إنجازاته(٦٨). إلا أن الصوت المنشق كان (اهرنكروتز)، الذي كتب في عام ١٩٧٢، سيرة مثيرة للجدل عن (صلاح الدين)، حاول فيها إنزال (صلاح الدين) من عليائه(٦٩). يقول (اهرنكروتز): إن شهرة (صلاح الدين) تأسست نتيجة تحريره (القدس)، ولولا ذلك لم يكن له أن يتباهى بأي إنجاز بارز. وحتى انتصار (صلاح الدين) الكبير في (حطين)، بزعم (اهرنكروتز)، سببه الأخطاء التكتيكية الأساسية، من جانب الصليبيين، بدلاً من التخطيط الإيجابي لـ(صلاح الدين) نفسه. في تلخيصه لدور (صلاح الدين)، يرى (اهرنكروتز)، بسبب المدائح التي ساقها كتاب السيرة المعاصرين لـ(صلاح الدين)، وهما: (عماد الدين الأصفهاني)، و(ابن شداد)، "ارتفعت شهرة (صلاح الدين)، بعد وفاته، إلى مستوى العظمة الأسطورية، والقداسة المبرأة من كل عيب"(٧٠)********.

لماذا (صلاح الدين)؟

ولكن لا تزال هناك مسألة واحدة، يمكن تلخيص ذلك في عبارة: "لماذا (صلاح الدين الأيوبي)؟" لماذا اجتذب (صلاح الدين)، وليس القادة المسلمين الآخرين، ممن قاتلوا الصليبيين، لا سيما، (عماد الدين زنكي)، و(نور الدين)، أو (بيبرس)، من اجتذب مديح الأجيال القادمة؟ يمكن استبعاد (زنكي)، طالما أن من الواضح أن عملياته تدخل في نطاق سياسة القوة فقط، وأن شخصيته، حتى في المصادر الإسلامية، تظهر غير جذابة. لكن ابنه (نور الدين)، كان حالة مختلفة تماماً. فقد حظي بالكثير من الإعجاب والاحترام، في حياته، من جانب المسلمين والمسيحيين على حد سواء. وقد وصفه (وليم الصوري) بأنه "أمير عادل، وحازم، وحكيم، ومتدين وفقاً لتقاليد بني جنسه"(٧١). إن (نور الدين) كان بحق السلف الحقيقي لـ(صلاح الدين الأيوبي)، فما الذي جعل (صلاح الدين) أكثر الزعماء المسلمين تكريماً في عيون الغرب؟

ومن الواضح أن (صلاح الدين) كان يمتلك أصدقاء حميمين بين الفرسان الصليبيين، مثل (باليان ابلين)، وأنه حظى باحترام كبير من قبل (ريتشارد قلب الأسد)، و(ريموند) صاحب (طرابلس). وإن الكرم الذي أظهره، عقب الانتصار في (حطين)، ومن بعدها في (القدس)، قد نال إعجاب المصادر الصليبية. وعموماً إن هذه حقائق جلية، تسربت إلى الصورة الأسطورية اللاحقة، التي أظهرته رجلا متحضرا، شريفا وعطوفا. ولكن هذا لا يفسر لماذا أصبح (صلاح الدين) أكثر المسلمين شهرة في الغرب، باستثناء النبي (محمد) نفسه. قد يكون ذلك لأن (صلاح الدين) هو من استولى على (القدس)، فبات مادة أسطورية. وقد تشوق المسيحيون لاستعادة السيطرة على المدينة الأعظم قداسة لمدة خمسة قرون.. الآن وبعد أن انتزعوها من أيدي المسلمين، بفضل جهد فوق طاقة البشر، وتمكنوا من التمسك بها لفترة وجيزة، وقعت بأيدي لمسلمين مرة أخرى. لقد كان سقوط (القدس) بالتأكيد أمرا لا يمكن أن يتحمله النصارى، سواء في شرق المتوسط، أو لمن عاد إلى موطنه في الغرب. وكان من الدفاع الطبيعي بالنسبة لهم، التأكيد بأن الرجل الذي هزمهم لم يكن رجلاً عادي الصفات. الإيمان بأنهم خسروها أمام خصم استثنائي، وغالباً خارق للمألوف، لا بد أن يكون وسيلة لاحتمال ذل الهزيمة. وإن عملية من هذا النوع أمر يعرفه علماء النفس.

وأياً كان السبب وراء شهرة (صلاح الدين)، فمن الحق القول إنه لم يحدث أن تعلقت مخيلة الأوروبيين بشخص مسلم قدر تعلقها بـ(صلاح الدين). إن تفوقه على معاصريه، من مسلمين ونصارى، أقر به أعداؤه الصليبيون، إبان حياته. وإن صورته، حتى في ظل التعصب الأعمى للعصور الوسطى، قد بقيت نقية، لا بل أضفي عليها عناصر رومانسية، في وقت كان فيه موقف أوروبا من الإسلام مزيجاً مؤسفاً من الجهل والعداء.

تعليقات ختامية

إن انبهار أوروبا بـ(صلاح الدين) عميق الجذور. لقد بدأ بعد وفاته عام **١١٩٣** بفترة قصيرة، وتواصل منذ ذلك الوقت. بالتأكيد إن نمو أسطورة (صلاح الدين) قد حدث في الغرب، وليس في الشرق الأوسط، فالصورة التي رسمها له (ليسنغ)، كعنصر من عناصر التنوير في مسرحيته (ناتان الحكيم)، و(والتر سكوت)، في (الطلسم)، ليست إلا لحظتين بارزتين من تقليد عريق عن رومانسية (صلاح الدين).

والمفارقة المثيرة للفضول، أن الشرق الأوسط المسلم اكتشف، أو أعاد اكتشاف (صلاح الدين)، بتاريخ متأخر نسبياً، وعبر

طريق دائري، إذ عرف المسلمون عن هذا البطل، في القرن التاسع عشر، ومع حلول عصر الاستعمار، عندما قام النصارى العرب بترجمة الكتابات الأوروبية عن الحروب الصليبية، وعادوا فأخبروا بني قومهم من المسلمين عن مآثر (صلاح الدين). فأقبل عليه العالم الإسلامي. وبالنتيجة أعاد صياغة صورته بهيئة البطل الكاريزمي، الذي سوف يوحد الشرق الأوسط ضد قوى العدوان الخارجي. وتطلع العديد من الزعماء العرب في العصر الحديث لأن يكونوا (صلاح الدين) جديدا❒

المعلومات النشرية لهذا البحث هي:

Carole Hillenbrand, "The Evolution of the Legend of Saladin in the West" Mélanges de l'Université Saint-Joseph 58 (2005).

– كارول هيلينبراند: مستشرقة بريطانية متخصصة في دراسة المصادر العربية في زمن الحروب الصليبية، حصلت على الدكتوراه عام ١٩٧٩ بأطروحة عن تاريخ ابن الأزرق الفارقي، وأصبحت أستاذة للتاريخ الإسلامي في (جامعة أدنبرة) بأسكتلندا في عام ٢٠٠٠. لديها مؤلفات متعددة في مجالات التاريخ الإسلامي. حصلت في عام ٢٠٠٥ على (جائزة الملك فيصل) عن كتابها (الحروب الصليبية من منظور إسلامي)، وكانت أول شخص غير مسلم يحصل على هذه الجائزة.

– الهوامش التي تحمل العلامة (*) هي للمترجم، بينما الهوامش التي تتصدرها أرقام فهي للمؤلفة.

الهوامش والتعليقات:

(١) قامت الباحثة بترجمة النصوص الأصلية بنفسها، ولم تستند إلى الترجمات الإنكليزية المتوفرة.

(*) من الثابت أن (وليم) كان مرشحاً لتولي بطريركية القدس، لكن الملكة الصليبية فضلت عليه شاباً وسيماً هو أسقف قيسارية، مما أثار استياء (وليم) ومغادرته المملكة، متوقعاً خرابها على أيدي (صلاح الدين).

(٢) WILLIAM OF TYRE (1844), Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum, éd. BEUGNOT A. et LANGLOIS A., vol. 2, (Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux, 1) Imprimerie Royale, Paris, p. 958.

(٣) Ibid., p. 958..

(٤) Ibid.

(٥) Ibid.,1016..

(**) من فرط المكانة والشهرة التي حازها (وليم الصوري) في الغرب، حملت المؤلفات التي كتبت بعده تسمية الذيل أو المذيل على تاريخه.

(***) باليان ابلين هو أحد القادة الصليبيين، وتولى الدفاع عن القدس عندما حاصرها (صلاح الدين)، وفاوضه على شروط تسليم المدينة. وكان سائسه (أرنول) شاهداً على عملية الحصار، وعلى كرم (صلاح الدين)، وسماحته، التي أذهلت الصليبيين.

(٦) DE MAS LATRIE L. (ed.) (1871), Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier, Renouard, Paris.

(٧) DE MAS LATRIE, Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier, p. 230.

(٨) Ibid., p. 293.

(٩) PHILLIPS J. (2002), The Crusades, 1095-1197, Harlow – Longman, London/ New York, p. 150.

(١٠) JUBB M. A. (ed.) (1990), A Critical Edition of the "Estoires

d’Outremer et de la naissance Salehadin”, (WestfieldPublicationsinMedievalStudies, 4) Queen Mary and Westfield College – University of London ,London

(١١)JUBB, A Critical Edition of the “Estoires d’Outremer”, p. 9-88: “Courtois Turc Salehadin, ki tant fu preus et sages .”

(١٢)Ibid., p. 59-89.

(١٣)Ibid., p. 137-40, 148-52, 157-62, 172-4.

(١٤)Ibid., p. 109-14.

(١٥)Ibid., p. 110: “Vous m’ensaigniés comment on fait chevalier a la loi crestienne et ke vous le me mostrés.”

(١٦)Ibid., p. 235.

(١٧)Ibid.

(١٨)DE WAILLY N. (ed.) (1876), Chronique de Rains. Récits d’un ménestrel de Reims au treizième siècle, (Société de l’Histoire de France, 179) Renouard, Paris .

نوقش هذا العمل في الكتاب الآتي:

LANE-POOLE S. (1898), Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, G. P. Putnam’s Sons, New York/ London, p. 380-2.

(****) سبق لمترجم هذا الكتاب أن نشر بحثاً بعنوان: (صلاح الدين في القصص الرومانسية الفرنسية والإنكليزية) العدد ٨، عام ١٩٩٦ في مجلة مركز الوثائق والدراسات في (جامعة قطر)، تناول فيه بالتفصيل القصص المتعلقة بجوال مدينة ريمس.

(١٩) يحتج محقق الكتاب بأن المؤلف قد يكون من السلك الكهنوتي، ويحدد تاريخه تقريباً ١٢٢٠ قارن:

BUSBY K. (ed.) (tr.) (1983), Raoul de Hodenc, Le Roman des Eles. The Anonymous Ordène de Chevalerie, Jean Benjamin's Publishing Company, Amsterdam/ Philadelphia, p. 86–7.

(٢٠)BUSBY, Raoul de Hodenc, Le Roman des Eles, p. 105: “(D)’un roi qu’en terre paienie, Fu jadis de grant seignorie, Et fu molt loiaus Sarrasins”, and p. 170.

(٢١) لمناقشة الهوية المحتملة للمؤلف، انظر: المصدر السابق، ص ٨٦.

(٢٢)Ibid., p. 106.

(٢٣) قارن ص٧٤ من هذه المقالة.

(٢٤) للاطلاع على المناقشة الكاملة لهذا، راجع:

PARIS G. (1893), “La légende de Saladin”, Journal des Savants, May, p. 284–99, especially p. 289.

(٢٥) (آسين بالاسيوس) يتخذ موقفاً سلبياً من صورة (صلاح الدين) لدى (دانتي)، والمكان الرفيع الذي اختاره له في الجحيم: "لا الخلال العسكرية، ولا شهامة (صلاح الدين الأيوبي)، عدت من الفضائل الطبيعية في حد ذاتها، لتبرير إعفائه من العقوبة الأبدية، لرجل أوقع مثل هذا الأذى البلغ بدين المسيح".

ASÌN PALACIOS M. (1968), Islam and the Divine Comedy, tr. SHUTERLAND H., Cassel, London, p. 262.

(٢٦)DANTE, La Divina Commedia, annotated by MALAGOLI L., 3 vol., La Prora, Milan [1961-1962], vol. 1: Inferno, canto 4, 54.

(٢٧)ibid., 53.

(٢٨)Ibid., canto 28, 355-6.

(*****) (دي كاميرون) هي من أمهات الأعمال القصصية الأوروبية التي أسست لعصر النهضة، كتبها الإنساني (بوكاشيو). وتتضمن مجموعة من ١٠٠ قصة، رويت على لسان عشرة شباب وشابات، فروا من (فلورنسا) بسبب الطاعون، والتجأوا إلى فيلا خارجها، ولتزجية الوقت The Renaissance قص كل

منهم عشر قصص، وأهميتها أنها أسست للأدب الإنساني، الذي كان عماد النهضة الأوروبية.

(٢٩)BOCCACCIO G., Decameron, ed. MARTI M., 2 vol., Rizzoli, Milan, [1974], p. 44–7.

(٣٠)Ibid., p. 47.

(٣١)Ibid., p. 707.

(٣٢)Ibid., p. 709.

(٣٣)Ibid.

(٣٤)BOCCACCIO G., Decameron, ed. MARTI, p. 713.

(٣٥)Ibid., p. 714.

(٣٦)LESSING G. E. (1988), Nathan der Weise, ed. HILL D., (New German Studies Texts & Monographs, 9) University of Hull, Hull.

(٣٧)Ibid., p. 117–8: “Was für ein Glaube, was für ein Gesetz hat dir am meisten eingeleuchtet”؟

(٣٨)LESSING, Nathan der Weise, ed. HILL, p. 118: “Kann wohl sein, dass ich der erste Sultan bin, der eine solche Grille hat”.

(٣٩)Ibid., p. 124 .

(٤٠)Ibid., p. 99.

(٤١)Ibid.

(٤٢) للأدلة من المصادر الإسلامية، ينظر:

HILLENBRAND C. (1999), The Crusades: Islamic Perspectives, Routledge, Edinburgh, p. 421, n. 23–6.

(٤٣) وفقاً لـ(باربر) نحن لا نعرف السبب الذي جعله "الفارس الوحيد الذي أبقي على حياته بعد حطين". ويمضي (باربر) لتعليل ذلك بسبب أن (صلاح الدين) قد أدرك قيمته كصفقة للمبادلة.

BARBER M. (1994), The New Knighthood. A History of the Order of the Temple, Cambridge University Press, Cambridge, p. 116.

(٤٤)LESSING, Nathan der Weise, ed. HILL, p. 79 .

(٤٥)Ibid., p. 89:

لم نستطع الحصول على مستلزمات جنازته، على رخصها، إلا من خلال اقتراض المال

."See IBN SHADDĀD Bahā’u al-Dīn Abū al-Ma¸āsin (2001), The Rare and Excellent History of Saladin or Al-nawādir al-sultāniyya wa qa-ma¸āsin al-Yūsufiyya, tr. RICHARDS D. S., Ashgate, Burlington, p. 244 .

(٤٦) كتب دزرائيلي كتاب (تانكرد الصليبي الجديد) في عام ١٨٤٧، وزار الروائي (مارك توين) أرض (معركة حطين)، وكتب كتاب (أبرياء في الخارج) عام ١٨٦٩.

(٤٧)Ivanhoe (1819), The Talisman and The Betrothed (1825) and Count Robert of Paris (1831); for an extended discussion) of Scott and the Crusades cf. SIBERRY E. (2000), The New Crusaders. Images of the Crusades in the 19th and early 20th centuries, Ashgate, Aldershot, p. 112–30.

(٤٨)SCOTT W. (n.d.), The Talisman, London and Glasgow, p. 3 .

(٤٩)Ibid .

(٥٠)Ibid., p. 4

(٥١)Ibid., p. 4–5

(٥٢)Ibid., p. 5

(٥٣)SCOTT, The Talisman.

(٥٤)Ibid., p. 115.

(٥٥)Ibid., p. 117.

(٥٦)Ibid., p. 387.

(٥٧)Ibid., p. 131 .

(٥٨)Ibid., p. 228–9;450–1 .

(٥٩)Ibid., p. 231.

(******) لعل القارئ على دراية بالصورة الهوليودية المبكرة لشخصية الشيخ العربي الرومانسية، التي مثلها الفنان (رودلف فالنتينو) في العشرينات في فلميه: (الشيخ)١٩٢١، و(ابن الشيخ) ١٩٢٦ .

(٦٠)Ibid.491.

(٦١)Ibid.

(٦٢)Ibid., p. 422–4

(٦٣)SCOTT, The Talisman, p. 461.

(٦٤) يقتبس (سيبيري) آراء (إدوارد دانييل كلارك)، الذي يعجب بالمسلمين: "إن الاهتمام الواجب للتاريخ يظهر أن السراسين، كما كان يطلق عليهم، كانوا في الواقع أكثر استنارة من غزاتهم". انظر:

CLARKE E. D. (1812), Travels in Various Countries of Europe, Asia and Africa, printed for T. Cadell and W. Davis, London,

منقولاً عن:

SIBERRY E. (1995), "Images of the Crusades in the Nineteenth and Twentieth Centuries", in RILEY-SMITH J. (ed.), The Oxford Illustrated History of the Crusades, Oxford University Press, Oxford, p. 366

(٦٥)ROSEBAULT C. J. (1930), Saladin Prince of Chivalry, Cassel, London, p. xiii .

(٦٦)Ibid., p. xi-xii.

(٦٧)LANE-POOLE, Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, p. iii. See also ALI T. (1998), The Book of Saladin, Verso, London and New York.

(*******) يقصد (لين بول) استخدام الأوروبيين صيغة (Saladin) لـ(صلاح الدين) لتقربه إلى القارئ الأوروبي، وتواصل استخدام هذه الصيغة حتى الآن.

(٦٨) LYONS M. C. and JACKSON D. E. P. (1995), Saladin: The Politics of the Holy War, Cambridge University Press, Cambridge

(٦٩)EHRENKREUTZ A. S. (1972), Saladin, State Univ. of NY Press, Albany.

(٧٠)EHRENKREUTZ, Saladin, p. 238 .

(********) لم تذكر الباحثة شيئاً عن النقد الذي وجهه الكتاب الغربيون لـ(اهرنكروتز)، ومن بينهم المؤرخ الشهير (ستيفن رنسيمان)، هذا النقد الذي لخصه المستشرق (بيتر هولت) بأن (اهرنكروتز) لم يسد الحاجة إلى سيرة لـ(صلاح الدين)، هذا النقص الذي سعى لتغطيته كل من (مالكولم ليونز) و(ديفيد جاكسون)، في سيرتهما المشار إليها أعلاه.

(٧١)WILLIAM OF TYRE, Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum, p. 1000.

(*********) كلام الباحثة لا أساس له من الصحة، فقد بقيت شخصية (صلاح الدين) حية في نفوس المسلمين، منذ أيام الحروب الصليبية، وحتى الوقت الحاضر، والأمثلة على ذلك أكبر من أن تحصى. وما أغفلت الباحثة أن إحياء شخصية (صلاح الدين) في العالم الإسلامي كان مرتبطاً بحقبة الاستعمار الأوروبي، الذي كان يبعث دائماً ذكرى الغزو الأوروبي في العصور الوسطى، والذي كان (صلاح الدين) أحد أبرز من تصدى له.

البهائية تنتعش من جديد في كوردستان العراق



د. فرست مرعي

(البهائية) حركة باطنية ظهرت في (إيران)، نبعت من المذهب الشيعي الاثنا عشري، وهي امتداد للحركات الباطنية التي ظهرت في (إيران) في حقب سابقة: كالشيخية والكشفية والبابية، بدعم من روسيا في المرحلة الأولى، والاستعمار البريطاني، واليهودية، فيما بعد، بهدف إفساد العقيدة الإسلامية، وتفكيك وحدة المسلمين، وصرفهم عن مبادئهم الأساسية.

أسسها (الميرزا حسين علي المازندراني) الملقب بـ (بهاء الله)، المولود سنة١٨١٧م، وكان والده من ملاك الأراضي الكبار، وقد أتعب (الميرزا حسين) نفسه في قراءة كتب التصوف الغالي، وكتب الشيخية، وتعاليم (ابن عربي) و(عبدالكريم الجيلي)، وكبار شعراء الفرس. لذا آمن بوحدة الأديان، و بوحدة الوجود، التي تنتهي بصاحبها إلى القول بسقوط التكاليف، ويتبعها سقوط الشعائر. وقد أعلن (بهاء الله) دعوته في حديقة السراي (=حديقة الرضوان) في (بغداد) سنة١٨٦٣م.

أما (الميرزا يحيى علي)، أخو البهاء، والمقلب بـ (صبح الأزل)، فقد أوصى له الباب (علي محمد رضا الشيرازي)، المقتول



العقيدة والفكر الإسلامي في التاريخ، حتى الوقت الحاضر. وفي بداية القرن التاسع عشر الميلادي، تم تجديدها على يد شيخ فاسد العقيدة، غامض الفكرة والأسلوب، يثير حوله جوا من التقديس الكاذب، وهو الشيخ (أحمد الإحسائي) (١٧٥٣-١٨٢٦م)، والذي أسس طريقة في مذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، سميت فيما بعد بـ (الشيخية).

والشيخية يقولون: إن الحقيقة المحمدية تجلت في الأنبياء قبل محمد (صلى الله عليه وسلم) تجليا ضعيفا، ثم تجلت تجليا أقوى في (محمد) والأئمة الاثني عشر. ثم اختفت زهاء ألف سنة (٢٦٠ – ١٢٦٠هـ)، وتجلت فيما بعد في الشيخ (أحمد الإحسائي)، الذي هو الركن الرابع، وفيما بعد في الشيخ (كاظم الرشتي ت١٨٤٣م)، ثم تجلت في (محمد كريم خان القاجاري الكرماني ت١٨٧٠م)، هذا التجلي أو الظهور هو أعظم التجليات لله وأئمة الشيعة الاثني عشرية.

والركن الرابع: من الشيخ الإحسائي إلى ما بعده، هم شيء واحد، يختلفون في الصورة، ويتحدون في الحقيقة، التي هي(الله:) ظهر

سنة ١٨٥٠م، بخلافته، وسمى أصحابه بالـ (أزليين). فنازعه أخوه (الميرزا حسين علي البهاء) في الخلافة، ثم في الرسالة، والإلهية، ودس السم لأخيه. ولشدة الخلافات بينهم وبين بقية الشيعة الاثني عشرية، في (إيران) و(العراق)، فقد تم نفيهم من قبل الدولة العثمانية عام ١٨٦٣م، بناء على طلب الحكومة القاجارية الإيرانية، إلى مدينة (أدرنة) الواقعة غرب (استنبول).

الجذور التاريخية لـ(البابية) و(البهائية)

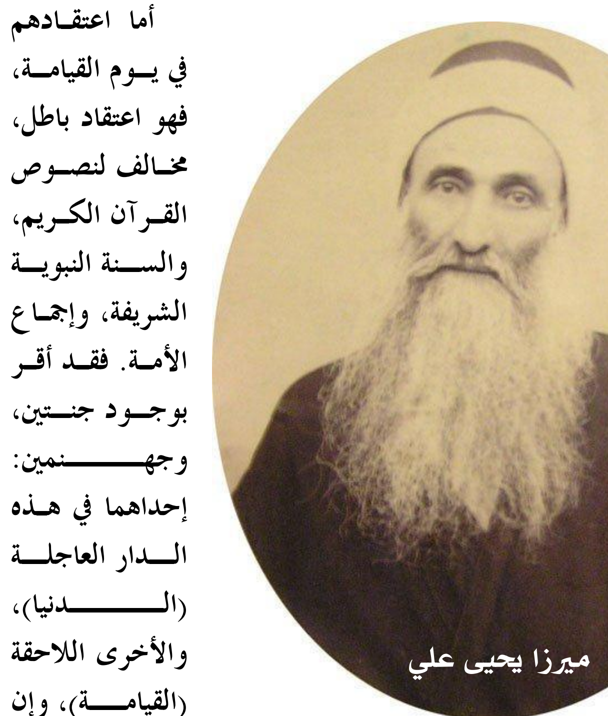
لم تنقطع مؤامرات الحركات الباطنية على

بينهم، أو حلّ في أجسامهم.

ويعتقدون أن (محمد)اً رسول الله، وأن الأئمة الاثني عشر هم أئمة الهدى. ومعنى الرسالة والإمامة عندهم، أن الله تجلى في هذه الصورة، فمنهم رسول، ومنهم إمام. ويعتقدون أن اللاحقين هم أفضل من السابقين. وبناء على ذلك فـ(الشيخ أحمد الإحسائي)، في رأي أصحابه، أعظم من جميع الأنبياء والمرسلين. ويعتقد هؤلاء أيضا بـ(الرجعة)، ويفسرونها بأن الله بعد أن غاب عن صور الأئمة، رجع وتجلى تجليا أقوى في الركن الرابع، الذي هو (الشيخ أحمد)، ومن أتى بعده.

الشيخ (أحمد الإحسائي) من الشيعة الحلولية، الذين يفسرون (علي)اً على غرار الشيعة النصيرية (العلوية)، وأدلته الفلسفية مستقاة من مذهب الفيلسوف الإيراني الباطني المشهور (ملا صدرا الشيرازي ت١٦٤٠م).

وترشح كتاباتهم بأنهم يعتقدون في (علي بن أبي طالب)، نحو ما يعتقد فلاسفة الأفلاطونية المحدثة في العقل الأول، بل أدهى وأمر.



ميرزا يحيى علي

أما اعتقادهم في يوم القيامة، فهو اعتقاد باطل، مخالف لنصوص القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وإجماع الأمة. فقد أقر بوجود جنتين، وجهنمين: إحداهما في هذه الدار العاجلة (الدنيا)، والأخرى اللاحقة (القيامة)، وإن الجنة هي الولاية والاعتراف بالقائم، ولا فرق. أما يوم الحشر، فإن الخلق لن يعودوا إلى الله وفق تعاليم الإسلام، وإنما إلى المشيئة الأولى. وأن البعث (النشور) لا يكون في الأجسام المشهودة، بل في أجسام لطيفة (قوريلائية)، هي أجسام بين عالم الكثافة وعالم

الجنة الروحاني. وبعبارة أخرى: فإن فكرة (الإحسائي) حول مسألتي المعاد والمعراج الجسماني، تعد بدعة في العقيدة الإسلامية، فقد كرر أن جسم الإنسان مكون من أجزاء متباينة، مستمدة من الطبائع الأربعة: (الماء والتراب والهواء والنار)، والأجسام التسعة السماوية. وأن الجسم الذي يقوم في يوم القيامة لا يتكون إلا من الأجزاء السماوية، وأما الطبائع الأربعة، فإنها تعود إلى الأرض بمجرد الوفاة. وعلى هذا فإن معراج النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى السماء، كان روحانيا لا جسمانيا.

وما تجدر الإشارة إليه، هو أن الفكرة الباطنية، نظرا لما يحيط بها من غموض وإبهام، ولما في طرق تأديتها وتعاليمها من رموز وإشارات، قد يتعذر وجود شخصين متفقين فيها، وهذا ما جعل (كاظم الرشتي) يخالف أستاذه (الإحسائي) في كثير من مبادئه، ويؤسس له طريقة جديدة، عرفت بـ (الطريقة الكشفية). وهذا بعينه أيضا هو الذي حدا بالسيد (علي محمد)، أن يؤسس- بعد مدة- دينا جديدا (الدين البابي)، رغم اتصاله الشديد بأستاذه (الرشتي). وقد استخدم الشيخ (الإحسائي) جميع وسائل الباطنية، من: تأويل، وحلول، وتناسخ، وتقديس للأنبياء والأئمة، فالإمام مخلوق من نور الله، وأنه صاحب المشيئة في العالم، لأنه نفس الله! ولم يتورع (الإحسائي) عن الاستناد على روايات كاذبة، وأحاديث ضعيفة، منسوبة إلى الأئمة، في تمرير أساطيره وخرافاته بين أتباعه، الذين حاولوا دون جدوى توضيح آراء أستاذهم، والدفاع عنها.

أما الحركة الكشفية، فهي تطور طبيعي للشيخية، على يد (كاظم الرشتي). وقد كتب (الرشتي) مجموعة رسائل، دافع فيها عن عقيدة (الإحسائي)، وحاول شرح غموضها، ولكن علماء الشيعة الإمامية ما لبثوا أن ردوا عليه أيضا، وعدوه من الغلاة.

والمعروف أن (الميرزا علي محمد الشيرازي)، زعيم البابية، كان تلميذا لـ(الرشتي). بالرغم من أن (الفرقة الكرمانية)، بزعامة (محمد كريم خان الكرماني)، انبثقت مباشرة من (الرشتية)، وتطرفت وغالت في أفكارها هي الأخرى.

ومما لا شك فيه أن (البابية) قد استفادت إلى درجة ملحوظة من التراث الباطني، الذي خلفته الفرق الأخرى من التصوف الغالي، وخاصة تراث (الحلاج) المقتول، و(محيي الدين ابن عربي)، و (الإحسائية)، و(الكشفية).

(البهائية) والكورد: التأثير والتأثر

بعد إعدام الباب (علي محمد الشيرازي)، من قبل السلطات القاجارية الإيرانية، في

عام١٨٥٠م، هرب (صبح الأزل)، وأودع (الميرزا حسين) السجن لمدة أربعة اشهر، وقد تدخلت السفارة الروسية لمصلحة الأخير، فتم نفيه إلى (بغداد)، وزودتهم السفارة الروسية بالمال اللازم. وبعد وصول (الميرزا حسين) إلى (بغداد)، التي سبقه إليها أخوه (الميرزا يحيى/ صبح الأزل) حدث خلاف وصراع بينهما، مما دعا (الميرزا حسين) إلى ترك (بغداد)، والذهاب إلى منطقة (السليمانية)، حيث استقر في كهف في (جبل سورداش)، المطل على قريتي (سركلو) و (بركلو)، للفترة من ١٨٥٤-١٨٥٦م. وكان يغادر مقر خلوته إلى خانقاهات الصوفية النقشبندية في (السليمانية) و(بياره) و(طويلة) (=منطقة هاورمان على الحدود الإيرانية) للاجتماع مع زعماء الطريقة.

وكان العالم العثماني الصوفي الحنفي (الحافظ بن محمد خواجة بارسا)، المتوفى سنة ١٤١٩م، ألف كتابا سماه (فصل الخطاب)، تحدث فيه عن ظهور المهدي، ومناقبه، بقوله: "تظاهرت الأخبار عن ظهوره، وإشراق نوره، يجدد الشريعة المحمدية، ويجاهد في الله حق جهاده، ويطهر من الأدناس أقطار بلاده، زمانه زمان المتقين، وأصحابه خلصوا من الريب، وسلموا من الغيب، وأخذوا بهديه وطريقته، واهتدوا من الحق إلى تحقيقه. به ختمت الخلافة والإمامة، وهو الإمام من لدن موت أبيه إلى يوم القيامة، و(عيسى) يصلي خلفه، ويصدقه على دعواه، التي هي دعوة صاحب الملة المحمدية".

وقد شرح هذا الكتاب (= فصل الخطاب) (محمد بن أبي جمهر الإحسائي)، المتوفى سنة ١٤٩٥م، وأضاف إليه، وشرحه، الشيعي الصوفي (الميرداماد)، المتوفى سنة ١٦٣١م، وتابعه في مدينة (أصفهان) (ملا صدرا الشيرازي)، المتوفى سنة ١٦٤٠م، وأودع تعاليمه في كتابه (جامع الأسرار ومنبع الأنوار). وأصبح هذا الكتاب أحد أعمدة المذهب الباطني، وعلى ضوئه وضع الشيخ (أحمد الإحسائي)، المتوفى سنة ١٨٢٦م، مذهب الشيخية.

وعندما قام (بهاء الله) بسياحته إلى كوردستان العثمانية (=العراق)، في عام ١٨٥٦م، اطلع على كتاب (فصل الخطاب)، عند أتباع الشيخ (مولانا خالد الجاف النقشبندي)، المتوفى سنة ١٨٢٧م، في (تكية بيارة)، وكانت لها نتائج بعيدة المدى على طريقة تفكيره ودعوته.

ويبدو أن فترة بقاء (البهاء) في تلك المنطقة، كانت لها آثار سلبية على عقيدة بعض الكورد، ففي سنوات (١٩١٩-١٩٢٠م)، ظهرت في تلك المنطقة حركة الـ(حقه)، التي تعد إحدى حركات الغلو في التصوف النقشبندي، وكانت لها أفكار غريبة

وعجيبة، مخالفة لعقيدة أهل السنة والجماعة، التي هي عقيدة الغالبية العظمى من الكورد.

وغالب الظن أن لـ(بهاء الله) يد بما حصل من الانحراف لدى الصوفية في تلك المنطقة، المحيطة بقرية (شه ده له)، التي آلت نتيجتها إلى ظهور نحلة الـ(حقه). وليس من المستبعد، لدى بعض الباحثين الكورد، أن يكون قد تم ذلك وفق خطة رسمت لهذه الغاية، لإفساد عقيدة أهل المنطقة، مثلما عمل (البهاء) لإفساد عقيدة من انتحلوا (البهائية) في (إيران). وإلا فما الداعي ليسكن هذا الرجل، في هذه المنطقة النائية، مدة سنتين من ١٨٥٤ لغاية ١٨٥٦م، وبالقرب من مركز رئيس الطريقة النقشبندية في قرية (شه ده له)، الشيخ (سردار النقشبندي)، أحد خلفاء مولانا (خالد الجاف). ومما يدل على ذلك، هو أن بعض منتسبي هذه النحلة، نعتوا شيخهم (عبدالكريم شدله) بأنه هو (المهدي)، وبعضا آخر وصفوه بأنه هو (عيسى) (عليه السلام). كما أسبغ البهائيون على زعيمهم (بهاء) مثل هذه الأسماء. وينقل عن شخص معاصر لتلك الأحداث، وهو السيد (الحاج عبد جاسم)، الذي كان من رجال الشرطة العراقية الملكية، بأنه حين مداهمته لخانقاه (تكية مامه رضا)، أحد زعماء طريقة الـ(حقه) في قرية (كلكه سماق)، القريبة من (مصيف دوكان) (=غرب مدينة السليمانية)، وتحريه لممتلكاتها، سنة ١٩٤٤م، لم يجد فيها من الكتب غير كتاب (البهائية).

ومن جانب اخر فان بعض المصادر تذكر ان سبب اختفاء بهاء الله في جبال كردستان قرية (شه ده له) في جبال سورداش – غرب السليمانية، كان نصيحة من الحاخام اليهودي (يوسف حاييم) لاكتساب تجربة روحية من الاطلاع على القبالة اليهودية واسرارهما، هذه التجربة تجعله يدرك جوهر الأشياء وقوانينها العميقة كما فعل نبي الله موسى (عليه السلام) حين غاب في جبل الطور في سيناء.

وكان بهاء الله يظهر علاقته بالروس، ولكن يخفي علاقته بيهود بغداد ويهود كردستان. فحين وصل بهاء الله إلى بغداد عام ١٨٥٢م كان فيها حوالي (٥٠) الف يهودي وفي كردستان حوالي (١٨) الاف يهودي، وعندما اتصل بهاء الله بالحاخام (شمعون اغاسي المتوفى سنة١٩١٤م) ارسل إلى كردستان الحاخام والعالم اليهودي (هارون البارزاني المتوفى سنة١٩٠٠م)، كان الحاخام رجلا صوفيا يؤمن بظهور الملك الالهي (المسيح المنتظر) وعهده السعيد، وكان عالما بالعربية والفارسية، وكان متعطشاً لمذهب القبالاه (=التصوف اليهودي).

استقبل الحاخام اليهودي بهاء الله بالترحاب وأمن له المعيشة الحسنة في جبل

(سركلو) وصار يتجول في السليمانية وما حولها.

ومن جانب آخر، فإن الشيخ (فرج الله زكي الكوردي المريواني الكاشنكاني)، الذي ينتسب إلى مدينة (مريوان)، بكوردستان إيران حاليا، والمولود في عام ١٨٨٢م، وبعد أن نال قسطا من التعليم في بلده، جاء إلى (مصر)، في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، للدراسة بالأزهر الشريف. وبما أنه كوردي انتسب إلى (رواق الأكراد)، لكنه في إحدى زياراته لبلاد الشام، قابل فيها زعيم (البهائية): (عبد البهاء)، وأعجب بدعوته واعتنقها، وأصبح من أشد المدافعين عن (البهائية) في (مصر) بعد ذلك. ولما اكتشف أمره، تم فصله من (الأزهر)، ومن (رواق الأكراد)، لردته وخروجه عن الإسلام.

ويبدو أن (فرج الله الكوردي) كان مستعدا للحظة فصله، فقد كان مشتغلا بالتجارة بالكتب. ومنذ عام ١٩٠٠م كان يعمل وكيلا للشركة الخيرية لنشر الكتب العالمية الإسلامية. وجرى المال في يده، واشترى داراً له بمنطقة الأزهر، فلم يرجع إلى بلده كوردستان (إيران)، وإنما استقر بـ(مصر)، واتخذها سكنا وموطنا، وزاول فيها مواهبه وقدراته في نشر الكتب والمخطوطات النادرة.

وكان الزعيم البهائي (عبد البهاء)، نجل (بهاء الله)، قد ألف كتاباً بعنوان: (الرسالة المدنية)، باللّغة الفارسيّة، نشرت في مدينة (بومباي) بالهند عام ١٨٨٢م، ومن بعد ذلك أشرف على طبعها ثانية الشّيخ (فرج الله زكي الكوردي) عام ١٩٠٩م، وظهرت التّرجمة الإنجليزيّة للكتاب في (لندن)، عام ١٩١٠م، وأعيد طبعها في (شيكاغو) بالولايات المتّحدة عام ١٩١٨م، تحت عنوان "MYSTERIOUS FORCES : OF CIVILIZATION". وصدرت آخر ترجمة لها بالإنجليزيّة عام ١٩٥٦م، بقلم (مرضيّة غيل)، وطبعت في (الولايات المتّحدة الأمريكية). ورغم أنّ هذه الرّسالة كانت في متناول قرّاء الفارسيّة والإنكليزيّة منذ تاريخ صدورها" ولكن ترجمتها إلى العربيي تأخرت، حتى تولت ذلك السّيدة (بهيّة فرج الله زكي)، اقتداءً بوالدها، والّذي كان قد نوى نقل هذه الرّسالة إلى اللّغة العربيّة، ولكنّه لم يستطع تحقيق أمله هذا في أيّام حياته، فقامت ابنته (بهيّة) بتحقيق أمنيته، وأدّت في آن معًا خدمة كبيرة إلى المكتبة البهائية العربيّة.

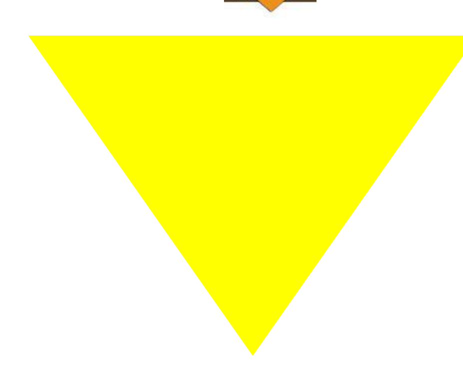
وظل (فرج الله الكوردي) على حالته تلك، حتى وافته المنية عام ١٩٤٠م. ولم ينجب إلا بنتا واحدة، هي المذكورة آنفاً: (بهية)، وكانت بهائية المعتقد مثله، وعملت مدرسة بـ(معهد المعلمات) بـ(بغداد)، في

العهد الملكي. وكان عندها صالون أدبي، يجتمع عندها الأدباء والمثقفون! أحبها الشاعر الكوردي (يونس ملا رؤوف) (١٩١٨-١٩٤٨م)، المعروف باسمه الأدبي: (دِلدار)، أي (العاشق)، مؤلف النشيد الوطني الكوردي (أي رقيب)، الذي كان نشيد جمهورية كوردستان(=مهاباد)، وحالياً نشيد إقليم كوردستان العراق" لكنها مع ذلك تزوجت من أمريكي بهائي، وأنجبت منه ولداً أسمته (حسين).

وفي الآونة الاخيرة، وبعد سقوط (بغداد) بيد المحتل الأمريكي، شوهد العديد من أتباع الديانة (البهائية) في كوردستان العراق، جاءوا إليها هربا من الميليشيات الشيعية، لأن الأخيرين يعدون البهائيين منحرفين عن عقيدة الشيعة الاثني عشرية. ولتوضيح ذلك يمكن الإشارة إلى اختتام أعمال (منتدى الحوار الديني الثاني) في (محافظة دهوك - كوردستان العراق)، في يوم الجمعة ٢٠١٣/٥/١٧م، الذي ضم ممثلين عن الديانات الإسلامية والمسيحية والإيزيدية والكاكائية والبهائية، شاركوا بالمنتدى (لتعزيز ثقافة التعددية الدينية وقبول الآخر).

من جانبها، أكدت ممثلة الديانة البهائية: (كرمل عقيل)، أن "هناك العديد من المشتركات بين الأديان، وخاصة في الأعياد، لأنها مناسبات الفرح والسرور بين الجميع"، لافتة إلى أن "العراقيين يشاركون في الأعياد بعضهم البعض، مما يعكس وجود العديد من المشتركات في أعياد الديانات الموجودة بالعراق". وأشارت (عقيل) إلى أن "أحد المشتركات المهمة بين أعياد الديانة (البهائية) والمسيحية والإيزيدية هي تزامن مواعيدها"، موضحة أن "أتباع الديانة (البهائية) يحتفلون بعيدي رأس السنة البهائية وعيد الرضوان المجيد في الـ٢١ من آذار والـ٢١ من نيسان، حيث نجد أن هذه الفترة تتزامن مع احتفال المسيحيين والإيزيديين بأعيادهم". وتابعت (كرمل): أن "الوضع الأمني أثر في جميع الأديان في العراق"، معربة عن أملها أن "يستقر الأمن، ويتمتع أتباع جميع الديانات لتوطيد المشتركات فيما بينهم".

وتحاول المؤسسات البهائية ترجمة الكتب البهائية، القادمة من مراكز النشر في (البرازيل)، وغيرها، إلى اللغة الكوردية، على أمل إدخال بعض الكورد إلى عقيدتهم، وتعزيز نفوذهم في كوردستان، بغية الاستفادة من الأجواء السياسية والثقافية السائدة حاليا فيها، بعيد الاحتلال الأمريكي للعراق❐



(ميكيافيللي) نحو قراءة جديدة

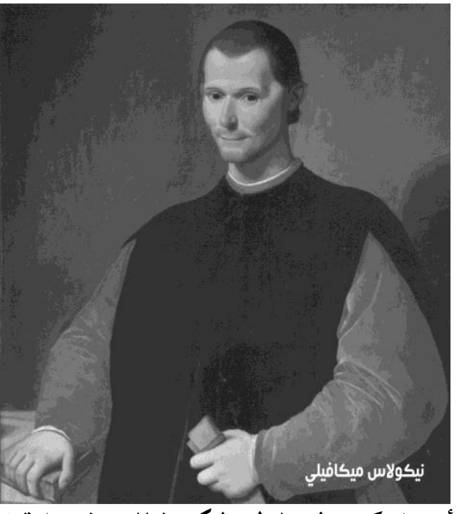
ريناس بنافي
باحث في مجال الفلسفة والفكر السياسي
renasbenavi@hotmail.com

✍ إن أطروحة (استبداد) الأمير، التي تؤسس للصورة التي اشتهر بها (ميكيافيلي)، أي صورة المفكر المشدود إلى دولة الأمير، والمنادي بتقوية نفوذه السياسي، بكل الوسائل، دون اعتبار لحرية الشعب، هي مغايرة لصورة أخرى نجدها في متنه الآخر: (أحاديث على المقالات العشر الأولى في تاريخ تيتوليفي)، والذي إن كان أقل شهرة من متن (الأمير)، فهو لا يقل عنه أهمية من الناحية المعرفية، ولا هو أقل تعبيرا عن خصوصية التفكير الميكيافيللي. وفي متن (أحاديث) لا نلقى ذلك التنظير لاستبداد الأمير، بل ثمة نزوع تحرري، وتوكيد على الحقوق السياسية للشعب، على نحو مخالف للروح الاستبدادية في كتاب (الأمير).

فكيف نفسر هذا التضاد بين النظرية السياسية الميكيافيلية البادية في متن (الأمير)، ونظريته التي بسطها في متن الـ (أحاديث على المقالات العشر ؟

إن (ميكيافيللي) لم يكن يبحث عن ديكتاتور، إنما كان يبحث عن الوحدة: هذه الوحدة التي تجمع الأقطاب الأربعة المتناحرة (روما – البندقية – ميلانو – فلورانسا).

ولهذا فالمطلب الأهم لـ(ميكيافيلي) هو أن تحمل الدولة عنصر تقدمها في ثنايا استقرارها، وأن تتجدد باستمرار، من خلال آليات داخلية، وإلا فإن الدولة ستنهار. بمعنى



أنه إذا كان السلوك الميكيافيللي، في علاقة الحاكم بالمحكوم، مشروعاً لبناء الدولة، فإنه لن يكون مشروعاً، إذا كان قد آل إلى مرحلة متقدمة من بناء الدولة، أو كان هدفه تأييد المظاهر الأولى لهذه الدولة. أي أن الانبعاث أو الخلق الأولي للدولة لا يجب أن يكون هو الغاية، إذ إن ثالوث الدولة المعاصرة هو: (١)

١- الدولة -الإكراه.

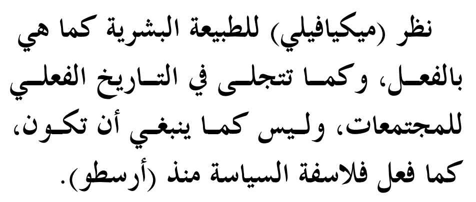
٢- الدولة - القانون.

٣- الدولة - المؤسسات.

وعليه فإذا كانت لعبة السياسة تقتضي لبناء الدولة، في شكلها الأولي، إقامة دولة الإكراه، ومن أجل هذه الدولة برر (ميكيافيللي) رعوية علاقة الحاكم بالمحكوم، فإن دولة الإكراه ليست إلا عتبة على السلم، ومع التطور منها إلى دولة القانون، فدولة



المؤسسات.



نظر (ميكيافيلي) للطبيعة البشرية كما هي بالفعل، وكما تتجلى في التاريخ الفعلي للمجتمعات، وليس كما ينبغي أن تكون، كما فعل فلاسفة السياسة منذ (أرسطو).

فقام باتباع منهج جديد، مختلف عن مناهج من سبقوه، فعلى الرغم من دراسته للمنطق والفلسفة، إلا أنه أهمل مبادئها إهمالا تاماً، وركز على التاريخ. فقد كانت خلاصة فكرته الرئيسة: أن أفعال البشر تؤدي إلى نفس النتائج دوماً. فحاول الربط بين الأسباب، والنتائج، والدراسات التحليلية المستمدة من التاريخ. وعلى ذلك كان أسلوب (ميكافيلي) في البحث، هو:

١. الاستعانة بالتاريخ لاستقصاء الأحداث، ومعرفة نتائجها، وارتباطها، وإمكانية تكرارها، أي: محاولة التنبؤ بالمستقبل.

٢. محاولة وضع تعميمات، في حالة تكرار الأحداث، للوصول إلى قواعد عامة، توضع أمام الحكام، لتسهيل مهمتهم، ومساعدتهم على تبني مواقفهم.

٣. البحث عن إمكانية التدخل في الأحداث مسبقاً، بعد معرفة أسبابها، ومحاولة تحديد السلوك الواجب اتباعه لمواجهة الأحداث.

ومن هنا نرى بأن أسلوب (ميكيافلي) يبين

مدى شغفه بالتاريخ، وكثرة استخدامه للأحداث التاريخية، للتدليل على صحة أفكاره –كما في كتاب (فن الحرب)، وغيره من الكتب – وبذلك يعتبر (ميكافيلي) أحد مؤسسي طريقة التحليل التاريخي الحديث.

هناك العديد من العوامل التي أثرت على فكر (ميكيافلي)، من أهمها:

١. ضعف حال الدولة آنذاك، وكثرة المشاكل السياسية في تلك الفترة. ولهذا كان يرى بأنه لا بد من نظام حكم قوي يحكم الدولة: إما نظام ملكي صارم، أو نظام جمهوري.. وكان مؤيدا بشكل كبير للنظام الجمهوري.

٢. الخدع والمؤامرات التي واجهها (ميكيافلي) في أروقة ودهاليز السياسة، عندما كان ذا شأن في حكومة (فلورنسا).

٣. تأثره الشديد وولعه بالتاريخ، واعتبار أن جميع الأحداث لا تخرج عن كونها دورة منطقية متكررة.

لقد ألف (ميكيافلي) – كما هو معلوم – مجموعة مؤلفات نذكر من بينها: (مطارحات تيتليف)، (فن الحرب)، (الأمير)، (تواريخ فلورنسا)، (جذور تفاح الجن)، إلى جانب العديد من القصائد، الرسائل، المسرحيات.

بيد أن الغريب في الأمر، هو أن مؤلفا واحدا هو الذي فاز بحصة الأسد، وهو كتاب (الأمير)، حتى بات أشهر مؤلف له، والذي عرف الانتشار قبل أن تظهر طبعته الأولى، بل أصبحت إذا ذكرت (ميكيافلي) ذكرت (الأمير) لدى العامة، والعكس صحيح، أي أن أغلب الذين يعرفون (نيكولا ميكيافلي) لا يعرفون عنه سوى (الأمير)، وكأنه وحده ما صدر له. وبالمقابل، يطرح مشكل بالغ الأهمية ها هنا، وهو هل يجوز لمن اطلع على كتاب (الأمير)، على الحصر أن يصنف (ميكيافلي)؟! أم أن تصنيف هذا الكاتب (الفيلسوف، السياسي، الأديب، المؤرخ، الشاعر، المسرحي)، يقتضي بالضرورة الاطلاع على مجموع متونه، أو على الأقل المؤلفات الرئيسية المحددة لتوجهه؟

وعليه، بقيت صورة (ميكيافلي) ترسم حسب مدى فهم المصنف لفكره، ورهانه، وبالتالي تنوعت الصورة التي رسمت لـ(ماكيافيلي).

ويجد الباحث في تاريخ الفكر السياسي إجمالا، وفي فكر (مكيافيللي)، على وجه الخصوص، نفسه، قبالة سيل من الدراسات والأبحاث، يبقى القاسم المشترك بين أغلبها – خاصة في بدايات ظهورها– النظر إلى هذه الفكرة نظرة زراية واحتقار، يصحبهما كراهية واستصغار لشأن صاحبها، اللهم بعض الدراسات المعاصرة لـ(غرامشي) و(مونان).. وآخرها إصدار مجلة (Le NouvelObservateur) (العدد: ٦٦)

خاصا بـ: (مكيافيللي) ٢٠٠٧، وغيرها من الدراسات التي حاولت إنصاف الرجل، الذي لم يعمل في حقيقة الأمر سوى على تعرية الواقع السياسي، وكشف حقائقه. لكن هذه الحقائق كانت صادمة لمن اطلع عليها في بادئ الأمر، خاصة رجال الدين، الذين رأوا في آرائه هرطقة، وخروجا عن الصواب. لذلك لم يألوا جهدا في سبيل وأدها، والحد من انتشارها، بل وإصدار مرسوم بإحراق كتبه، مع التنكيل بصاحبها، ووسمه بأشنع وسم يكون(٢). فهذا (موريس جولي) (١٨٢٩-١٨٧٨) -مثلا-، وهو رجل دين، كتب كتابا يصور فيه (مكيافيللي)، و(مونتسكيو)، في حوار بجهنم.

لا إمكان لفهم النص المكيافيللي، إلا ضمن السياق التاريخي الذي ورد فيه، أي ربطه بما شهدته (إيطاليا) إبان تلك الفترة من ضعف وانحلال، جعلها محط أطماع غيرها من الدول. لكنها ظلت مع ذلك أقرب إلى ما روج لهؤلاء من أن (مكيافيللي) عزل الأخلاق عن السياسة عزلا تاما. صحيح أن (مكيافيللي) صادم في كتاباته، وأن معظم أفكاره جاءت مخالفة للمتقدمين عليه، وهذا أمر جدير بالذكر، لكن القول بأنه أقام مسافة وبونا شاسعا بين السياسة والأخلاق، وأنه قطع كليا مع الأخلاق، قول فيه شيء من المبالغة والمجازفة، إن لم نقل إنه قول مغلوط. ما قام به (مكيافيللي) على وجه التحقيق، أنه أتى بتصور جديد عن إشكال العلاقة بين الأخلاق والسياسة.

لقد اختلفت التصورات حول قراءة (ميكيافلي)، لا سيما (الأمير)، فقد تنوعت الصورة التي رسمت لـ(ميكيافلي) حسب فهم كل قارئ له، عبرالتاريخ. وأمسى بذلك

موضوع سجال كبير، تناوله مختلف المفكرين، السياسيين، الأدباء، الحكام، الفلاسفة، المسرحيين، القديسين، الساسة، بمختلف تمظهراتهم. وكل من هؤلاء يصنف (ميكيافلي) على شاكلته، أو لنقل حسب تأويله، وفهمه له، وهنا نتساءل عن سبب هذا التنوع في التصنيف، والتنوع في قراءة (ميكيافلي)، ما سبب ومرد ذلك؟ لماذا وصل هذا التصنيف إلى الاختلاف، بل التناقض الصارخ بين هذا وذاك؟ هل (ميكيافلي) هو المسؤول عن ذلك؟ أي هل هو الذي فعل شيئا، جعل بمقتضاه قراءه حائرين في تصنيفه بشكل جازم ونهائي؟ أم أن المشكل في القراء، وفي مدى فهمهم للرجل، ولسياقه، ورهانه؟

يقول (ميكيافيللي) في كتابه (الأمير): (هناك بعد شاسع بين ما يعيشه المرء، وما ينبغي أن يعيشه)(٣). يمكن أن نستشف من هذا النص، وكذا من نصوص أخرى مشابهة، توكيدا على التباعد بين الواقع المعيش واليوتوبيا. لقد كان (ميكيافلي) على وعي بوجوب تغيير نمط قراءة الفعل السياسي، فبدل القراءة اليوتوبية التي تنظر إليه من منظور ما يجب أن يكون عليه، حاول فيلسوف (فلورنسا) التنظير لطريقة مغايرة، تقرأ الواقعة السياسية في مستواها الفعلي. وبهذا فصل بين الكائن، وما ينبغي أن يكون عليه، فبلور – حسب بعض القراءات الفلسفية– رؤية موضوعية لواقع الاجتماع السياسي، جعلته أول مؤسس لعلم السياسة الحديث.

ولكن هناك مفارقات أخرى في فكر (ميكيافيللي)، وهي طرحه في استبداد الأمير، وتقوية نفوذه، بكل الوسائل، في مقابل صورة مغايرة نجدها في (أحاديث على المقالات العشر الأولى في تاريخ تيتوليفي)، لا ينظّر فيها لاستبداد الأمير، بل يدعو إلى حرية الشعب، ويؤكد على الحقوق السياسية للشعب، وهذا مخالف لما ذهب إليه في (الأمير).

ويعد المتن الميكيافيللي من أكثر النصوص السياسية إثارة للجدل، وأكثرها استحضارا كلما تم التفكير في الفعل السياسي، ولا يمكن قراءة السياسة الحداثية دون الرجوع إلى متن ميكيافيللي.

على الرغم من القراءة المتعددة لنصوص (ميكيافيللي)، لكننا لا نجد من يعطي تفسيرا مقنعا لهذه التناقضات. وأحد أسباب هذا الإشكال، هو عداء الكنيسة لأفكار (ميكيافيللي)، والتي أسست على رسم صورة نمطية عن أفكاره. والسبب الآخر، هو عدم قراءة نص (ميكيافيللي)، والرجوع إلى اللحظة الزمنية التي كتب فيها (ميكيافيللي) نصه، بالإضافة إلى كثرة التأويلات حول نص

(ميكيافيللي).

ومن القراءات الطريفة، في محاولة تفسير هذه المفارقات، قراءة (ماريديتز)، حيث تقول في دراستها (فخاخ الأمير): إن (ميكيافيللي) أراد خداع الأمير المستبد، فأعطاه نصائح هي كفيلة بتدميره. وحسب تعبيرها، فهي نصيحة ملغمة، لا تعبر عن حقيقة موقف (ميكيافيللي).

ولكن مفارقة أخرى قام بها (برجيس) بدراستها، وهي أن (ميكيافيللي) يرى حتمية تاريخية تحكم النظم، من حيث ميلادها، ونموها، وأفولها، وهذه نفس الفكرة التي سار عليها (ابن خلدون). ولكن يمكننا أن نجد ما يخالف هذا الرأي في نص (ميكيافيللي)، عندما يتحدث عن وجود ثلاث قوى تتبادل المراقبة، وبإمكان النظام الاستمرار بفعل توازن القوى. ولهذا فإن (برجيس) يصف (ميكيافيللي) بالمفكر المقنع.

يتضح من هذا أن نص ميكيافيللي يحبل بمفارقات ونقائض عديدة، فكيف يمكن الجمع بين هذه التناقضات؟ يذهب الدكتور (الطيب بوعزة) إلى أن هناك إمكانية متاحة لفهم نص ميكيافيللي، بشرط الرجوع إلى اللحظة الزمنية التي أسس عليها (ميكيافيللي) نصه، وهو يقترح مدخلا لفهم نص ميكيافيللي، وهو تاريخية النص الميكيافيللي من خلال السياق الإيطالي بإشكالاته، أو إخفاقاته، أو أحلامه. فقد كان (ميكيافيللي) مفكرا قوميا، يطمح إلى معالجة الأزمة السياسية الإيطالية، المتمثلة في شرذمتها السياسية، بتوحيدها في إطار قومي واحد. وهذا الحلم كان مسكونا في وعي (ميكيافيللي). ومن هنا اعتقد (ميكيافيللي) أن إيجاد هذه الدولة الموحدة القومية يحتاج إلى حاكم قوي، ولهذا قدم نصائح له في (الأمير)، لتحقيق الدولة القومية الموحدة القوية. فالاستبداد الذي دعا إليه (ميكيافيللي) في (الأمير) كان مشروطا، ومؤقتا، حتى تتحقق الدولة القومية. أما في كتابه (أحاديث على المقالات العشر الأولى في تاريخ تيتوليفي)، فهو ينظر إلى هذه الدولة بعد أن تتحقق، فتكون جمهورية تمثل لقيم الحرية لا الاستبداد❑

الهوامش:

(١) عماد فوزي الشعيبي، إعادة اعتبار للميكيافيلية في السياسة، الحياة، العدد: ١٢٧٦٩.

(٢) ميكافيللي، مطارحات، تعريب: خيري حماد، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص٢١.

(٣) د. الطيب بوعزة، نقد الليبرالية، مركز البحوث و الدراسات، مجلة البيان، ٢٠٠٩، ص٣٥.

تأملات في آية التغيير

صالح شيخو

مفتاحَي التغيير والنهوض

منحنا الله تعالى في كتابه المجيد مفتاحين للخلاص والتغيير، والنهوض من ركام التخلف والتبعية، ومن العيش بنفس منهزمة وبسلبية في الحياة، تؤدي إلى الموت البطيء، مع ما يسبقها من تعفن وتفسخ، إن لم نبدأ بإعادة إنسانية الإنسان إليه، ليشعر بقيمته، ويعرف الدور الملقى على عاتقه. لأن "هذا الدين ليس دين مظاهر وطقوس، ولا تغني فيه مظاهر العبادات والشعائر، ما لم تكن صادرة عن إخلاص لله وتجرد، مؤدية بسبب هذا الإخلاص إلى آثار في القلب تدفع إلى العمل الصالح، وتتمثل في سلوك تصلح به حياة الناس في هذه الأرض وترقى.

كذلك ليس هذا الدين أجزاء وتفاريق موزعة منفصلة، يؤدي منها الإنسان ما يشاء، ويدع منها ما يشاء.. إنما هو منهج متكامل، تتعاون عباداته وشعائره، وتكاليفه الفردية والاجتماعية، حيث تنتهي كلها إلى غاية تعود كلها على البشر.. غاية تتطهر معها القلوب، وتصلح الحياة، ويتعاون الناس ويتكافلون في الخير والصلاح والنماء.. وتتمثل فيها رحمة الله السابغة بالعباد.

ولقد يقول الإنسان بلسانه: إنه مسلم، وإنه مصدق بهذا الدين وقضاياه. وقد يصلي، وقد يؤدي شعائر أخرى غير الصلاة، ولكن حقيقة الإيمان، وحقيقة التصديق

بالدين، تظل بعيدة عنه، ويظل بعيدا عنها. لأن لهذه الحقيقة علامات تدل على وجودها وتحققها، وما لم توجد هذه العلامات، فلا إيمان ولا تصديق، مهما قال اللسان، ومهما تعبد الإنسان! إن حقيقة الإيمان حين تستقر في القلب تتحرك من فورها، لكي تحقق ذاتها في عمل صالح. فإذا لم تتخذ هذه الحركة، فهذا دليل على عدم وجودها أصلا"(١).

ولن نحيا الحياة الكريمة ما لم نبدأ بالمفتاح الأول:

١- التغيير الذاتي:

قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) (الرعد: ١١).

ربطت هذه الآية الكريمة تغيير ما بالقوم بتغيير ما بالأنفس، ولكنه ليست سنة فرد واحد هنا وهناك، وإنما سنة مجتمع بأكمله، بمعنى وإن كان التغيير ينصب على الذات، وإيجاد الإنسان المصلح، في دائرة سيطرته، في إطارها الفردي بالدرجة الأولى، لكنه لا يؤتي ثماره المرجوة، إلا إذا انسحب الإصلاح على القوم، على دائرة التأثير والاهتمام.

يقول البكار: "إن الإنسان المصلح يترك بصمات الصلاح على كل جوانب الحياة التي يمسها، ويجعلها جميعاً منسجمة في وحدة، ضمن إطار العبودية لرب العالمين، والالتزام بأمره، وتحقق حكمته في الوجود. ومن ثم فإن السمة العظمى للحضارة الإسلامية لم تكن غزارة الإنتاج المادي – على كثرته –، وإنما كانت التجسيد الحي لعقيدة التوحيد، والمثل والقيم الإسلامية، والتجاوب مع النزعة الإنسانية الأصيلة نحو حب الخير، والإحسان إلى الخلق، والرفق بهم، وهدايتهم"(٢).

وتغيير ما بالأنفس يسبقه تغيير نظام الأفكار، فهي التي "منحتنا السيطرة على تغيير الواقع، عندما زحزحت ونقلت مكان التأثير من الغموض إلى مكان محدد معروف على وجه الدقة: (الأنفس)، فوضعت مفاتيحها في أيدينا، وضمن إرادتنا. ثم ربطت ما بين تغيير الواقع وتغيير نظام الأفكار أو محتوى النفوس. وهي عدت هذه ظاهرة إنسانية، فهي تنطبق على أي مجموعة بشرية، أي قوم، فلا يشكل المسلمون خرقا لهذه القاعدة، واستثناء عنها. ثم هي قانون اجتماعي غير فردي، فلا يفيد بالضرورة: أن فردا غيّر ما بنفسه بتغيير نظامه الفكري أن يتغير واقعه، إذن لكان الأمر سهلا إلى حد ما، لا بالعكس، قد يحصل عكس المقصود، فيعاني من العذاب الأليم.

وفكرة التغيير هذه فكرة خطيرة سلبا وإيجابا، فكما ربطت الآية هنا بين تغيير الواقع من خلال تغيير ما بالنفوس، أشارت إلى الواقع في آية لاحقة، مشيرة إلى النعم والنقم: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى

قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (الأنفال:٥٣).

يمكن أن يدخل تحت مفهوم النعمة حزمة من التظاهرات الإنسانية، من الصحة والعمر المديد، والثروة والسعادة الزوجية، والأمن الاجتماعي، والرزق الوفير، واتساع نطاق التعليم..."(٣).

وهذا تغيير يتوغل في النفس البشرية، "يمتد إلى المساحات كافة، وسائر المكونات النفسية الأساسية: العقلية والروحية، والجسدية، وكل العلاقات والبنى الداخلية مع الذات، ومع الآخرين، والتي تمكن الإنسان المسلم والجماعة المسلمة من مواجهة التاريخ..

إن تأكيد الإسلام على قانون التغيير يعني أنه يمنح الإرادة البشرية المؤمنة فرصتها في صياغة المصير، في التشبث به، أو استعادته إذا ما أفلت من بين يديها.. ومن ثم فإنه ما أن تتهيأ هذه الإرادة للعمل، عن طريق الشحذ النفسي، والاستعداد العقلي والأخلاقي والجسدي- كذلك-، حتى تكون قادرة على مواجهة التحديات من أي نوع كانت، وبأي درجة جاءت، فتعجنها وتصوغها من جديد لصالح الإنسان" وهكذا يعود الإنسان لينتصر على التحديات، وليستعيد قدرته الأبدية على التجدد والتطور والإبداع..

إن التغيير الذاتي عملية شاقة تغطي الطاقات البشرية كافة: عقلية وروحية وأخلاقية وسلوكية وجسدية.. وأي تجزئ في الرؤية، أو الموقف، يقتل المحاولة في المهد... ولكننا بتأكيدنا على التغيير العقلي، إنما نعتمد ضرورة منهجية تضع في الاعتبار، دوما، سلما للأولويات، فنبدأ بالأهم، فالمهم، فالأقل أهمية "(٤)..

ومن خلال ما سبق، نرى "أن الخطوة الأولى في طريق الحرية، هي إنتاج العقل الذي لا يخاف، فيكسر المسلمات عبر التساؤل، ويحرر ذاته من القهر إلى الإرادة، ويدرك قيمة العمل والجهد، ويتعلم أسلوب التخطيط، وتحريك ملكات الابتكار، واستخدام العلم في حل الألغام الاجتماعية والسياسية والاقتصادية –التي تملأ المجتمع- بنزع فتيلها، وليس الارتماء عليها... ليأتي بأفكار هي سبيكة معرفية نفسية، تتشابك وتتوافق مع العقول، وتترسخ وتتعمق في النفوس، فتدفع المجتمع إلى العمل الصامت، بعيدا عن الصياح، الذي هو دليل الضعف، والصراخ الذي يكشف عن العجز"(٥).

إن نظرة إلى الواقع اليوم، وفي تاريخ المجتمعات البشرية والحكومات –قديمها وحديثها- نرى "أن الله تعالى برحمته قد وضع لسير الأمم سننا متبعة ... أرشدنا سبحانه في محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت من عرش

عزهـا، ولا بـادت، ومحـي اسمهـا مـن لـوح الوجود، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن الـتي سنها الله على أساس الحكمـة البالغـة. إن الله لا يغير ما بقـوم مـن عـزة وسـلطان ورفاهـة وخفض عيش وأمن وراحة، حتى يغير أولئك ما بأنفسهم من نور العقـل، وصـحة الفكـر، وإشـراق البصـيرة، والاعتبـار بأفعـال الله في الأمـم السـابقة، والتـدبر في أحـوال الـذين جاروا عـن صـراط الله فهلكـوا، وحـل بهـم الـدمار... فشـحوا بـبذل مهجهـم في حفـظ السنن العادلة، واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصرة الحق، فأخذهم الله بـذنوبهم، وجعلهم عبرة للمعتبرين.

هكـذا جعـل الله بقـاء الأمـم ونماءهـا في التحلي بالفضائل الـتي أشـرنا إليهـا، وجعـل هلاكها ودمارها في التخلي عنها. سنة ثابتة لا تختلـف بـاختلاف الأمـم، ولا تتبـدل بتبـدل الأجيـال، كسـنته تعـالى في الخلـق والإيجـاد، وتقدير الأرزاق، وتحديد الآجال"(٦).

يُوضِّح لنا هذا التغيير "أن أعمال الجوارح ناشئة من نبع نفس تُحـرِّك الجـوارح" وحـين تصـلح الـنفس" تصـبح الجـوارح مسـتقيمة" وحـين تفسـد الـنفس تصـير الجـوارح غـير مستقيمة... فالحق سبحانه وتعالى أخضع كل الجوارح لِمُرادَات النفس، فلو كانت الـنفسُ مخالفـةً لمـنهج الله" فاللسـان خاضـع لهـا" ولا ينطق رغم إرادته بالتوحيد" لأن الـنفسَ الـتي تديره مخالفةٌ للإيمان... يـدلنا أنـه سـبحانه لا يتـدخل إلا إذا عنـت الأمـور" وفسـد كـل المجتمع" واختفـت الـنفس اللوامـة مـن هـذا المجتمع" واختفـى مـن يقـدرون علـى الـردع –ولو بالكلمة– من هذا المجتمع" هنا يتـدخل الحق سبحانه.

وحين يغير الناس ما بأنفسهم، ويصححون إطـلاق الإرادة علـى الجـوارح" فتنصـلح أعمالهم" وإياكم أن تظنوا أن هناك شيئا يتأبى على الله "(٧).

والتغيير الذاتي ينصب في مجملـه –أولاً وأخـيراً– علـى قضـية تحريـر الإنسـان، في مواجهة الهزيمـة النفسـية، بإحـداث انتفاضـة نفسـية قـادرة علـى "بـث روح الاسـتعلاء بالإيمان، والخصوصـية الرسـالية، والمنجـزات التاريخية– يظل مهماً لتجديد الروح، ونفـض اليأس والقنوط عـن نفـوس المسـلمين. هـذه الانتفاضة المطلوبة، تحتاج إلى تعزيز الانتمـاء، من خلال التضحية، والقدوة الحسنة، وتحتاج كذلك إلى نوع من إبراز الإيجابيات التاريخيـة والحاضرة، كما تحتاج كذلك إلى التأكيد على إمكانية تحسن الأحوال، فإن خسارة جولة أو جـولات لا تعـني خسـارة المعركـة، مـا دام الإصرار على كسب الفوز موجوداً "(٨).

وقضية تحرير الإنسـان "هـي المبـدأ الـذي بدأت به دعـوة الرسـل جميعـا، فلـم يطبقـوا

شرعا أو حكما قبل أن يحرروا الإنسان، من الإنسان، ومن سائر المعبودات.

إن كل الشعارات التي ترفع تطبيق الشرع في مجتمعات مشلولة الإرادة، يستعلي على كرامتها التسلط والطغيان، فهي كمن يريدك عبدا لله في باب العبادات، وعبدا للطاغية في سياسته وقهره... ولكي يحفظ الإنسان تحرره من سائر المربوبات، فهو مأمور أن يراجع قلبه ويفحص إيمانه بالله على الدوام، ليخرج من قلبه من دخل فيه مع الله "(٩)، وهذا يعني أنه على الإنسان الذي يريد التحرر، والانطلاق نحو التغيير، أن يراجع نفسه وينتقدها، لأن من أصعب الأمور القيام بعملية نقد ذاتي، لأنها مواجهة للذات، لأننا تعودنا الهروب والفرار من نقد الذات، أو إعطاءها ما يشبه التقديس والتبجيل(١٠).

وإذا كان التغيير بالدرجة الأولى والأساس ينصب على الذات المسلمة في إطارها الفردي، ومن ثم يأتي التغيير على الجماعة المسلمة والمجتمع المسلم، وهنا يأتي دور المفتاح الثاني، وهو:

٢- **الإعداد الذاتي:** وهذا الإعداد يجب أولا على الجماعة المسلمة، لكي تحمي الصف الداخلي من الشبهات والإيذاء الخارجي، ويحافظ على وحدة الفكر والتوجه. قال تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) (الأنفال: ٦٠).

وهذا الإعداد لا يحقق "المطلوب، إن لم تستجيش طاقات الإنسان المسلم كافة، ويعاد تشكيل عقله، كما أراد الإسلام أن يكون، ليتمكن من أداء دوره في هذه المهمة الكبيرة، للوصول إلى شواطئ الأمن واليقين، والتحقق بسياج القوة التي ترهب الأعداء وتمكن للأمة الإسلامية في الأرض "(١١).

التكوين والإعداد الذاتي أمر شاق على النفس البشرية، صعب على الناس، إلا المؤمنين بالله، المتوكلين عليه، أصحاب النفوس العزيزة، والهمم العالية. (مِنْ قُوَّةٍ) نكرة تفيد العموم، فالإعداد الأدبي، والمادي، والإداري، والفني، والمالي، والعلمي، والتكنولوجي، والروحي، والتربوي.. كل ذلك فرض القرآن علينا الإعداد بأنواعه، وأن نبذل فيه أكثر جهودنا، وأن نقدم النفس والنفيس ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، وتشمل أيضا إعداد الجيل إعدادا حربيا، وتسليحه بالعقيدة الإسلامية الحقة، وبالأخلاق الدينية الصالحة، وبالتربية الإيمانية والروحية ..

فالإعداد لا يتم، والطاقات لا تُستغل، إلا في فضاء من الحرية التي هي "صدى الفطرة ومعنى الحياة، يشب المرء من نعومته وهو يحسب أن كل ذرة من كيانه تنشدها وتهفو إليها، وكما خلقت العين للبصر، والأذن

للسمع، وكما خلق لكل جارحة أو حاسة وظيفتها التي تعتبر امتدادا لوجودها واعترافا بعملها!.. كذلك خلق الإنسان ليعز لا ليذل، وليكرم لا ليهون، وليفكر بعقله، ويهوى بقلبه، ويسعى بقدمه، ويكدح بيده. لا يشعر وهو يباشر ذلك كله بسلطان أعلى يتحكم في حركاته وسكناته إلا الله الفرد الصمد، ربه، ورب الناس أجمعين!. بيد أن الناس تظالموا فيما بينهم، وطغى كبارهم على ضعافهم، ومال الميزان دائما مع ذوي القوة والبطش، فحيثما وجدوا، حجَّروا ما أراد الله له أن يتسع. وتاريخ العالم، من أعصار سحيقة، سلسلة من المعارك الداهية، والأحداث القاسية، حملت أوزارها الوثنيات السياسية السائدة، تلك الوثنيات التي ملكت نواصي الشعوب، وسخرتها في أهوائها العابثة، وفرشت طريقها بالأشواك والأقذار. ومنذ آماد بعيدة والجماهير المهضومة تتطلع إلى حقوقها، وتسعى حثيثا لاسترجاع المغصوب منها، وقد تحملت في سبيل ذلك أفدح المغارم. ولماذا يرجع الإنسان إلى ذكريات الماضي، وهذه صفحة الحاضر الكئيب لعالمنا المرهق المكدود؟ إننا لا نزال نسمع إلى أنات الشاكين، وصرخات المخنوقين، من ضحايا الاستعمار الخارجي، والاستبداد الداخلي. وفي جنبات الشرق الأوسط بقايا من ظلمات الجاهلية الأولى ترين على القلوب والعقول، حتى ليحسب المرء أن هذه الظلمات تتقشع من آفاق الدنيا كلها لتتجمع في بلادنا وحدها؟ "(١٢).

عوامل إصلاح وتجديد المجتمع

إن الدين الإسلامي، بشموليته الواسعة، أتاح لنا إمكانات هائلة من التغيير والتجديد والإصلاح، والتخلص من الاستعباد، والتحول من مجتمع يهضم حقوق الإنسان، إلى مجتمع يعيد للإنسان إنسانيته، ويعشق العدل والحرية، في حدود الأصول والثوابت والمبادئ العليا" حتى تسود القيم الأخلاقية الفضلى. لذا وجب علينا أن نمتلك الفاعلية الإيجابية، والمسؤولية الكاملة" بأن نتخلى عن السلبية والانهزامية في الحياة، ونتحلى بأخلاقيات لا إله إلا الله، لإبداع الوسائل والآليات اللازمة، التي توظف كل الطاقات والمواهب وتستوعبها، ليسهل التوغل في نسيج المجتمع الشائك التعقيد. لقد "تخلف المسلمون لبعدهم عن حقيقة الإسلام، وإن بقيت لهم بعض مظاهره.. لقد بقي لهم أنهم ينطقون بأفواههم لا إله إلا الله محمد رسول الله. فهل يعون معناها، أو يعرفون مقتضياتها؟

وبقي لهم أنهم يؤدون بعض العبادات، فهل أدركوا المقصود بها، أو رعوها حق رعايتها؟

وبقي لهم بعض (التقاليد) الإسلامية، فهل تصمد التقاليد الخاوية من الروح، للمعركة الضارية التي توجه إلى الدين عامة، والإسلام على وجه الخصوص؟ وبقي لهم تمنيات بأن ينصر الله دينه، ويعيد إليه أمجاده، فهل تكفي التمنيات لتغيير الواقع السيء وإنشاء البديل؟!

نستطيع أن نقول ببساطة: إن كل مفاهيم الإسلام قد فسدت في حس الأجيال المتأخرة من المسلمين، تحولت لا إله إلا الله من منهج حياة كامل، إلى الكلمة التي تُنطق بالأفواه.

وتحولت العبادة – بعد أن انحصرت في الشعائر التعبدية، وخرجت منها الأعمال والأخلاق – إلى أداء آلي تقليدي خاوٍ من الروح.

وتحولت عقيدة القضاء والقدر من قوة دافعة إلى النشاط والحركة، مع التوكل على الله، إلى قعود عن النشاط والحركة، مع تواكل سلبي مريض. وتحول التوازن الجميل بين العمل للدنيا والعمل للآخرة، إلى إهمال للدنيا من أجل الخلاص في الآخرة، فأهملت عمارة الأرض، وطلب العلم، وطلب التمكين والقوة، وعمّ الجهل والفقر والمرض، ورضي الناس بذلك كله على أنه قدر رباني لا قبل لهم بتغييره، بل لا يجوز العمل على تغييره، خوفاً من الوقوع في خطيئة التمرد على قدر الله! أهذا هو الإسلام؟! أم هذه صورة مناقضة لحقيقة الإسلام؟ وهل يمكن أن يؤدي الشيء ونقيضه إلى نتيجة واحدة؟!

إذا كان الإسلام يؤدي في حياة الناس إلى التمكن والقوة والنظافة ونقاء الأخلاق، والتقدم العلمي والتقدم الحضاري، ومقاومة انحرافات البيئة والتغلب عليها.. فهل يمكن للصورة البديلة أن تؤدي إلى النتائج ذاتها؟

أم إنها لا بد أن تؤدي إلى الضعف والتخلف والخضوع لانحرافات البيئة والعجز عن تقويمها؟ وهذا الذي حدث بالفعل"(١٣).

فكان لا بد من العودة إلى التخلق بأخلاقيات الإسلام وجعله منهجا للحياة، وهذا لا يتم إلا "حين تضيء شموس الحرية، وتضرب بأشعتها في كل واد، فإن البشر تتسع آمالهم، وتكبر هممهم، وتتربى في نفوسهم ملكة الاقتدار على الأعمال الجليلة، فتتفتق القرائح فهما، وترتوي العقول علما، وتأخذ الأنظار فسحة ترمي فيها إلى غايات بعيدة، فتصبح الإمكانات طوع اليد، والطاقات طوع الفكر، والمصير طوع الإرادة، ويكون التخطيط طريق المجتمع في بناء الحضارة "(١٤).

ولتجديد المجتمع وتفكيك آلة الاستبداد وبنيانه، يجب أخذ القدر الكافي من الوسائل والآليات، ووضع الخطط والبرامج للتهيؤ والاستعداد لتحديات ومفاجئات المرحلة، لأن

"بنيان الاستبداد بنيان مرصوص، وجذوره ضاربة في عمق التاريخ، حتى صار عقيدة وفقها وكتبا ومنابر وجامعات ودور نشر ووزارات تشرف على بنيانه، وعتادا دينيا متكاملا بكل أنواع الأسلحة، لمواجهة بدائل الاستبداد والملك العضوض. لم يدخر المستبد وسيلة أو فكرة تشيد بنيانه وترص صفوفه إلا أولاها العناية وفتح لها الخزائن والأموال، معتمدا على:

- جهازه الأمني والاستخباراتي في القمع والاضطهاد والاعتقال وصنوف التعذيب..
- وعلى جهازه القضائي، وهيئات التحقيق، في تغطية جرائمه وقمعه باسم الشرع.
- وعلى جهازه الإعلامي، لإلباس الباطل لبوس الحق.
- وعلى درعه الديني الضخم في الأدلجة والتدجين"(١٥).

لذا كان لزاما التريّث في دراسة الواقع بكل هدوء وجدية، لتحديد عوامل إصلاح وتجديد المجتمع، ومنها:

١- التحرر من أسر الترويض: روّضَ: روَّض المدرِّبُ الوَحْشَ: راضه، ذلَّله ودرَّبه ليكون طيِّعًا "، ترويض: وسائل إخضاع الحيوانات وتهيئتها لعمل خاص(١٦).

يولد البشر أحرارا، صيحة أطلقها الخليفة الراشد (عمر بن الخطاب)- رضي الله عنه- عبر التاريخ، تتجاوز حدود الزمان والمكان، بقوله: " متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ". ولقد كان "السبيل الأنجح لدى المستبدين لترويض العبيد هي الدفع بهم للانغماس في الشهوات، ونزع إرادة التدافع لديهم، من خلال بث الشعور العام بعدم وجود ما يستحق أن يضحي الإنسان من أجله..."(١٧)، وبهذا الترويض يصبح الإنسان المروض عجينة سهلة التشكل، يفعل ما يطلب منه سيده، لأنه " إذا كان للإنسان شخصية، لا يمكن أن يكون خادما جيدا، ومن أجل إحكام التسلط، يُسلب منه شعوره بإنسانيته، أو يتم إضعاف هذا الشعور على الأقل، فالشخص ذو الشخصية، خادم رديء، ولكن فاقد الشخصية خادم جيد، ومطيع، ووفي، وسلس الانقياد "(١٨).

٢- كسر مرآة الاستبداد: لكل فرد في مجتمع الاستبداد نصيب من ممارسة الاستبداد في محيط عمله ومعيشته: الموظف في وظيفته، والمعلم في مدرسته، والوالد في بيته، والأم في منزلها، والمدير في دائرته... وهكذا يصبح الفرد المستبَد مرآة للمستبِد في دارته الصغيرة، مقارنة بدائرة المستبِد الكبيرة، لأن الاستبداد يغزو "النفس المستعبَدة" فيتكلم صاحبها لغة المستبِد، ويفكر بمنطقه" لأنه

امتص ما ينتجه المستبِد، كما تمتص قطعة الاسفنج ما يحاط بها من سائل، مهما كان جنسه. وحتى إذا عالج المستبَد قضية من قضاياه الخاصة أو العامة، فإنه يعالجها بنفس الطريقة التي زرعها ونماها المستبِد في محيطه" فتأتي النتائج في صالح الاستبداد... وهذه الظاهرة يمكن أن نطلق عليها مرآة الاستبداد.. هذه المرآة التي يعكس فيها الأفراد المستعبَدون ما يقوم به المستبِد معهم، فيمارسونه مع من هم دونهم "(١٩).

يتطلب كسر مرآة الاستبداد عزيمة وهمة، وإرادة ووقتا، وتوجيها وإرشادا، والانصهار في بوتقة الشريعة السمحاء، لأن في ظلها تتحطم الأصنام التي في داخلنا، مع معرفة حقيقة الإنسان وطبيعة النفس وعاقبة الظلم والاستبداد في الدنيا والآخرة. ومن أهم المعاول التي تهدم مرآة الاستبداد "التناصر في وجه الظلم: وذلك من أقوى الدعائم التي وطد الإسلام بها الحريات وأقر العدالة وحسم لوثات المستبدين. إن الغاشم ربما لا تردعه العقوبة المرجأة في الآخرة، وربما لا تصده الزواجر والحدود التي يقيمها القانون، ولكنه ينقمع ويتردد إذا أدرك أن ضحيته عزيزة المنال، وأنه دون الافتيات( )عليها قد يهلك هو نفسه، أو تهلك رجال ورجال. ومن ثم شرع الإسلام مبدأ التناصر بين بنيه، فإذا رأيت رجلا وقع في حرج وأوشك أن يهوى، أو يصاب، فحق عليك أن تهرع لنجدته، وأن تسارع لمعونته، وأن تشعره بأنه لن يكافح جور المعتدين وحده، بل إنك إلى جانبه تشاطره الحلو والمر، حتى ينتصف لنفسه ويخرج من ورطته موفور المال والعرض والدم والكرامة والإباء. تلك هي سنة الإسلام.. لا يجوز أبدا أن يبقى المظلوم فريدا، يلتفت إلى الأعوان فلا يلقى صريخا. وأمر الله الواضح، وإرشاد رسوله البين، أن جماعة المسلمين مسؤولة عن حماية الحق بعملها وتأييدها، كما هي مسؤولة عن حمايته بالقول والبيان"(٢٠).

٣- التخلص من القابلية للاستعباد:

لكي نعيد بناء وتجديد المجتمع، والنهوض به نحو المعالي، ليتنشق نسيم الحرية، يجب زرع ثقافة التخلص من الاستعباد، "ونتحرر من الأغلال، وندرك قيمة الحرية، ويعلم كل منا أنه أقوى من الاستبداد والمستبدين، ويطمئن لهذا العلم، فلا ينتظر أن تأتيه حريته من خارجه، أو أن يصدر مرسوما يمنحه إياها.. بل يشعر أنه حُر، حتى لو كان في زنزانة لا تتسع إلا لجسده، ما دام يمتلك إرادته بحيث يستطيع أن يقول (لا) عندما يريد الآخرون أن يستعبدوه ليقول (نعم).. وأما إذا فقد تلك الإرادة، فإنه لا يعدو أن يكون رأسا عددية - لا قيمة لها- بين قطعان البشر"(٢١).

والتخلص من القابلية للاستعباد لا يأتي إلا باتخاذ قرار حاسم داخلي أولا، يفصل بين الشعارات الزائفة والمغلوطة، وبين ما يمليه عليه إيمانه وعقيدته. "إن العقيدة هي ما يعيشه الإنسان، وهي تجعله في حالة تحرك دائم نحو التحرر من العبودية لغير الله... وهذه هي الشهادة للعقيدة التي قدمها (بلال) – رضي الله عنه–، وهو يردد خلال جرعات العذاب الطويلة المتصاعدة: " أحد.. أحد"، صيحة روح تحررت من إسار الغرائز بعد ما سيطرت العقيدة عليها.. فالروح في صوت (بلال) هي التي تتكلم، وتتحدى بلغتها اللحم والدم.. وتعلن أن الحرية هي القرار الذي يتخذه الإنسان الحر الواعي المكلف، ولا تستطيع قوى العالم مجتمعة أن تسلب هذا الإنسان هذا القرار، مهما كانت الإغراءات، أو مهما توحش العدوان، أو مهما كانت الظروف "(٢٢).

فكان (بلال) بهذا التحول والصمود والتحدي، رمزا للعودة من العبودية والاستبداد، إلى الحرية وتجديد فكر المجتمع، للتخلص من الاستعباد ورواسبه. وسيكون (بلال) نموذجا في كل مكان وزمان، لكل إنسان يعيش الذل والعبودية" وسيكون صوته وشعاره الخالد " أحد.. أحد"، الذي قهر به الذات، إلى إثبات الذات أولا" وثم قهر به جبروت المستبدين، ليعلنها للعالم: أنه لا سلطان ولا عبودية إلا لله الواحد الأحد، وسيكون شعاره آذان فجر الحرية في ليل العبودية الطويل والمرير.

٤- **المسؤولية:** يشعر الفرد في ظل الاستبداد بافتقاد الشعور بالمسؤولية، أو تخافتها، لأنه يرى ويعايش أن التعب والكد لا يؤدي إلى الراحة واليسر، وربما يرون خلاف ذلك. "ومن ثم لا يبحث المستعبَدون عن المعايير العادلة، أو الصحيحة، وإنما عن أسلوب ما يحصلون به على قسم من (الكعكة) المنهوبة. وهم بذلك يتبنون عقائد المستبِد وأفكاره، ويعيشون نوعا من الازدواجية.. وكأن لهم عقيدتان: عقيدة نظرية، وعقيدة اجتماعية... وتصبح هذه الازدواجية هي الوسيلة المثالية لبناء جسر يعبُر المسافة الفاصلة بين قدرته اللامتناهية على الطاعة والقبول بأقل القليل.. وبين إحساسه بالبرودة والغربة تجاه السلطة... وهكذا تتذبذب العلاقة بين المستبِد والمستعبَد بين التبعية والرضوخ، وبين الرفض والعدوانية، حيث يحاول الإنسان المستعبَد الانتقام من سيده بأساليب خفية: الكسل، والتخريب، أو رمزية: النكات، والتشنيعات.. وهذا يخلق ازدواجية في العلاقة: رضوخ ظاهري، وعدوانية خفية"(٢٣). وقد يتحول هذا السلوك المزدوج في العلاقات، في بعض الأحيان، إلى

عدوانية ظاهرة من قِبل بعض المتبوعين المتنفذين – أصحاب الوجاهة (الملأ) مثلا – لكسب بعض الامتيازات والخصوصيات المادية من السلطة. ولهذا تتعمد السلطة –إن شكت في ولائهم– إلى التقرب إلى "بعض من يشكون في ولائهم وإخلاصهم، عن طريق إغرائهم بالمناصب، وإبهارهم بالمركز والسلطة، ليكونوا قريبين منهم، وتحت سمعهم وأبصارهم، وليتم بعد ذلك الاستحواذ عليهم، بتوريطهم في ممارسات، كأن يتم تكليفهم للقيام بأعمال غير اعتيادية لحساب السلطة، أو أعمال غير قانونية ضد الطرف الآخر – ضد الناس – أو ضد المعارضة أحيانا، الأمر الذي يربطهم بالسلطة، حتى أنهم لا يستطيعون بعد ذلك الانفكاك منها، أو مما لحقهم منها من أعمال أو ممارسات قاموا بها، ونتائج ترتبت عنها، بل لا يجدون أمامهم إلا أن يستمروا فيما هم فيه، ولا يجدون إلا الخضوع والطاعة، فيجبرون أنفسهم على الولاء للسلطة، والإخلاص لها، لأنهم صاروا جزءا منها، ما يمسها يمسهم، وما يسيء إليها يسيئهم، شاءوا ذلك أم أبوا، بعد أن يفقدوا –بسبب انحيازهم إلى جانب السلطة– قدرتهم على المحافظة على سلامة مواقفهم، أو على حيادهم، على أقل تقدير.

بل الفرد –أحيانا– ما إن ينتسب إلى سلطة ما، حتى يتقمص شخصية جديدة.. تكسبه إياها السلطة.. ويلبس ثوبا جديدا هو ثوب السلطة. وإن لم يُرد هو أن يكون هذه الشخصية الجديدة، أو أن يلبس هذا الثوب، فإن الناس أحيانا هي التي تدفعه ليكون هذه الشخصية الجديدة، أو ليلبس هذا الثوب.. تدفعه بعد أن تغريه.. تزين له شخصيته الجديدة، تقنعه بها ليكونها.. بحجة أنه أصبح مسؤولا عن المسؤولين، وأن له حقوقا مثلما عليه واجبات، حقوق تفرضها هذه المسؤولية.. لذلك فهو يستحق أن يكون له كذا وكذا، وأنه جدير بهذا، بل ينبغي له أن يسلك، وأن يتصرف، على هذا النحو الجديد، الذي فرضه عليه هذا المنصب الجديد، أو الشخصية الجديدة. فالفرد الذي يتمكن من امتلاك أدوات السلطة، يحظى بجاذبية طبيعية بالنسبة لمن يودون مشاركته في التأثير على الآخرين، إنهم يرغبون العيش في ظله، ويدخلون في روعه أن ما يتمتع به جاء حصيلة لشخصيته المتميزة، وكفاءاته العالية. بل هم يسارعون في التعبير عن هذه الجدارة، وعما يستحقه عليها، بتقديم كل ما يرضي غروره وتعطشه "(٢٤).

لهذا كان زرع الشعور بالمسؤولية، في قلوب وعقول العامة والخاصة، من "أعظم الأخلاق وأقواها في تحمل المسؤولية، التي تقوم على الصدق والصبر والبذل والأمانة والعفة والوفاء، وغير ذلك من الجوانب

الأخلاقية التي تكتمل في النفس، فتجعل صاحبها قادرا على تحمل المسؤولية أمام الله، وأمام الناس: أمام الله بحسن المراقبة، وأمام الناس بأداء الحقوق والقيام بالواجبات، وكف الظلم ودفع الشر عنهم... وما أصاب أمتنا في العصور المتأخرة بأمراضها، إلا ضعف الإحساس بالمسؤولية أو تلاشيها، فدَبَّ فيها الوهن، ونما في أعضائها الفتور، فتراخت شدتها وذهبت قوتها " (٢٥).

٥- التضحية: يقول الدكتور (عبد الكريم بكار): "لا سيادة للقيم بدون تضحية... وإذا كنا نظن أننا نستطيع أن نكون من ذوي الخلق النبيل، بدون أن ندفع ثمنا لذلك، فنحن واهمون. فلذة راحة الضمير، والتمسك بالمبدأ، ونشوة الانتصار على الأهواء، لا تكون أبدا مجانية، وبدون مقابل. وعلى قدر انهيار المجتمع، وتآكله، يكون الثمن أكبر. وكلما كان المجتمع أقرب إلى الخير والصلاح، كانت التضحية أقل... ومن العسير على الواحد منا أن يكون قدوة في كل شيء... لكن بإمكان كل واحد منا أن يكون قدوة لمجتمعه في أمر من الأمور: فهذا قدوة في خدمة إخوانه، وذاك قدوة في المحافظة على الوقت، وذاك قدوة في صلة الأرحام وبر الوالدين، ورابع قدوة في المحافظة على الصلاة في الصف الأول، وهكذا... وهؤلاء القدوات هم الرموز التي ترفع سوية المجتمع، وتجذبه نحو الخير والفضيلة، كما أنهم مصدر مهم من مصادر التفاعل والتجديد القيمي"(٢٦).

٦- العدالة الاجتماعية: تعني العدالة الاجتماعية إعطاء كل فرد ما يستحقه، وتوزيع المنافع المادية في المجتمع، وتوفير متساوي للاحتياجات الأساسية. كما أنها تعني المساواة في الفرص، أي أن كل فرد لديه الفرصة في الصعود الاجتماعي.

تعد العدالة الاجتماعية من أهم مكونات وأساسيات العدل في الإسلام. ولقد أوضح (سيد قطب) في كتابه (العدالة الاجتماعية في الإسلام)، **أن هناك ثلاثة ركائز تقوم عليها العدالة الاجتماعية في الإسلام. هذه الركائز هي: التحرر الوجداني المطلق، والمساواة الإنسانية الكاملة، والتكافل الاجتماعي** الوثيق، حيث أن كل عنصر مبني على الآخر.

ويعني بالتحرر الوجداني: التحرر النفسي من الخضوع وعبادة غير الله، لأن الله وحده هو القادر على نفع أو ضرر الإنسان. فهو وحده الذي يحييه، ويرزقه، ويميته، دون وجود وسيط أو شفيع... والهدف من التحرر النفسي من الخضوع لغير الله، هو التخلص من الخوف والتذلل لغير الله، لنيل رزق، أو مكانة، أو أي نوع من أنواع النفع، عن يقين أن الله وحده هو الرزاق. ولكنه قد ينجح الإنسان نسبيا في أن يتحرر من عبودية كل ما

هـو سـوى الله تعالى، في حين أن هناك احتياجات طبيعية بشرية خلقها الله في الإنسان -أهمها: المأكل- تعوق التحرر الكامل والحقيقي. ومن أجل أن يحقق الإسلام هذا التحرر الوجداني، بصورة فاعلة وواقعية، فقد وضع الله من القوانين والتشريعات ما يضمن للإنسان احتياجاته الأساسية، وبالتالي يساعده على تحقيق التحرر الوجداني الكامل. ومن أهم هذه القوانين، هو: وضع مبدأ المساواة كمبدأ أساسي من مبادئ الإسلام... جاء الإسلام ليساوي بين جميع البشر في المنشأ والمصير. قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً) (النساء:١)، وقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)(الحجرات: ١٣). كما قال: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) (الإسراء:٧٠). فالكرامة مكفولة لكل إنسان، والفرق بين الناس -عند الله- في درجة تقواهم، وليس جنسهم، أو لونهم.

وهكذا يتتبع الإسلام كل ناحية من حياة الإنسان، الوجدانية والاجتماعية، ليؤكد فيها معنى المساواة توكيدا. وما كان في حاجة لأن يتحدث عن المساواة لفظا وصورة، بعدما حققها معنى وروحا، بالتحرر الوجداني الكامل من جميع القيم، وجميع الملابسات، وجميع الضروريات، وكفل لها في عالم الواقع كل الضمانات. ولكنه يحرص على المساواة حرصا شديدا، ويريدها إنسانية كاملة، غير محدودة بعنصر ولا قبيلة ولا بيت ولا مركز..

أما القانون الثالث، الذي وضعه الإسلام لضمان التحرر الوجداني الحقيقي، فهو: التكافل الاجتماعي. والتكافل الاجتماعي يقصد به التزام الأفراد بعضهم نحو بعض" فكل فرد عليه واجب رعاية المجتمع ومصالحه. وليس المقصود بالتكافل الاجتماعي في الإسلام مجرد التعاطف المعنوي، من شعور الحب والمودة، بل يتضمن العمل الفعلي الإيجابي، الذي يصل إلى حد المساعدة المادية للمحتاج، وتأمين حاجته، بما يحقق له حد الكفاية. وذلك يكون عن طريق دفع الزكاة، فإن لم تكف، فيؤخذ من الأغنياء ما يكفي للفقراء(٢٧).

٧- **تصحيح مسار الأخلاق:** نحن هنا لا نتحدث عن الأخلاق الإسلامية، فهو مجال واسع جدا، لكن سنكتفي بذكر قطوف عن الأخلاق الاجتماعية، وما يربط المسلم بمحيطه وبيئته. لأن الهدف الأول، الذي يسعى إليه المفسدون، هو التلاعب بالقيم

الأخلاقية، وتغيير مسارها، وفصلها عن المعاملات اليومية والاجتماعية. وهذا ما نراه لدى بعض المنتسبين إلى الدين، الذين "قد يستسهلون أداء العبادات المطلوبة، ويظهرون في المجتمع العام بالحرص على إقامتها، وهم – في الوقت نفسه – يرتكبون أعمالا يأباها الخلق الكريم والإيمان الحق... ذلك أن التقليد في أشكال العبادات، يستطيعه مَن لم يُشرب روحها، أو يرتفع لمستواها "(٢٨)، لذلك تتحول عبادات وممارسات بعض المتدينين إلى "صورة اجتماعية لا أكثر، فترى مصلين لا يتركون صلاة يومهم، ولكنهم في نفس الوقت لا يراعون حدود الله في عمل، ولا يتورعون عن ظلم الناس في أعمالهم وأرزاقهم... وهذا التدين يؤدي إلى ظهور أعراض الهشاشة الدينية، والتي تشابه هشاشة العظام المعروفة... لتدرك أنه على الرغم من الانتشار الكمي للتدين" إلا أن الكثير من صور هذا التدين ما زالت تندرج تحت التدين الهروبي الانسحابي، أو التدين السلبي"(٢٩).

لذا كان تأكيد الإسلام على ضرورة الالتزام بالأخلاق الحميدة، والتحلي بها، من المهام الأساسية الأولى التي دعا إليها، وحث أتباعه على التعامل بها مع من كان، لأنها من موجبات العقيدة، ومن مقتضيات كلمة التوحيد. "وقد بلغت الأخلاق الاجتماعية في الإسلام مبلغا من الرقي العظيم، جعلها في مركز القمة، بما اشتملت عليه من تفصيلات موثقة للروابط الاجتماعية بين الأفراد، ومؤثرة تأثيرا عميقا في تغذية وحدة الجماعة الإسلامية، وتنمية روابط المودة والإخاء بين المسلمين... وقاعدة الأخلاق الاجتماعية الكبرى، تتلخص: بأن يعامل الإنسان الآخرين بما يحب أن يعاملوه به: إنه يحب أن يعاملوه بالعفو إذا أساء، فليكن عفُوّا عن إساءاتهم. ويحب أن يكونوا معه أمناء، فليكن أمينا. ويحب أن يصدقوه، ولا يكذبوه، فليصدقهم، ولا يكذبهم. ويحب منهم العفة عن محارمه، فليكن عفيفا عن محارمهم، وهكذا"(٣٠).

"وحين نتدبر في حقيقة الإيمان، نجده يستلزم في درجاته المرتقية كل الفضائل الإنسانية. لأن الله، الذي هو الحقيقة الكبرى، التي ترتبط بها جميع أركان الإيمان وفروعه، يأمر بكل الفضائل، ومنها الفضائل الخلقية، وينهى عن الرذائل، ومن ضمنها الرذائل الخلقية. والمؤمن يجد نفسه ملزما باتباع ما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه. وللإيمان من التأثير على الإنسان ما ليس لأية قوة أخرى: داخلة في النفس، أو خارجة عنها "(٣١).

لهذا كان التأكيد على ضرورة الالتزام بالأخلاق الحسنة، التي نادى بها الإسلام، وجاء بها الرسول الكريم– صلى الله عليه

وسلم- لمن أراد النهوض بالمجتمع، وتخليصها من ركام التخلف والجهل، والصعود نحو عالم أفضل. لأن الإسلام عد الإخلال بالأخلاق والفضائل خروجا عليه وابتعادا عنه. لأنه إذا "نمت الرذائل في النفس، وفشا ضررها، وتفاقم خطرها، انسلخ المرء من دينه، كما ينسلخ العريان من ثيابه، وأصبح ادعاؤه للإيمان زورا، فما قيمة دين بلا خُلُق ؟! وما معنى الإفساد مع الانتساب إلى الله ؟! فليست الأخلاق من مواد الترف، التي يمكن الاستغناء عنها، بل هي أصول الحياة التي يرتضيها الدين، ويحترم ذويها"(٣٢).

وحتى تكون أخلاقنا على المسار الصحيح، يجب التوازن بين الدنيا والآخرة، وأن لا يطغى جانب على جانب، "إذ يحدث عدم التوازن حين تنفصل عن الآخرة، في حس الإنسان، فيقوم بأعمال على أنها للدنيا وحدها، منفصلة عن الآخرة، وأعمال أخرى على أنها للآخرة وحدها منفصلة عن الدنيا، عندئذ لا بد أن يحدث الاختلال في حسه، فتغلب مجموعة من الأعمال على الأخرى. فإما أن تجذبه الدنيا رويداً رويداً حتى ينسى الآخرة، وإما أن تجذبه الآخرة رويداً رويداً حتى ينسى الدنيا. وكلاهما في نظر الإسلام اختلال. فالأول ينشغل بالسعي وراء الرزق والحصول على أكبر قدر من متاع الدنيا، والآخر يزهد في متاع الدنيا، وينشغل عن طلب الرزق وتعمير الأرض. ويصبح كل منهما مقصراً وآثماً في حق الله.

إنما يحدث التوازن الذي تشير إليه الآية: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)(القصص:٧٧)، حين ترتبط الدنيا والآخرة في حس الإنسان، فيعمل للآخرة وهو يعمل للدنيا في ذات الوقت. فلا يهمل العبادة ولا يهمل عمارة الأرض"(٣٣).

٨- الارتقاء بالهمم والهموم:

طلب المعالي شيء جميل، والأجمل منه هو دوام السير في الطلب، ولا يتم ذلك إلا بتجاوز العقبات، وتسخيرالصعاب، وتغيير المشقات إلى ملذات، وتحويل القوة الكامنة في الجسم، وصهر خامات المجتمع، إلى طاقة وعناصر ذات قوة دافعة متحركة متقدة نحو الغاية المنشودة في الحياة القصيرة، أو الحياة الممدودة، وهذا يعني الارتقاء بالهمم والهموم الفردية والجماعية! الارتقاء بالهمم نحو الأهداف ذات القمم العالية، والعمل على تحقيقها بعمل دؤوب ونشاط مستمر، لتوسيع دائرة النشاط الاجتماعي، وتغيير ما أمكن تغييره، أو زرع فكرة التغيير، وغرس الوعي، نحو النهوض من الركود، والنفرة من سفاسف الهموم الأرضية، التي تثبط الهمم، والسير نحو تجديد المجتمع، وإرشاده. لأن الشعور الزائد بالأمن، والإغراق في الرفاهية،

يؤدي إلى التنعّم والترف والميوعة، وإلى تحلل شخصية الفرد، وعدم الاستجابة للتغيير والتطوير والتقدم، وهذا ما يسميه الخبراء بـ (خيانة الرخاء).

ولا شك أن التطبيق العملي بالجهود الإنساني، يحتاج تغييرا نفسيا وذاتيا، يلائم ظروف الزمان والمكان والأحوال... ولكي نحصل على نتائج جيدة ومرضية، فلا بد من الحزم والجد، وعدم التأخير، الذي يثبط الهمم، ويفتر العزيمة. لأن التغيير شاق، ويحتاج إلى مجهود كبير، لكن حلاوة النصر على النفس، وإرغامها على السير على طريق النجاح، ونشوة اجتياز العقبات، تنسي المرء طعم المعاناة.

لأن "الحسرة والتألم، وتصعيد الزفرات، ليست سوى وسيلة سلبية، لا تجرح قوى الباطل – بل لا تخدشها – وهي لا بأس بها، لكنها تنقلب إلى أمر بالغ الخطورة إذا لم يعقبها عمل إيجابي مثمر، إذ تكون وسيلة لامتصاص النقمة على الأوضاع الفاسدة، ومن ثم الركون إليها، وعلى أحسن الفروض: استمرار هذه النقمة، ولكن بشكل جامد لا حياة فيه، يؤدي إلى شلل الحركة. وليس أفضل لقوى الباطل من هذا الوضع"(٣٤).

وإنما الصواب في كل حين أن تسلك طريق الهمة، وهو الطريق الذي وصفه قدوة العراق، آخر الزمان العباسي: الشيخ (عبد القادر الكيلاني) رحمه الله، فكان ينادي أهل (بغداد) بصوته الهادر: أن "سيروا مع الهمم العالية " (٣٥)، لا تتواروا، ولا تنسحبوا، بل سيروا مع الهمم العالية.

ولا زال هذا الطريق هو الطريق المعبد الوحيد في خارطتنا.

أما الجبن ، والانزواء، والتأوه، فصحارى مهلكة.

إن من واجبات المسلم إزاء محاولة استئناف الحياة الإسلامية، وإرجاع الإسلام إلى الهيمنة، من بعد الحدث الهائل في تنحيته، هي واجبات واضحة بينة. وأكثر من نراه من المسلمين المتحسرين، أصحاب الأماني المتأوهين، "يكون عالمًا بها، ولا تنهض همته إليها، فلا يزال في حضيض طبعه محبوساً، وقلبه عن كماله، الذي خلق له، مصدوداً منكوساً. قد أسام نفسه مع الأنعام، راعياً مع الهمل، واستطاب لقيمات الراحة والبطالة، واستلان فراش العجز والكسل. لا كمن رفع له علم، فشمر إليه، وبورك له في تفرده في طريق طلبه، فلزمه واستقام عليه. قد أبت غلبات شوقه إلا الهجرة إلى الله ورسوله، ومقتت نفسه الرفقاء، إلا ابن سبيل يرافقه في سبيله"(٣٦).

فكذلك البرهان الذي يعطيه المسلم علامة لصدقة. وكذلك حقاً تفعل الأشواق حين

تصدق. إن صاحبها حينئذ يأبى إلا الهجرة، والانضمام إلى القافلة. ويذر كل رفيق يثبطه، ويزين له إيثار السلامة، إلا داعية يبثه همه، ويتعاون معه على السير في طريق الجهاد، ويعلمه علم البذل، وفقه الدعوة والتبشير(٣٧).

٩- بقاء جمرة التجديد متقدة:

المشاركة في حركة المجتمع نحو التجديد، هذا يعني أنك تساهم في بنائه، وتنتسب إلى العصر الذي ولدت فيه، وتتكيف مع إحداثياته، ويجب أن تبقى جمرة التغيير متقدة في القلب والفكر والنفس، مهما طال الزمن، ومهما بلغت التضحيات. وهذا يعني الابتعاد عن كثرة الاعتذارات، لأنها نذير خطر داهم يقترب، والتجرد لله سبحانه وتعالى، لأنك اليوم في مواجهة عدو يقظ شرس، يصل الليل بالنهار في سبيل اقتلاع الدين من نفسك، ومن المجتمع، أو على الأقل تركه في القلوب صنما، لا روح فيه، ولا حياة، بتزيين الباطل، وترغيبه في الشهوات، وإخراج ميزان الأخلاق من دائرة العلاقات بأنواعها. لذا كان على قائد التغيير، الصبر والتحمل والتخطيط، والتهيؤ والمتابعة، وتهيئة النفوس والعقول بالتدريب والتقويم والتذكير والتصحيح، والترقية من التفكير باهتمامات النفس، إلى التفكير باهتمامات الغير، لأنه قد "تم التأصيل والتشريع والتكوين، وتنظيم مشروع الاستبداد، على نحو صعب الوصول لأبراجه الشاهقة في البنيان والتراص، بل يصعب التصدي له، ما لم تتعاضد له الجهود الفكرية والشرعية للإشهار به وتعريته، مهما كان الثمن الذي سيدفع"(٣٨).

وخير زاد لبقاء جمرة التغيير متقدة في القلب، هو استشعار لذة العبادة والمناجاة مع الله تعالى، والعمل على تمكين هذا الدين في حياة الناس، قال تعالى: (فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ. وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ)(الشرح:٧-٨)، " فإذا فرغت من شغلك مع الناس، ومع الأرض، ومع شواغل الحياة.. إذا فرغت من هذا كله، فتوجه بقلبك كله إذن إلى ما يستحق أن تنصب فيه وتكد وتجهد... (وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ).. إلى ربك وحده، خاليا من كل شيء، حتى من أمر الناس الذين تشتغل بدعوتهم.. إنه لا بد من الزاد للطريق. وهنا الزاد. ولا بد من العدة للجهاد. وهنا العدة"(٣٩).

والقلة القليلة قد تكون هي صاحبة الجمرة المتقدة، التي قد ترى شعلة النصر والتغيير مرفرفة" أو تهلك وتبقي الذكريات والحماس في قلوب الأبناء والأحفاد لاستكمال المسيرة. قال سبحانه: (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ. وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) (البقرة:٢٤٩).. "هكذا.. (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً).. بهذا التكثير. فهذه هي

القاعدة في حس الذين يوقنون أنهم ملاقوا الله. القاعدة: أن تكون الفئة المؤمنة قليلة، لأنها هي التي ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار. ولكنها تكون الغالبة، لأنها تتصل بمصدر القوى، ولأنها تمثل القوة الغالبة. قوة الله الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، محطم الجبارين، ومخزي الظالمين، وقاهر المتكبرين"(٤٠).

١٠- الدعوة على بصيرة ووعي:

المواجهة التي يخوضها الفرد، من أجل نشر مبادئ الدعوة الوسطية بين أفراد المجتمع، قد تجعله -أحيانا- يهمل السعي وطلب الحصول على قدر أكبر من العلوم والمعارف حول الواقع، وتقدير ما للآخرين من قوة عنيفة وطاغية، تقديرا دقيقا. "لقد شهد التاريخ الإسلامي العديد من حركات التغيير، وهي حركات ومذاهب لا ينقصها -في أغلب الأحوال- الإخلاص في القصد، والبناء على أصول من الحق النظري، ولكن أكثر ما كان يأتيها من فشل في النتائج، أو ضمور فيها، كان يأتيها من قصور في معرفة الواقع، الذي تهدف إلى إصلاحه، وفي امتلاك تصور عميق لطبيعته، ولعناصر تكوينه، وعوامل تفاعلاته. فإذا ما اتجهت الإرادة إلى الإصلاح، مع هذا القصور، ارتدت في كثير من الأحيان بالخسران والفشل.. وعلى هذا الاعتبار، يغدو فهم الواقع عاملا بالغ الأهمية في التغيير"(٤١).

الإيمان بالله هو الدعامة الكبرى، التي تنبثق منها الدعائم كلها "ولا شيء يتقدم عليها في عقيدة التوحيد، التي هي أساس الإيمان. فإذا تقدم ذكر أمر من الأمور، في آية من آيات القرآن، على الإيمان بالله، فذلك له دلالة خاصة، يجب الوقوف عندها لتدبرها، والاعتبار بما تضمنته من معان.

وخذ هذا المثال من سورة يوسف: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)(يوسف:١٠٨). فهنا تقدم ذكر البصيرة على ذكر العقيدة، المتضمن في قوله تعالى: (وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ).. وهذا يعني أن البصيرة لازمة في الدعوة إلى الله، لزوما أصليا لا غنى عنه، وأنه لا يكفي في الدعوة أن يكون الناس مؤمنين، بل لا بد مع الإيمان من البصيرة "(٤٢).

أي: أدعو بالطريق المُوصِّل إلى الله، إيماناً به، وتَقبُّلاً لمنهجه، وطلباً لما عنده من جزاء الآخرة" وأنا على بصيرة مما أدعو إليه. والبصر الحسيُّ لا يُؤدِّي نفس عمل البصيرة" لأن البصيرة هي يقينٌ مصحوب بنور يُقنِع النفس البشرية، وإنْ لم تَكُنْ الأمور الظاهرة مُلجئة إلى الإقناع (٤٣).

البَصِيرَةُ: عَقِيدَةُ القَلْبِ... اسمٌ لما اعتُقِدَ فِي القلْب مِن الدِّين وتحقيق الأَمرِ... وقولُه تعالَى: (أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ)، أَي: على معرفةٍ وتَحَقق. والبَصِيرَةُ: الفِطْنَةُ(٤٤).

ولذلك، فلا بد من إحكام الفهم لهذا الواقع، من خلال التأمل في معطيات أحداثه، والربط بينها، بشكل ينظر إلى تلك الأحداث على أنها كائنات حية، تؤدي دورها من خلال علاقات عضوية تربط بينها.. إن مجرد الإحساس بالواقع وحده، لا يحصل منه وعي، بل الذي يحصل هو الحس فقط، ولا يحصل وعي مطلقا، بل لا بد من وجود خبرة سابقة عند الإنسان يفسر بواسطتها الواقع الذي أحس به حتى يحصل فكر، ومن ثم وعي، بهذا الواقع (٤٥).

إن سيرنا في الحياة، والتفاعل معها، لا بد أن يكون في إطار من فهم وبصيرة بالواقع، ووعي بعناصره، دون تجميل، أو تحريف، أو تزوير. لأن الوعي بما حولنا من ظروف وأحداث وتقلبات، وما عند أعداء الأمة الإسلامية من مكايد وخطط، هو السبيل الأنجح لكي تكون حركتنا في إطارها الاجتماعي الصحيح، ويكون عملنا وتخطيطنا أقرب إلى الإحسان والاتقان..

١١- فهم اللعبة السياسية العالمية- كيمياء السياسة:

يقول أحد المفكرين المعاصرين، عن أحد الدعاة البارزين في صفوف الحركة الإسلامية المعاصرة: " الرجل كان دماغاً جباراً، ومنظراً كبيراً، وحركياً من الطراز الأول، ولو فهم اللعبة السياسية العالمية أكثر، وفقه العصر، وصدفه الحظ، ولربما غير تاريخ... الحالي، ولكن نقصته الشروط، فخاب وفشل، ومات كسيراً أعمى، عليه رحمة الله "...

إن دعاة التغريب، وأعداء الإسلام، لا يحاربون بالسلاح العسكري، إلا إذا اقتضت الحاجة، وفي فترات محدودة، " أما حربهم الدائمة فهي حرب الألسنة والأقلام.. حرب المنشئات البريئة في مراكز التعليم... حرب الجمعيات، التي ينشئونها، وينفخون فيها، ويساندونها، ويمكنون لها، في المراكز الحساسة في المجتمعات... كل ذلك من خلال أموال أقلام المخابرات، التي تشتري الصحف والأقلام، وتشتري الهيئات والجماعات.. وهم يحاربون من خلال كل ذلك، أن يجعلوا الفرد خائنا لمجتمعه الذي يعيش فيه، فإن لم يستطيعوا ذلك، فإنهم يحاولون أن يحققوا خيانة المجتمع لذلك الفرد، على يد بعض من يسيرون في ركبهم، على مرأى العيون، في صورة رجال مرفوعين على منابر الزعامة وكراسي الحكم" ليقوموا بدورهم المرسوم في تحطيم أصحاب الأفكار، عن طريق الإرهاب والتعذيب"(٤٦).

على الداعية، أو (الجماعات الإسلامية)، في هذا العصر، أن يفهم ما يدور حوله داخليا خارجيا، وأن يحلل المواقف والخطابات والوعود... لكي يكون على بينة فيما يدعو، وكيف يدعو! لأن التاريخ البعيد والقريب يحدثنا عن سرقة انتصارات، وتشوية كفاح قادة ومناضلين، بعد أن يسروا السبل، ومهدوا الطريق، لإنجاح التغيير المنشود. "ولعل قصة (السامري) تعد نموذجا سياسيا خبيثا لهذا الأسلوب في سرقة النصر وإهدار الزعامة، فقد رأينا هذا السامري مختفيا عن الأحداث الجليلة، والمواقف الخطيرة، ولم يكن له ذكر في مهمة الخروج، وقضية النجاة.. مختفياً يترقب من بعيد فرصته السياسية، بعد زوال الخطر.. فلما ذهب (موسى) للقاء ربه.. وغابت القيادة، وجاءت الفرصة، ظهر السامري.. (وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا موسى(٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى(٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ) (طه:٨٣-٨٥).. ظهر محاولا نهب القضية، واغتصاب الكفاح الإسلامي الشاق: (فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ موسى فَنَسِيَ)(طه:٨٨).. إن (السامري) نظرية ثابتة في واقع الصراع الإسلامي مع أعدائه، وفي كل محاولة كفاح من أجل الحرية، سيكون هناك سامري جديد.. يتلهف إلى لحظة يكون فيها هو الزعيم والقائد، بعد جهاد شاق، وتضحيات هائلة، وبذل ضخم من الأحرار"(٤٧).

١٢- الإعلام الهادف:

لا ينكر دور الإعلام في توجيه العقول، والمشاركة في تكوين السلوك، والتأثير على مسار الأخلاق، سلبا أو إيجابا. حتى أصبح "الإعلام المعاصر يلغي الحدود، ويزيل السدود، ويختزل المسافات، ويختصر الزمن، ويستقدم التاريخ، ويكاد يلغي الجغرافية، وهو يتدخل في الخصائص النفسية، بتأثيراته الخطابية، وبياناته السحرية، وتقنياته العصرية... "(٤٨).

لقد انحصرت اهتمامات غالبية الناس، "وطموحاتهم، في القطع الزجاجية المصفوفة في بيوتهم (الشاشات)، وأوصلهم الافتتان بنقاوة الصور، وسرعتها، وزهوها، لدرجة الأسر لسلطانها، الذي يسلب العقل ميزانه، ويفقده المقاييس التي تهديه سبيل الرشاد، من خلال نعومة الحيلة الإعلامية في إدارة الإنسان.. وما يدعم هذه النعومة من خيوط الشبكة العنكبوتية، التي توقع العبيد في أسر الفأرة – الماوس – التي يمسكون بها، لا ليحصلوا على المعرفة.. وإنما ليقعوا في أسر الشهوات.. والتي أصبح تعبيد البشر من خلالها فناً كاملا، وعلما، وممارسة. لقد أمطرت سماء الإعلام المنظم الشرس الأرض

بمعلومات خاطئة، وأفكار أعمت الأبصار، وأشغلت العقول بما لا ينفع" ففقدت القدرة على ربط الأفكار ربطا صحيحا. ثم قام الإعلام باحتلال متدرج لمساحات صغيرة من العقل البشري، ليصيبه بتوعك ثقافي عميق، يؤذن ببدء علة لا شفاء منها" حيث يجد الإنسان نفسه مستلبا لأفكار خاطئة، لا يلبث أياما بعد تبين خطئها، حتى يجادل فيما قد تبين له من الحق"(٤٩).

ولا ينجو من هذا التوعك الثقافي، إلا قلة من الذين يمتلكون المناعة، والقدرة على الرؤية من خارج الإطار المرسوم لهم، ولديهم القدرة والإمكانية على الاحتفاظ بإدراكهم، ووعيهم، دون تحريف أو تزوير أو تشويه أو تزييف، ولديهم قدرة التفكير بعقلية نقدية، تقوم على تنقية وغربلة الأفكار القادمة من العالم الخارجي" كما تقوم بوظيفة المراجعة الدؤوبة للذات والواقع(٥٠).

لقد أصبح الإعلام، وخاصة المسموع والمرئي، هما أكثر القنوات قوة وتأثيراً على الرأي العام، والتوجه لمختلف طبقاته وعناصره. الإعلام المسموع يصل إلى جميع الفئات، والمرئي أكثر قوة وفاعلية في إحداث ما هو مطلوب. وهكذا استطاعت الوسائل المسموعة والمرئية أن تخدر العقل النقدي، إن لم تقتله، ليصبح المشاهد في حالة تلقي واستقبال سلبي لكل ما يشاهده.

وهكذا وسط هذا الضباب الكثيف، يتم تزييف الواقع، بتعيين المكلفين بمراقبة الحقيقة، وتخويلهم صلاحيات سجنها في أقفاص زجاجية، لصياغة نمط آخر من أشكال فرض السيطرة المسبقة، والتلاعب -عن قصد- بالحقائق، وإبدال الواقع بغيرها، ونشر قيم طاعة أولي الأمر.. الزهد في الحياة.. القناعة بضآلة الأجور.. الوفاء لأولياء النعمة.. وبذل الحياة في الدفاع عنهم..!! بينما يستمتع المتسلطون بقيم الجشع والنهب والربح المتزايد، والإفراط في كل المتع، التي حرموها على المستعبدين(٥١)!!

يحدثنا الأستاذ (محمد رشدي عبيد) ويقول: "إذا كانت أشكال الإعلام العالمي المعاصر، تضم هذه الميزات الضارة المتنوعة، ألا يقتضي ذلك أن نخطط لإعلام إيماني منهاجي دقيق... خصوصا والأمة المؤمنة تواجه الآن، أكثر من أي وقت مضى، تحديات إعلامية خطيرة ... فالغزو الأجنبي لا يلجأ إلى الجيوش إلا قليلا، بل يتخذ من وكالات الأنباء، والتحليلات الصحفية، والبرامج التلفزيونية المدهشة، وأفلام الكرتون المتقنة الصياغة والمضمون، وأشرطة الفيديو، والإرسال الإذاعي، لإنشاء قناعات معينة"(٥٢).

لذا كان على عاتق خطيب الجمعة، والمحاضر، والمربي، والمعلم، والوالدين،

وأصحاب البرامج الدينية، في القنوات التلفزيونية والفضائيات، وأصحاب المنتديات، وشبكات التواصل الاجتماعي، على الشبكة العنكبوتية، وأصحاب الأقلام في الصحف والمجلات، القيام بواجبهم في الوعظ والإرشاد ومخاطبة العقول والقلوب، وإشباع الجوانب الروحية والإيمانية للمتلقي والقارئ، لكي يكون على بينة بما يدور حوله، ليأخذ الحيطة والحذر من مكايد شياطين الإنس والجن.

١٣- تقبل ثقافة النقد والحوار:

عند فقدان الحوار الهادف والنقد البناء تتلاشى الفرص التي تدفع العقول أن تفكر بحرية وجدية، وتتقوقع النفوس التي تعشق أن تُشرق وتزدهر، ومن ثم تترك لنا فجوات سحيقة في عقولنا ونفوسنا، وأفكار قابعة في العقل اللاوعي، ومع مرور الزمن تضمحل هذه العقول وتيأس النفوس، وقد تعمل على الضد، بخلق الأخلاق، وتقطيع أوصال المجتمع.

ومع هذا يبقى النقد برهانا ساطعا على التقدم المعرفي، والنضوج الفكري، وخزانا لذخائر الأفكار التي بها نستطيع تقويم مسار الاعوجاج بكل حيوية واستبشار، ضمن مشروع منظم، وفق منهجية واضحة ومبرمجة، لأن "العقل الإنساني يحتاج بالدرجة الأولى إلى نظام ومنهج يسير عليه، أكثر من حشوه بالمعلومات، أي بناء العقلية النقدية، وليس العقلية النقلية"(٥٣).

" ويمكن القول بأن النقد أسهل أنواع الإنجاز الفكري، وهو في جوهره ناتج عن مطابقة يسيرة بين ما هو كائن، وبين ما ينبغي أن يكون. ونحن حين نحبذ النقد، فإنما نحبذ النقد الموضوعي، الذي لا يعتمد على الشائعات، ولا يستهدف الإساءة للأشخاص، ولا التشهير بهم، ولا نشر الفضائح، وإنما النقد الذي يساعد الأمة على البقاء في المسار الصحيح، مشدودة نحو أهدافها الكبرى"(٥٤).

إن أخطر ما يحيط بالعمل الإسلامي، وخاصة الجماعات التي تحجر على العقل النقدي والتفكير البناء، الاعتقاد بأن "القيادات والمفكرين يعرفون كل شيء، وما على الأفراد إلا الاتباع. هذا التواكل، الذي يتربى عليه الأفراد، يجفف منابع الأفكار، ليكتشف المرء، بعد مرور السنين، أن اعتقاده بمعرفة القادة وقدراتهم ليس في محله، فيكون قد عطل عقله وضيع أوقاته، ولم يُفد الإسلام من قدراته وملكاته"(٥٥).

وتكمن أهمية النقد في أمور كثيرة، منها:

الأول: أن النقد يسهم في بلورة وعينا بذاتنا، من خلال منحه المحددات والمشخصات لأبعاد هذا الوعي ومفاصله ومحصلاته" حيث نحاول أن نجعل مما ننقد

موضوعاً نعمل فيه وعينا وخبراتنا المتراكمة" وذلك سعياً للمحافظة على التواصل مع أهدافنا، والاتجاه الذي رسمناه لأنفسنا" كيلا يذهب به الامتداد.

الثاني: أن النقد يساعدنا على النجاة من تكرير الأخطاء السابقة" فالنقد يدل على إدراك الخطأ وتشخيصه ورفضه. وحين يشفع بالتعليل المنهجي والمنطقي والتجريبي الكافي" فإنه يمنحنا حصانة ممتازة ضد النكوص والتلطخ بأوحال الأخطاء السابقة(٥٦).

الثالث: في النقد تدريب على طريقة توجيه وقيادة العقل في تكوين الأحكام الصحيحة.. أي هي عملية لا بد منها في تكوين العقلية المنهجية.. فهي أداة ضرورية للجانب الأخلاقي والعقلي.

أو إذا أردنا التعبير عن ذلك بكلمة أوضح، قلنا: إن النقد الذاتي، شارك في ولادة الحدث، وتمامه، ثم في قيام العمل بوظيفته، فلا يبقى عقيماً، ثم هو فضلاً عن ذلك جو النمو لهذا العمل(٥٧).

الرابع: في النقد الذاتي التفات إلى العامل الداخلي، والصف الداخلي، الذي يلعب الدور الحاسم في ولادة الأحداث وتوجيهها. "إن المسلمين التفتوا وركزوا انتباههم على خصومهم، وحذفوا أنفسهم من تكوين المشكلة، بمعنى أن العالم الخارجي هو المتهم حتى الآن، مع أن العامل الداخلي هو الأساس في ولادة الحوادث"(٥٨). يقول (علي عزت بيكوفيتش): "لقد تحدثنا كثيراً عن الخسائر والهزائم التي ألحقها بنا الآخرون، وحان الوقت الآن لكي نبدأ الحديث عن الهزائم والخسائر التي ألحقناها بأنفسنا، وبهذا ستكون بداية نضجنا"(٥٩).

الخامس: إن النقد يبلور معرفتنا بذواتنا وأصولنا، وإن كثيراً من الأفكار تظل غائمة ومعتمة، ما لم تتعرض للنقد والحوار، وتلوكها ألسنة المناظرة. ثم إن النقد يوفر لنا بيانات كثيرة، نحن بأمس الحاجة إليها، إذ الإنسان يحب الوضوح، ويحب العمل في أجوائه. والنقد يؤسس نوعاً من السلطة الأدبية، التي يحتاج الإنسان إلى من يمارسها عليه، ليعوض بذلك ما لديه من ضعف في الحوافز على العمل، أو ليحجزه عن الكسل، وسوء استغلال الوظيفة(٦٠).

١٤- العمل الشعبي الخيري:

أعمال الخير لا تتوقف، مهما كانت النظم السائدة والحاكمة في الشرق والغرب، لأن القوى الخيرة في المجتمعات تتجه دوماً إلى استثمار خبراتها وطاقاتها في الأعمال الخيرية الشعبية، من نحو: بناء مساجد، وكفالة الأيتام، وإطعام الفقراء، وبناء المستشفيات، وفتح مراكز تحفيظ القرآن الكريم، وفتح العيادات الخيرية، وإعانة وإغاثة اللاجئين

والنازحين والمنكوبين، وجمع التبرعات في وقت الأزمات والشدة، ناهيك عن توزيع السلات الغذائية والحقائب المدرسية وكسوة العيد على الفقراء والمحتاجين، ومشارع الأضاحي، ومكاتب العمرة ... وهذه الأعمال وغيرها أعمال مطلوبة في كل مكان، وفي كل ظرف.

١٥- اقرأ الكلمة لتقرأ العالم:

اقرأ، هذه الكلمة التي اندهش رسول الله - صلى الله عليه وسلم- عند نزولها عليه، وهو في غار حراء، عندما أمره جبريل - عليه السلام- بها، لأن القراءة المثمرة والمطلوبة هي القراءة المبنية على الإخلاص والإنصاف والوعي والتدبر، القراءة التي تربط وتستنتج، القراءة التي تبحث بين الكلمات وتصريفات الأفعال.

القراءة الجادة يتبعها الكرامة والعلم وكشف المجهول بالاكتشافات والاختراعات (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ). "فأكثر المجتمعات قراءة هي أكثرها كرامة. والفرق بين الإنسان الحر والإنسان المستعبَد، هو أن الأول هو الذي يتعلم مما يمر به من خبرات، فيثبت ما يساعده على النجاح ويعززه ويؤيده، ويحذف ما كان خطأ.. أما الثاني، فيكرر ما أخطأ فيه"(٦٢).

الآيات الخمس الأولى من (سورة العلق) أولى آيات التنزيل نزولاً على (محمد) الرسول الأمي المبعوث رحمة للعالمين، آيات قصيرة، وكلمات موجزة، بعبارات بليغة ومعجزة، أكدت على أهمية العلم، ودوره في الخروج من الظلام إلى النور، ومن الجهل إلى المعرفة، ومن الأمية إلى الأستاذية، ومن الذيلية إلى القيادية، ومن الاتباع إلى الإبداع، ومن الأوهام والخرافات إلى الحقائق والاكتشافات، ومن التقليد إلى الاجتهاد، ومن الضعف إلى القوة، ومن الموت (علمياً) إلى الحياة، ومن التأخر إلى التقدم، ومن النكوص إلى النهوض، ومن الخوف إلى الجرأة، ومن عدم الكلام إلى النقد البناء، ومن الأفكار إلى الاستنتاج، ومن ثقافة ضحلة إلى ثقافة ساطعة، ومن الهدم إلى البناء، وأن القراءة والعلم هي الأساس في التقدم الحضاري في جميع جوانب الحياة.

يقول الدكتور (عبد الكريم بكّار):

"وإذا أمعنا النظر في واقع الأمم الصاعدة اليوم، لمسنا للوهلة الأولى أنها اعتمدت النهوض بالتعليم، وتيسير سبل التثقف، أساساً للتقدم الحضاري في جوانب الحياة كافة. وفي المقابل، فإن الشعوب التي توصف اليوم بأنها متخلفة، تشترك جميعاً في أنها لا تمتلك بنية معرفة صحيحة، كما أن بين معظم أفرادها وبين الكتاب نوعاً من الجفاء، ونوعاً

من الخلل في أسلوب التثقف، وفي الحساسية نحو المعارف الجديدة.

سيكون من المؤسف أن تحتاج أمة، أول كلمة نزلت في كتابها، ودستورها الثقافي، كلمة (اقْرَأْ)، من يحثها على القراءة، ويكشف لها عن أهميتها في استعادة ذاتها وكيانها".

قال تعالى: بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ .خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ).

(اقْرَأْ) هذه الكلمة (فعل أمر) وترغيب، كلمة حثٍ وتشجيع، كلمة دعوةٍ وعلم، كلمة فكرٍ وعقل، كلمة تجربةٍ واستنتاج، كلمة تقييمٍ وتقويم، كلمة بحثٍ وتمحيص، كلمة ابتكارٍ واختراع، كلمة إعدادٍ وإنتاج، كلمة تخطيطٍ وبرمجة، كلمة توقيتٍ وتحديد، كلمة تربيةٍ وتعليم، كلمة إدارة وتنظيم، كلمة مواجهةٍ وتحد، كلمة صنع حضارةٍ وأمة، كلمة تطورٍ وتقدم، كلمة سيادة وسعادة، كلمة قيادةٍ وريادة، كلمة تنميةٍ وتقنية، كلمة خبرةٍ ومهارة، كلمة قولٍ وفعل، كلمة صدعٍ وفصل، كلمة قوةٍ وعزة، كلمة نقاءٍ وصفاء، كلمة بركةٍ ونماء، كلمة درسٍ ودراسة، كلمة قراءةٍ وكتابة، كلمة جائزةٍ ومكافأة، كلمة نورٍ وحياة، كلمة إثبات ذاتٍ وكيان، كلمة اكتشافٍ وتطوير، كلمة نصرٍ وتمكين، كلمة ثروةٍ وثورة، كلمة إصلاحٍ وتغيير، كلمة جدٍ واجتهاد.

(اقْرَأْ) باسم ربك الذي خلق كل شيء، ومنها: العلم، والقراءة، والمجهول الذي سيظهر بالبحث العلمي، على أيدي العلماء المجدين. نعم إنها كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والمعرفة، من بحث وكشف وخبرات، في جميع مجالات الحياة(٦٣) ❑

الهوامش:

(١) في ظلال القرآن: (٦/٣٩٨٤-٣٩٨٥).
(٢) من أجل انطلاقة حضارية شاملة: (ص٩٠).
(٣) خالص جلبي، قوانين التغيير: (ص١١٦-١١٧).
(٤) عمادالدين خليل، حول إعادة تشكيل العقل المسلم: (ص١٢٢-١٢٣).
(٥) نحو مجتمع الحرية: (ص٣٦٣-٣٦٤)، بتصرف يسير.
(٦) تفسير المنار: (١٠/٣٨).
(٧) خواطر الشعراوي: (١٢/٧٢٤٢-٧٢٤٥)، بتصرف.
(٨) عبدالكريم بكار، مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي: (ص٢٩٧).
(٩) محمد العبد الكريم، تفكيك الاستبداد: (ص١٩٣، ١٩٥).
(١٠) يراجع: خالص جلبي، في النقد الذاتي.
(١١) إعادة تشكيل العقل المسلم: (ص١٢٤).
(١٢) محمد الغزالي، الإسلام والاستبداد السياسي: (ص٧٣).
(١٣) محمد قطب، رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر: (ص١٧٩-١٨١).
(١٤) نحو مجتمع الحرية: (ص٣٠).
(١٥) محمد العبدالكريم، تفكيك الاستبداد: (ص٢٧-٢٨).

(١٦) معجم اللغة العربية المعاصرة: (٢/٩٦٠).
(١٧) نحو مجتمع الحرية: (ص١٢٣، ١٢٩-١٣٠).
(١٨) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة: (ص١٤٢)، نقلا عن: نحو مجتمع الحرية: (ص١٢٥).
(١٩) نحو مجتمع الحرية: (ص١٥٣، ١٥٥).
(٢٠) الافْتِياتُ افْتِعالٌ مِنَ الفَوْت، وَهُوَ السَّبْقُ إِلى الشيءِ دُونَ ائْتِمار مَنْ يُؤْتَمر. قَالَ الأَصمعي: هُوَ مِنَ الفَوْتِ. قَالَ: والافْتِيات الفَراغ. يُقَالُ: افْتاتَ بِأَمرِه أَي مَضى عَلَيْهِ، وَلَمْ يَسْتَشِرْ أَحداً. لسان العرب: (٢/٦٩).
(٢١) الإسلام والاستبداد السياسي: (ص١٥٥).
(٢٢) نفسه: (ص١٤٨).
(٢٣) نفسه: (ص١٤٨-١٤٩).
(٢٤) نحو مجتمع الحرية: (ص١٦٢، ١٦٣).
(٢٥) سالم القلمودي، سيكولوجية السلطة: (ص٢٣-٢٤).
(٢٦) تأملات في ثقافة التغيير: (ص١٦٨، ١٦٩).
(٢٧) من أجل انطلاقة حضارية: (ص١٦٣-١٦٤).
(٢٨) سيد قطب، العدالة الاجتماعية: (ص٣٢-٥٢)" موقع موسوعة الاعجاز العلمي في القرآن والسنة.
(٢٩) محمد الغزالي، خلق المسلم: (ص١١).
(٣٠) نحو مجتمع الحرية: (١٧٤-١٧٥)، بتصرف يسير، نقلا عن: حسين الشرقاوي، أعراض مصرية.
(٣١) عبدالرحمن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية: (١/٥٧).
(٣٢) الأخلاق الإسلامية: (ص٢٤).
(٣٣) خلق المسلم: (ص١٢-١٣).
(٣٤) محمد قطب، ركائز الإيمان: (ص٤٣٤).
(٣٥) الراشد، الرقائق: (ص١١٩).
(٣٦) نفسه، عن الفتح الرباني .
(٣٧) نفسه: (ص١٢١)، نقلا عن مفتاح دار السعادة.
(٣٨) نفسه: (ص١٢٢).
(٣٩) تفكيك الاستبداد: (ص٢٩).
(٤٠) في ظلال القرآن: (٦/٣٩٣٠).
(٤١) نفسه: (١/٢٦٩)" راجع إن شئت قصة طالوت وجالوت في سورة البقرة.
(٤٢) نحو مجتمع الحرية: (ص١٩٦-١٩٧). نقلا عن: عبدالمجيد النجار، فقه التدين.
(٤٣) نفسه: (ص١٩٧).
(٤٤) خواطر الشعراوي: (١٢/٧١٢٥).
(٤٥) تاج العروس: (١٠/١٩٨).
(٤٦) نحو مجتمع الحرية: (ص٢٠٥).
(٤٧) نفسه: (ص٢١١-٢١٢).
(٤٨) نفسه: (ص٢١٩).
(٤٩) محمد رشدي عبيد، مدخل إلى الإعلام الإسلامي: (ص٦).
(٥٠) نحو مجتمع الحرية: (ص٢٢٥-٢٢٦).
(٥١) يراجع: خالص جلبي، قوانين التغيير.
(٥٢) للمزيد يراجع: نحو مجتمع الحرية: (ص٢٣٣ وما بعدها).
(٥٣) مدخل إلى الإعلام الإسلامي: (ص٧٧-٧٨).
(٥٤) خالص جلبي، في النقد الذاتي: (ص١٥٥-١٥٦).
(٥٥) عبدالكريم بكار، مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي: (ص٢٩٢).
(٥٦) جاسم محمد سلطان، استراتيجية الإدراك للحراك: (ص١٥٠)، نقلاً عن: نحو مجتمع الحرية: (ص٤١٤).
(٥٧) عبدالكريم بكار، من أجل انطلاقة حضارية شاملة: (ص٤٢).
(٥٨) في النقد الذاتي: (ص١٥٥، ١٥٦).
(٥٩) في النقد الذاتي: (ص١١٩).
(٦٠) هروبي إلى الحرية: (ص١٦٩)، نقلاً عن: مجتمع الحرية: (ص٣٦٦).
(٦١) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي: (ص٢٩٢).
(٦٢) نحو مجتمع الحرية: (٣٧٠).
(٦٣) يراجع مقالنا في مجلة الحوارِ العدد (٦٧)- آذار- ٨ ٢٠٠م.

عبق الكلمات

تَرِكة مهاباد والحلم الكوردي



عبد الباقـي يوسف

abdalbakiuosf@gmail.com

تترك الانتكاسات التي يتعرض لها الناس أثراً سلبياً في مسيرة حياتهم القادمة بعد ذلك، فيلبثون أسرى تداعيات ما نجم عن تلك الانتكاسات، يلاحقهم رعب عودتها إليهم، حتى يعيق تقدمهم في الكثير من أبواب الحياة، ويبقى الوجوم مسيطراً على سيماهم.

إنه كائن مسكون بشبح النكسة المروعة، التي تعرّض لها، وهزّت له أركان ومقومات حياته.

تختلف الانتكاسات التي يتعرض لها الأفراد بصفة فردية، أو العوائل بصفة عائلية، أو القوميات بصفة قومية، في مستوياتها ومفرزاتها، بيد أن ثمة خيط يربط بين هذه الانتكاسات في درجاتها الثلاث، لكن رغم كل ما يمكنه أن ينجم عن آثار هذه الانتكاسات، فيمكن للفرد أو العائلة، أو القومية، أن تسعى شطر الخلاص، وتنفض عن نفسها وبال هذه النكسة، فتكون بذلك أعاقت تحويل هذه النكسة إلى عقدة مزمنة في كينونتها.

لقد أُصيبت القومية العربية بـ(نكسة حزيران)، التي تمخّضت عن الهزيمة المروعة التي مُني بها العرب في حربهم مع (إسرائيل)، الأمر الذي دفع بـ(عبد الناصر) إلى هوة الهزيمة السيكولوجية، التي لم يستطع معها سوى أن يعاقب نفسه، مع الضباط الذين انهزموا في الحرب، وينتهوا جميعاً إلى السجن، كعقاب لهم على دخول حرب لم يكونوا مؤهلين لها، ومن جهة أخرى كاعتذار للمشاعر القومية العربية، بيد أنه عدل عن قراره، وعاد إلى ممارسة قيادته، لكن هذه المرة مع ضباط منتكسين، وبقايا جيش مهزوم، وشعب مهتز. وأعتقد أن (عبد الحكيم عامر) كان من أبرز ضحايا تلك الانتكاسة، سواء أكان قد انتحر فعلياً، أو نُحر. ولا أريد لأحد أن يقنعني بأن (عبد الناصر) القائد ما بعد الانتكاسة، هو (عبد الناصر) القائد ما قبلها، أجل لقد عاد الرجل هذه المرة بشخصية الزعيم المهزوم، وبكاريزما القائد المهزوم، وهي كاريزما خافتة، على كل حال، لمن يتوسّم فيها في وجهَي المقارنة.

أردّتُ بذلك أن أمهّد للحديث عن تعرضنا – نحن أبناء القومية الكوردية – إلى هذه

النكسة المروعة، والهزيمة التي مُنينا بها، نتيجة إسقاط أركـان جمهوريتنـا الأولى العتيـدة، بقـوة الجيش، سنة ١٩٤٦، عن عمر ١١ شهراً، وخلع رئيس أول جمهورية كوردية بقوة السلاح، ووضعه على حبل المشنقة، وإعدامه على مرآى من العـالم، والسـيطرة علـى أرض الجمهوريـة المنهارة، وشعبها.

لقد تركت هذه النكسة المروعة آثارها على المشـاعر القوميـة للكـورد، وأطفـأت لـدى الكثيرين حتى الحلم بعودة تلك الجمهورية. على هذه النحـو بـات الكـورد يبكـون أنفسـهم ويرثونها، وهم فوق ذلك يتعرضون لأقسى ألوان الاضطهاد القومي، في جهاتهم الأربع، حيث استقوت عليهم الأمم، على قاعدة أن الجمل عندما يقع، تتكاثر عليـه السـكاكين، فتكـاثرت السكاكين على الكـورد، في محـاولات لصـهرهم في قوميـات أخـرى لـدى الـبعض، والقيـام بعمليات إبادة جماعية لدى بعض آخر، والتضييق عليهم للهجرة لدى آخرين.

لقد لبثت آثار هذه الهزيمة متلازمة مع الزعماء الكورد، بحيـث بـاتوا لا يطـالبون سـوى بحقوق ثقافية، واجتماعية، وهذه ذروة ما يمكنهم المطالبة به. لكـن الأطـراف الأخـرى باتـت تنظر إلى أن الحقوق الثقافية هي باب يؤدي إلى حكم ذاتي، والحكم الذاتي هو تمهيـد لإعـلان دولة مستقلة.

إنها التَرِكة التي لبثت مهيمنة بجبروتها وآثارها على غالبيـة الزعمـاء الكـورد، يطـاردهم شبح (القاضي محمد) وهو معلّق من رقبته، إذا هم أقدموا على خطوة تمردية كهذه، حتـى لـو عاش الاستقلال سنة كاملة. وكما أن نكسة العرب التاريخية أمست بُعبُعاً تُخيفهم به إسرائيل، تحولت نكسة جمهورية مهاباد إلى بُعبُع يتم تخويف الكورد به، من قِبل الجاثمين على دياره.

لبث الكورد حتى هذا التاريخ بحاجة إلى زعيم شـجاع، تكللـه القوميـة الكورديـة بطـلاً قومياً استثنائياً، وهو ينزع عن نفسه براثن النكسة، ويتحرر من قيودها، ويعلن بكـل شـجاعة إقامة هذا الحق التاريخي العادل لحفدة الكورد.

لعل ذلك يضيء لنا بأن الكورد لن يكون بوسعهم أن يكونوا أقوياء إلاّ ببعضهم البعض، ولن يكونوا واهنين إلاّ ببعضهم البعض. إن (جمهورية مهاباد) عندما كانت قائمة، كانت تبـث القوة إلى عامة الكورد، أينما كانوا، وحيثما وجدوا، وعنـدما انهـارت، بثـت إلـيهم مشـاعر الهزيمة والـوهن، أينمـا كـانوا، وحيثمـا وجـدوا. وهـذا يـأتي في الوقـت الـراهن إلى إقلـيم كوردستان، الذي هو قوة تشد ظهر الكورد، أينما كانوا، وكلمـا كـان الإقلـيم قويـاً، قـوي الكورد، وكلما كان الإقليم واهناً، وهن الكورد❐


مقالات

مقامات مَوْصِلِيَة

نَظْرَةٌ سَفْسَطائية في كِتابَة اللُغَةِ العَرَبِيَة بَيْنَ الدش و(الدش) (داشَة)



معن عبد القادر آل زكريا
alzakariaone@yahoo.com

تقول المقامة :

من أقدار تكوين اللغة العربية (لغة الضاد)، ذلك الصوت المميز والمعروفة به والمتمثل بحرف (الضاد) والحروف الحلقية (الحاء والخاء) ، فاللغة العربية تمتلك حروفاً متقاربة الشبه في الكتابة كما في اللفظ، فإذا ما تبادلت أدوار مواقعها، قد يحصل تغيير في المعاني طولاً وعرضاً، جملة وتفصيلاً، كذا فمن نتائج تغاير القراءة بالتحريك للأحرف ذاتها إصابتها بانقلاب في المراد المقصود من

معاني الأسماء رأساً على عَقِب. وقد تعطي أحياناً معان معكوسة أو مُتضادة في أحيان أُخر، تلك التي لم يقصدها الكاتب، وهو ما نطلق عليه بالطباق الموجب التام.

تقول المقامة، يقول الأولون: يُعدُ اسم الجمع لغرفة (غُرَف) وحركتها بالسكون على الآخر، يمكن أن تقرأ (غَرَفَ) بالفتحة على الآخر، وهي بمعنى فعل ماض. كما أن صفة الشخص الذكر البالغ (رَجُل)، قد تقرأ (رِجْل) بمعنى فخذ وساق وقدم الإنسان. و(البَرّ) بفتحة الباء، بمعنى: اليابسة، قد يعني (البِرّ) بكسر الباء، وهو: عمل الخير والإحسان. وهكذا لا يسعنا المقام في هذه العُجالة من تدبيج عشرات بل مئات الأمثلة في هذا الخصوص، ناهيك عن كتابة (معاً) بمعنى سوية بشكل (معن) اسم علم، ومثاله في ذاكرتنا: معن ابن زائدة الشيباني (سكون العين في الوسط في اسم معن)، الأمير العربي المشهور بكرمه.

وهناك ميزة أُخرى في اللغة العربية، قد تنأى فيها، قليلاً أو كثيراً، صفة أو تركيباً، عن غيرها من اللغات الحيّة. فلو دققنا في تشريح بعض التراكيب والمصطلحات، نجد أنها تتألف من أكثر من مقطع (مقطعين أو أكثر). ففي قراءة المقاطع مجتمعة بلفظٍ واحدٍ يتولّد عندنا معنى يختلف عن المعاني متقطعةً، ويتيسّر ذلك في اللغة الإنكليزية، كما في لفظ (Sunday)، التي تتألف من مقطعين (Sun) و(Day) . فكلمة (حديد) مؤلفة من (حد) و(يد)، و(برميل) مؤلفة من (برّ) و(ميل)، ولا ندري هل أنها جاءت على وفق عشوائية الصدفة، أم عن سابقة قصد..! وإذا أردنا المزيد في ذلك، فسنصرف ذهننا إلى (دينار)، التي تشكلت وفق مقطعين، هما: (دين) و(نار)، بعد أن أدغمت النونين الآخرية في الأولى، والأولية في الثانية. كما تحتل مشكلة النقطة (التي لا وجود لتأثيرها في لغات أخرى) فوق أحرف: الراء والزاي والحاء والخاء والجيم والسين والشين والياء والباء. أقول تحتلّ مشكلة ليست بالهيّنة، وما أدراك ما قسوة المشكلة، وهي تتمثلُ في (النقطتين والثلاث نقاط)، التي كثيراً ما أثارت إحراجاتٍ في الكتابة، كما في القراءة، الأمر الذي يجعلُ الحذر في الخطّ، وفي الطباعة، وفي التصحيح، أمراً لازماً، بل موجباً، كي لا ينزلق الكاتب، دون أن يدري، والقارئ الاعتيادي، حسن النية، إلى الوقوع في إشكالات المعاني (اللامقصودة). وكثيراً ما تتردّد مثل تلك الإشكالات في مناقشة أطاريح ورسائل طلاب الدراسات العليا أمام الملأ، وبحضور الجمهور.

وقد يصعب التفريق، إذا ما وقع المحذور في موضع النقطة بين (حدود) و (جدود) و(خدود). ولأن (جليل) اسم مغاير

لـ(خليل)، الـذي يختلـف عـن (حليـل)، وأنّ (خليلة) هي صفة طباق لــ(حليلـة)، فـالأمر سـوف يشـق كـثيراً إذا مـا توغلنـا أبعـد في المتشابهات، كما في (فيـل) و(قبـلَ) و(قيـلَ) و(قُتِلَ). وقد تتكرّر الحالة في (خَبَر) و(خُبـز) و(خَيْر)، وبين (بوم) و(يـوم) و(نـوم)، وبـين (نـصّ) و(بـصّ) و(بـضّ)، وبـين (سـاحر) و(سامر) و(سافر) و(ساخر). وتبدو الصعوبة أكبر، إذا كانت الكلمة لا تتحمّل التغـيير في تراكيب حُروفها وأعدادها وهيئاتها، بل تبقى كما هي، بل تحتمل التغـيير في القـراءة، الـتي تغـير مـن المعنـى، لا كمـا تعودنـاه في حالـة الجناس التام ﴿وجوهٌ يومئذ ناضـرةٌ إلى ربهـا ناظرة﴾. ففي كلمة (بريق)، إذا كُسرت الباء في الحالـة الأولى، فتكـون البـاء حـرف جـر، و(ريق) لعاب فـم الرجـل اسـم مجـرور، أمـا بالفتحة، فيصبح (بريق) بمعنى لمعـان. والحـال ذاتها بين (بِخيل)، بالكسـرة أولهـا، و(خيـل) جمع تكسير لحصان، و(بَخيل) بالفتحـة أولهـا، هذه التي تعني شحيح.

وإذا ما أساء الكاتب (أي كاتب) في خـط (رسم) الكلمة بخطٍ رديء، غير مميز بدقة بين الفـاء والغـين الوسـطية، أو فيمـا إذا كـان القـارئ متعثـراً في القـراءة، أو كانـت قـد وضعت النقاط بعيدة عـن موضـعها الـدقيق، فـالأمر يومئـذ سـيؤدّي بمجملـه إلى حصـول تفاوت في المعاني، لا بل إلى خلافات حادّة قد تطـيح بـالمعنى الأصـلي، وكـثيراً مـا سـبّبتْ إشــكالاتٍ عويصــةٍ في الرســائل، كمــا في مقالات صحافية، أو عـرائض علـى مسـتوى تظلم واسترحام تقدم إلى المسؤولين، وقد قيل في ذلك سوالف و قصـص، فيهـا مـا أبكـى، وفيها ما أضحك..!!

تبقــى مســألة البــوادئ (Prefixes) واللواحــق (Suffixes)، حيــث يقتصــر الاستخدام في اللغة العربية على البوادئ دون اللواحـق، باعتبـار هنـاك لغـات أخريـات يشـاركن اللغـة العربيـة بهـذه الصـفات. فاستخدام البادئـة قبـل الاسـم أو الفعـل أو الصفة يعطي معنـى معكوسـاً، كمـا في (الـلا معقول) و(اللا أدرية) و(غـير فعـال) و(عـدم الدقة) و(لا مسؤول). ففي الإنكليزيـة تقـوم البادئـــة مثـــل (Anti) و(Par) و(Pre) بعكس المعنى، وتعطي معنىً مضـاداً، كمـا في الأولى، أو تعني معنىً جديداً، كما في الثانيـة، وقد تعني (قبل)، كما في الثالثة. أمّا اللاحقـة Suffix فهو مقطع يضاف إلى آخـر اللفظـة بغية تغيير معناها، أو تشـكيل لفظـة جديـدة، مثــل (...ment) أو (...less). وهــذه الأخيرة لا يوجد لها استخدام في اللغة العربية على أي نحو كان.

وكأنّي بالنُحاة عصيّ علـيهم إيجـاد ألفـاظ بذاتها تعطي معان مضادة دون نفيهـا بــ(لا) و(غير) و(دون)...إلخ، لكن أن نضع البادئـة

النكرة المضاف قبل الاسم بصفة معنى (ضدّوي)، فكأننا لم نجد معنى مفرد يقوم بواجبه وحده، فذاك أمرٌ نريد به فتوى من أولي الأمر في آداب اللغة وقواعدها، ليدلوننا على (أنثى الطاووس) و(أنثى البلبل) و(أنثى الخفاش)، ولماذا يكتبُ بيض النمل هكذا (بيظ). أما اسم أنثى الحمار، فلا يعرفه سوى المتخصصون في اللغة العربية، من أهل الخاصة، وهو (أتان)، مع العلم أننا وجدنا لـ(أتان) ذكر في الكتاب المقدس عند المسيحيين، أثناء إيراد ذكر قصة التاجر الصالح الذي ركب أتاناً، وذهب في سبيل المتاجرة...إلخ، ذلك الاسم الذي لو استخدمناه لسخرت منا العامة والقراء على حدّ سواء..!! ولقالوا بل لتقولوا: إذن ما اسم (ذكر البطة)، أو (ذكر الأوزة)؟!! ثم هم سوف لن يوفروا سؤالاً شيطانياً آخر، يريدون به التفكه لا غير، ولقالوا: إذن ما اسم (أبو بريص) الحقيقي، قبل أن يولد له المحروس (بريص)؟!!

ولأن المسلسلات التلفزيونية العربية، ونُخصّ بالذكر منها (المصرية والسورية)، قد أخذت من وقت المتفرج العربي مساحة كبيرة، وعلى وجه الخصوص فترة السهرة، فإن اللفظ العامي من اللهجات إياها قد أثّر في قوة السمع عند المتلقي العربي، ذلك الذي يدين بلهجات أخريات (عراقية وخليجية)، بسبب حكم التعود على التفرج والإنصات، فصارت القاف تلفظ (كالهمزة الأولية) أينما وردت، ومثالها قولهم (بقدرة قادر) لتصبح (بإدرة آدر)، وتصير (قوي) (أوي)، و(قوام) (أوام)، وقاسي (آسي)، والقمر (أمر)، ما عدا حالة واحدة تراهم يحجمون عن إقلابها، وهي اسم العاصمة المصرية (القاهرة)، فلم تأخذ قافها شيئاً آخر، لأنهم لو فعلوا لوقعوا في إحراجاتٍ كثيرةٍ، فامتنعت عنهم امتناعها عن فتح أبوابها للغزاة.

أما الدجاجة (الدياية)، وجاي (ياي)، فعلم أمر قلب جيمها (ياءً) عند أساطين الفلوكلور من إخوتنا الخليجيين، الذين عسى أن يفتوننا بها يوماً. ولقد سمعت قصة حوار، مضى عليه أربعة عقود من الزمن، جرى بين شخصين أحدهما يماني. فقد سأل أحدُهُم شخصاً يمانياً مداعباً: أتشرب حشيشاً؟! فأجابه اليماني: (أوقاتاً).. أو (قاتاً)!!

وقد ينقلبُ حرف الجيم إلى (كاف معطشة)، ليغدو الجمهور (كمهوراً)، والجيش (كيشاً). أما الذال التي تنقلب إلى (زاي)، فهي طامّة كبرى، من حيث أننا قد ألقينا القبض على القائلين بها عشرات المرات، في مؤتمرات علمية واقتصادية وأدبية، على حدٍّ سواء . فهم عندما يريدون القول عن فلان كونه ذكياً، يقولون: فلان (شخصية زكية)، و(شخص زكي). ولأن (زكي) اسم العلم

غير (ذكي) الأخرى، المقصود بها الصفة الخاصة بالذكاء (ذكي)، فهنا يكون المطب الكبير في تفاوت المعاني عن المقصود، وهو أمر لم يفد معه النصح ولا الإرشاد، من حيث أنّ العادة قد ضربت بجذورها في الأعماق، وغدت بمرور الزمن صفة لاصقة، نمت وترعرعت بحكم التنشئة وتأثير البيئة الاجتماعية، وطغيان لهجة العامّي من الكلام في كافة مناحي الحياة. ويقع دور الإصلاح على عاتق معلمي المدارس الابتدائية في تلكُمُ الأمصار، فهي أمانة لغوية، وأمانة علمية.

أما الطامّة الكبرى الأُخرى، فهي الاستفسار عمّن يقع في هذا المطبّ اللغوي الفجّ (في نظرنا)..؟! نقول: هم طابورٌ طويلٌ من جماعة (هكزا) هكذا، و(نزن) نظن، إذ يقف على رأس أولئك أساتذة كبار، ومُؤرخون، وفلاسفة، و سياسيون، ويقع في أعلى درجةٍ من السلّم: أمين عام جامعة الدول العربية العتيدة والطويلة العريضة، بشحمه ولحمه وطوله وعرضه... ومُغنيّة الأمة العربية، بكل هيبتها وقلافتها: كوكب الشرق أم كلثوم...!

يبقى العتب مرفوعاً (منصوباً) فوق أعناق الطبقة المثقفة والمتعلمة في المجتمع، ونخُصّ بالذكر منهم طبقات وشرائح الأدباء والكُتّاب والأطباء والمحامين وأساتذة الجامعات، والعاملين في حقول السياسة والاقتصاد، من مسؤولين وغيرهم، سواءٌ جاء ظهورهم في محاضرات، أو في ندوات تلفزيونية، أو في مُقابلات إذاعية، أو في مُؤتمرات، أو في سواها، ونُحدّد على وجه الخصوص المصريين، فهم يبقى عتبنا عليهم شديداً، إذ يجدُرُ بهم أن يراعوا اللغة الصحيحة في أحاديثهم، وفي حواراتهم.

من سياق التداعيات، التي بينتُها بين طيّات أعتاب هذا المقال، تذكرتُ وأنا أدبّجه حكاية (الحلاق الثرثار)، التي كنا قرأناها في الابتدائية، وفصلٌ مهم منها هو ذاك الذي أخذ فيه الحلاق يتحدّث مع الزبون إبّان فترة الحرب العالمية الثانية، ثم صار عصبياً، وهو يشير، والموسى بين أصابعه، إلى رأس الزبون، الذي صار أشبه بخارطة العالم: هنا طوكيو.. هنا انتصر اليابان.. وهنا خسر الطليان...!! وكأني توقفتُ عند اسم الجمع للإيطاليين (الطليان)، وتذكرتُ كيف أننا مازلنا نطلقه، في مدينتنا الشمالية العزيزة والمشهورة بزراعة الشمزي (الرقي)، على صغار النعجة، تلك التي صارت بقُدرة قادر (مدام) أنثى الخروف، فهُو (طلي) وجمْعُهُ (طليان)...!!

وقبل أن أنتهي من الضحكة الواسعة المجلجلة، التي استلقيتُ بسببها على قفاي، تذكرتُ أحد الظرفاء من أصدقائي حسني النية، الذي ضرب لي يوماً هاتفاً، بعد منتصف الليل، فأفزعني، وأفزع أهل بيتي،

دون أن يلقي عليّ تحيات، ودون مقدمات. ساعة رفعت سماعة الهاتف، صرخ في وجهي مرة واحدة: أرجوك... أرجوك، عندي ضيوف أعزاء على قلبي، فدخلت أنا وزوجتي وعيالي وإياهم في نقاش وسجال، وقع بيننا على إثرها خلاف شديد، سبّب لنا حرجاً ومرجاً... فصرنا بين حيصَ بيصَ، أسعفني وأنقذني وأجبني على سؤالي... وأرحني أراحك الله في الدنيا وفي الآخرة، وأدخل في قلبك السرور والحبور، وأسكنك ما بين الخورنق والسدير: هل هناك أوجه شبه، أو تشابه، أو تماثل، أو جناس، أو طباق، في اللفظ، أو في المعنى القاموسي، بحيث لا يخالف (المنجد)، ولا شرع الكلام، ما بين الدْشْ... والدشداشة؟!!!

الحقيقة، أن مهاتفة الصديق الظريف ثقيل الظل أزعجتني، فصرتُ من شدة غيضي لا أدري ماذا أفعل. فقلت في نفسي: فلأعاقبنه عقاباً شديداً من جنس العمل نفسه، ولأداوينه بالداء ذاته... فصرتُ بارداً جداً، وأبرد من (ط...) السقّا، فرديتُ عليه بكل هدوء وسكينة:

اسمع يا أخَّ العرب!! (بالمناسبة فإن أخّ المشددة تأتي هنا على وزن أخّ...) إنّ هناك لما أردت معان ثلاث: (فالدش) يُراد به الهوائي المعمول على شكل صحن، أو طبق، يُوضع في أعلى سطح المنزل، لأغراض استقبال البث الفضائي. و(دش) الثانية، فهي فعل أمر مبني على السكون، يعني بلغة أهل الخليج: (ادخل)..!! أمّا (الدش) الثالثة، فهي نصف (القصيرة)، وبـ(ردن) واحدة، ولو أكملتها (بالداش)، لصار ثوباً أبيض متعدّد الاستخدامات.. وقد سمعنا من أخوتنا اللبنانيين يقولون: نيّال من لو مرقد معزتو بلبنان...

وأنا أقول: نيال (هنيئاً له) من لو (له) مرقد، إغفاءة ظهرية، قرب دار صوفيا لورين في بلد (الطْلْ) (ياڤْ) ...!

واللبيبُ بالإشارةِ (يافْ) (هامووو)..!!❐

العشائر بين التسليح والمواجهة



سلام خالد

العشائر التي أعلنت أنها تقاتل الإرهاب، ونادت بالنفير بين صفوف شبابها، أصبحت اليوم في مرمى نيران المسلحين، في الوقت الذي لا تزال فيه هذه العشائر تواجه الإرهاب بأسلحة تقليدية، بينما يمتلك الإرهاب أنواع الأسلحة التي استولى عليها من مقرات الجيش العراقي في (الموصل)، وغيرها.

تسليح العشائر ليس بالخطوة الأولى، ففي عام ٢٠٠٧ عندما انتفضت عشائر الأنبار وصلاح الدين وحزام بغداد، وبعض مناطق ديالى، ضد تنظيم (القاعدة)، قامت الحكومة بتسليح العشائر ضمن مشروع (الصحوات)، بإشراف وتدريب أمريكي، ولكن لم تلبث الصحوات حتى تلاشت، بعد صدور مذكرات اعتقال بحق عدد من قيادييها، أو تعرضهم للاستهداف من قبل الحكومة، أو الارهابيين، على حد سواء.

أما اليوم، فالأنظار تتجه إلى عامرية الفلوجة والبغدادي وحديثة والخالدية والرمادي، حيث عشائر البوعيسى والجغايفة والبونمر والبوفهد، وغيرها من العشائر، التي وقفت بأسلحة بسيطة ضد هجمات (داعش)، منذ مطلع العام ٢٠١٤. إلا أن هذه العشائر تطالب بالتسليح، لتستطيع مواصلة المواجهة مع التنظيمات المسلحة، فلا يمكنها أن تبقي شباب العشائر على السواتر بأسلحة



اعتيادية، وعتادهم يتجه إلى النفاذ.

التحالف الدولي برعاية الولايات المتحدة الأمريكية، يتجه نحو تسليح العشائر، ولكن ضمن منظومة الحرس الوطني، باعتبارها هيئة عسكرية مسلحة تتبع وزارة الدفاع، وهذا ما صرح به (جون آلن) عند لقائه عددا من شيوخ العشائر العربية في مدينة (أربيل) تشرين الأول الماضي.

(واشنطن) تضغط على حكومة (العبادي) بشدة من أجل تسليح العشائر، إلا أن هناك تخوفا من قبل الحكومة الاتحادية، من تسليح أبناء العشائر، والخوف يعود إلى أعوام ٢٠٠٧ و٢٠٠٨، عندما وجدت الحكومة أن الكثير من أبناء الصحوات قد تسربوا وتركوا مواقعهم، بعد تهديدات تنظيم (القاعدة).

العشائر اليوم في موقع المواجهة، باعتبارها تدافع عن أرضها، وتعتبر التنظيمات المسلحة احتلالا جديدا، إلا أنها ناشدت –كما ناشد أبناء عشائر الجبور في الضلوعية، والعلم، وغيرها– أنه يجب الإسراع بتطويع أبنائها في القوات المسلحة، وخاصة للفرق العسكرية التي تسربت بعد حزيران الماضي، إلا أن الخطوات الحكومية لا تزال بطيئة في هذا الإطار.

كما أن المقاتلين من أبناء العشائر هم ليسوا من المدنيين فحسب، بل هناك الجنود والضباط من الجيش السابق، فهم الذين يصدون هجمات التنظيمات المسلحة على المدن، كما أن خط المواجهة مفتوح على أكثر من محور في المناطق العشائرية بالأنبار، وغيرها. وهذا ما يدفع أبناء العشائر إلى تحشيد صفوفهم للحفاظ على أرضهم وممتلكاتهم، كما تبقى الحكومة في موضع حرج، كلما تأخرت في دعم العشائر، وخسرت مناطق جديدة عراقية، وتحولت إلى أيدي تنظيم الدولة الإسلامية (داعش)❐

مرافئ

هذا المرض العضال



د.يحيى عمر ريشاوي

الفساد المستشري في جسد مؤسسات الحكومة (هنا)، والحكومة (هناك)، جعل من هذه الظاهرة السرطانية (ثقافة وسلوكا!) لدى الكثيرين. ليست الحكومة، ومن بيدهم مقاليد الحكم، أو الذين يتبؤون مناصب حكومية، فقط، مسؤولون عن تفشي هذا المرض الخبيث، بل كل من شارك، أو (سكت) عن تضخم هذه الآفة، يتحمل بقدر مشاركته، أو (سكوته)، جزءا من هذه المسؤولية الدينية والدنيوية .

الكثيرون منا لا يفكر إلا بالاتصال بزميل له في زمن الدراسة، أو جار في زمن الطفولة، أو شخص التقى به في مناسبة اجتماعية، كي يتوسط له، ويقدم معاملته على حساب غيره، بصورة صار الأصل في إجراءات مؤسسات الدولة: المعرفة، والقرابة، والاتصالات التلفونية! استشراء هذه الظاهرة جعل من (الواسطات)، وتسريع المعاملات، أمرا عاديا إلى حد الغرابة، وحين يبدأ أي منا بإجراءات إدارية، في أية مؤسسة حكومية، فإن أول ما يتبادر إلى ذهنه هو المعرفة والقرابة، لا الإجراءات القانونية والأصولية العادية .

الغريب في الأمر، وربما المضحك المبكي، في أحاديث الفساد الإداري والمالي، في هذا البلد، أن بعض الغارقين في مستنقع الفساد، يعتلون المنابر، وينافسونك في الحديث عن مخاطر الفساد، وكيفية القضاء عليه! بعض المسؤولين، ومن أوصلته المحسوبية والتملق، فحسب، إلى منصب رفيع، تراه يقدم المشاريع والطروحات، وربما يجرؤ على كتابة المقالات والدراسات في آليات مكافحة الفساد، والسبل الكفيلة في إيقاف هذه الظاهرة !

والأنكى من هذه وتلك، حين تسمع أن سياسيا، أو مسؤولا رفيع المستوى، قد أمر بتشكيل لجنة للبحث عن عوامل الفساد في مؤسسة معينة، وتقصي الحقائق، وتسليم المتهمين إلى العدالة، في حين أن المسبب الحقيقي لتفشي هذه الظاهرة في تلك المؤسسات، هو نفس هذا المسؤول (البطل!)، هو نفسه غارق إلى أخمص قدميه في الرشوة والمحسوبية والتجارة غير الشرعية، وغيرها من مظاهر الفساد المستشري في جسد هذه الأمة. وأنا أكتب هذه الكلمات، أتذكر البيت الشعري الذي كان والدي –رحمه الله– يردده دائما مع نفسه :

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب ❑



– قامة عراقية

د. وليد الصراف

قامة عراقية



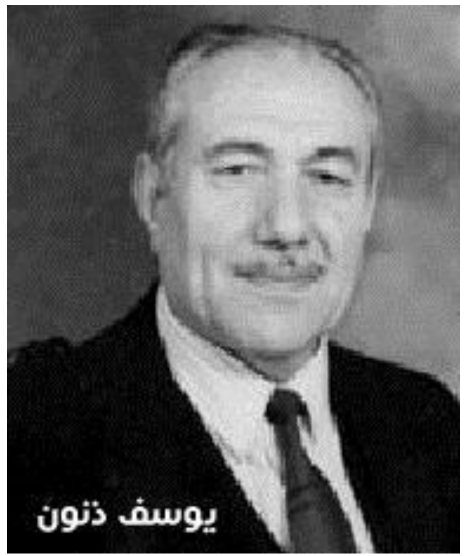
الدكتور وليد الصراف

كان اسمه (يوسف).. وكان أجمل أخوته من الخطاطين.. وإذا ارتبتم، فانظروا إلى كتاباته في مساجد (الموصل)، وأرهفوا سمعكم إلى المحاضرات التي يلقيها على طلابه في الخط العربي، وتصفحوا بل اقرؤوا المجلات التي نشرت ما قاله.

كان اسمه (يوسف).. لذا راودته الدولارات عن نفسه فاستعصم، وقدت الإغراءات قميصه، فقال: معاذ الله، إنه الخط العربي..

كان اسمه (يوسف).. وكانت أمواج (دجلة) تجري في شرايينه، وبيوتات (الموصل) المطلة على (دجلة) تطل من عينيه، وأعشاب ضفتيها تنبت في ذاكرته، وكان الحجر الآشوري يكتب وصيته، قبل أن ينقرض، ويدسها في شقوق يديه، وكان الأحفاد القادمون يودعون أسماءهم أصابعه، قبل أن تعلم بها آباؤهم وأمهاتهم، وكنا نحن الموصليين نعرفه.. كنا ننظر إلى لوحة من لوحاته للحظة، فنرى (نينوى) منذ خلقت حتى هذه اللحظة، في هذه اللحظة.

كان اسمه (يوسف)، وكان يعرف أن الطريق وعر طويل، وأن الإغراءات تقيم مفترقاتها فيه، والطمع ينصب مزالقه عبره، ولكنه لم يحد، حتى أدرك الغاية.. لم يصطحب في فلكه بواقاً ولا زماراً، ولم يلق حبلاً أمام جمع من الناس، ويقول لهم: هذه أفعى



تسعى.. لم يدّع أنه كبير في زمن ادعت فيه حتى الضفدعة أنها بعير.. كان كبيراً فعلاً، والكبير فعلاً يكون مشغولاً بالمعنى عن اللفظ، وبالعمل الذي تسعى إليه الألقاب عن الألقاب. وكم هو مفرح أن نطلق لقباً، فيقع على صاحبه وقوعاً، وينطبق عليه انطباقاً، حتى لنكاد نسمع بآذاننا رنة الانطباق. وكم هو معيب أن ننادي أحداً باسم ليس اسمه، وصفة ليست صفته، فيكذب البصر الكلمة، وتشتم العين اللسان، ويصبح المنادى أضحوكة، سيتفق اللسان والعين عليها فيما بعد.

كان اسمه (يوسف).. وكان أكبر أخوته من الخطاطين، ولكن أخوته لم يلقوه في جب الإهمال، ولم يأتوا بقميصه وعليه حبر كذب.. على العكس إنهم يحتفون به على امتداد (العراق)، وإني لأكاد أراه جالساً مجلسه هذا في أمكنة غير هذا المكان، وأزمنة غير هذا الزمان، بالتواضع ذاته، وبالمهابة ذاتها. وعدا الخط العربي، فهو خبير آثار يعرف عمر الحجر الذي بين يديه، والعصر الذي أقبل منه، ويميط عنه لثاماً يعجز الأكاديميون المختصون عن إماطته، وهو باحث من طراز نادر، علّم نفسه دون أن ينخرط في دراسة أكاديمية، مقيماً البرهان على أن الجامعة هي التي تنخرط في مدرسة الموهبة، إذا وعت الموهبة نفسها، وطوّرت من نفسها.

وبعد، فإنّ معلم الابتدائية (يوسف)، تحول إلى معلم لكبار الخطاطين، وكبار الآثاريين. وتحول الصف الذي يلقي درسه فيه، إلى صف ستختلف إليه أجيال من الباحثين عن الفن الأصيل، وتعدت كلماته التي كانت حبيسة سور مدرسة في (الموصل)، أسواراً وحجباً لتشيع في الوطن العربي، وتوجد حيث يوجد خط عربي.

كان اسمه (يوسف).. وإنه، و(ذنون)، جزء من اسمه، سينجو من حوت النسيان، الذي غيب جوفه الكثير ممن حسبوا مبدعين، بل ممن هم مبدعون فعلاً..

كان اسمه (يوسف).. وكان علماً من أعلام (العراق)، وسيبقى علماً من أعلام (العراق) ❒

ثقافة

- حوار مع الشاعرة العمانية د. فاطمة الشيدي — أجرى الحوار: بسام الطعان
- شعر/ توبة عراقية — د. أحمد جارالله ياسين

د.فاطمة الشيدي:

تعدد منابر الحوار أسهم في تقليص دور الشعر..
أؤمن جدا بضرورة النقد كحالة إبداعية موازية للنص



حاورها: بسام الطعان

الدكتورة فاطمة الشيدي، شاعرة وأديبة عُمانية، حاصلة على درجة الدكتوراه في علم اللسانيات (البلاغة) و(الأسلوبية)، وتعمل حاليا خبيرة بوزارة التربية والتعليم، وأستاذ محاضر في الجامعة العربية المفتوحة.

صدر لها العديد من الكتب الشعرية والنقدية، منها:

١ـ هذا الموت أكثر اخضرارا/ شعر

٢ـ خلاخيل الزرقة/ شعر

٣ـ مراود الحلكة / شعر

٤ـ حفلة الموت/ رواية

٥ـ المعنى خارج النص، أثر السياق في دلالات النص/ دراسة

٦ـ ملامح النص الضوئي/ دراسة

٧ـ سيميائية النص النسوي العماني/ دراسة

٨ـ مساءلة خطابات التلقي/ دراسة

ـ لو سمحت لي أن أبدأ بسؤال الذات: من هي (فاطمة الشيدي)، لمن تكتب الشعر، ماذا تريد منه، ماذا أعطاها، والى أين أوصلها، هل أوصلها إلى المكان الذي تريد؟

* فاطمة الشيدي هي ذاكرة من ورق، وهي كما كل الكتاب كائنات اختارت أن تحيا على هامش ورقة بيضاء كخيار وجودي صعب..

أما لمن أكتب الشعر" فلأنني ببساطة لا أجيد غير ذلك، فكل منا لا يجيد إلا ما يفعل، وإن اعتقدنا غير ذلك..

لا أريد من الشعر شيئا، لكنه أعطاني كل شيء، وأهم شيء هو الاكتفاء، فأنا أشعر أنني مكتفية به عمّا سواه، وأوصلني لحدود الأفق ولمستوى الوجع، لهذا صرت قادرة على التحليق، كما أنني قادرة على تذوق أوجاع الآخر، والإحساس به، وهذا أكثر ما قد أتمنى، وأقصى ما أريد.

ـ بصماتك واضحة في المشهد الأدبي العُماني والعربي، وتسيرين بشكل جيل في دروب الإبداع.. كيف على المؤلف أو المنتج الأدبي أن يبني جسورا للتواصل الدائم مع القارئ، عبر الرواية أو القصة، أو القصيدة؟

* في الحقيقة أعتقد أنني كالريح تخطو وتمحو آثارها، ولهذا لم أترك بصمات حقيقية على جريمتي الجميلة، ربما لأنني لازلت في مرحلة التخطيط، ويمكن أن يتحقق ذلك بعد التنفيذ بقليل!!

أما عن التواصل مع القارئ، فلا يكون إلا من خلال نص إبداعي يصل للمتلقي، ويجسد حالته تماما، فيشعر

لا أريد من الشعر شيئا، لكنه أعطاني كل شيء، وأهم شيء هو الاكتفاء، فأنا أشعر أنني مكتفية به عمّا سواه، وأوصلني لحدود الأفق ولمستوى الوجع، لهذا صرت قادرة على التحليق، كما أنني قادرة على تذوق أوجاع الآخر، والإحساس به، وهذا أكثر ما قد أتمنى، وأقصى ما أريد

وكأنه هو من كتبه!

ـ لعبت إبداعاتك دورا مهما في إطار القصيدة العُمانية، أين مكانك على خارطة الشعر العُماني؟ وما هو النوع الشعري المحبب إليك، هل هو العمودي، أم التفعيلة، أم النثر؟

* الخارطة الشعرية اليوم هي خارطة كلية، هذا في البدء، خاصة مع وجود الحيوات الرقمية، وهي في (عُمان)، وفي غيرها، مساحة مستوية، أي: لا سلالم لها، ولا مواقع عليا ودنيا. لذا فأنا إلى جوار الجميع! لذا أيضا أقرأ كل ما هو جميل، دون جنسنة النص، أو تفنيد أشكاله .

ـ أي جنس من الأجناس الأدبية التالية: الرواية، القصة القصيرة، القصيدة، له قراء أكثر، ودور أكبر في المشهد الأدبي العربي، ولماذا؟

* أعتقد بموضوعية – رغم أن الشعر وطني وعشقي– أن الرواية أصبحت تتصدر المشهد، وذلك لأنها تعكس حال المجتمعات، والناس، بشكل أعمق، وهي المهمة التي تخلى عنها الشعر منذ زمن ليصبح ذاتيا.

ـ هل من أسماء عمُانية معاصرة ظهرت في الشعر العُماني، والعربي، يمكن أن ينظر إليها بشيء من الدهشة والإعجاب؟

* بالتأكيد، هناك العديد من الأسماء الشعرية في (عُمان)، وفي الوطن العربي، تستحق الدهشة والإعجاب، كما أن هناك الكثير منها لا تزال قيد العتمة، وتحتاج بقعة ضوء حقيقية، لنبصر إبداعها.

ـ ما السبب برأيك في تخلي الشعراء عن الإيقاع، باتجاه قصيدة النثر، التي فتحت النص على مصراعيه، وجعلته سائباً؟

* سائبا.. كلمة لا أتفق معك فيها، لأن هناك محكّات ومعايير لنحكم على نص ما أنه شعر، سواء كان منفلتا من ربقة الوزن، أو ضمن قيده. أما السبب، فهو سنة التطور الطبيعية للحياة، وللنص، كما أعتقد.

ـ كيف على الشاعر أن يفرض سلطته على القارئ، يترك فيه أثراً عميقاً، ويوفر له المتعة الجمالية؟

* هل ينبغي عليه ذلك ؟! أما أن يترك فيه أثرا عميقا، ويوفر له متعة

جمالية، فذلك فقط كما أشرت سابقا "لا يكون إلا من خلال نص إبداعي يصل للمتلقي، ويجسد حالته تماما، فيشعر وكأنه هو من كتبه!"

ـ ما هي العوامل التي تساهم في ضعف الشعر العربي، وفي ضعف دوره وتأثيره في الحياة العامة؟ وهل ما زال للشعر دور في الحياة الاجتماعية والسياسية، كما كان في أيام جدنا الصحراوي؟

* تعدد منابر الحوار أسهم في تقليص دور الشعر، وتغيير أهدافه، وهذا ليس ضعفا، بل تجاوزا لأدوار أخرى كانت حتمية، بفعل طبيعة الحياة، كالدور الإعلامي والاجتماعي والسياسي.

ـ لماذا لم تستطع النصوص الشعرية الحديثة، المكتوبة كلاسيكيا، أن تقدم تلك النكهة الجميلة التي في النص القديم؟ وهل القصيدة العربية الحديثة في أزمة، مأزق، تعيش حالة من العزلة؟ وهل الأزمة هي أزمة قصيدة، أم أزمة شاعر؟

* لا تستطيع، لأنها مصنوعة غالبا، وليست حقيقية كما كانت، فالتغيير يكون من الداخل للخارج. أما الأساس الفني للشعرية، فليس في الشكل الجاهز، بل في عصب النص، الذي يمثل مبانيه ومعانيه، والشعر غالبا هو أزمة ومأزق في حد ذاته، والعزلة مادة جيدة للشعر والشاعر، فلعل هذا ينتج نصا جيدا بعد ذلك ..

أعتقد بموضوعية - رغم أن الشعر وطني وعشقي- أن الرواية أصبحت تتصدر المشهد، وذلك لأنها تعكس حال المجتمعات، والناس، بشكل أعمق، وهي المهمة التي تخلى عنها الشعر منذ زمن ليصبح ذاتيا

ـ الكثير من الأصوات تهاجم قصيدة النثر، ولا تعتبرها شعرا، حتى أن أحد أصدقائي الشعراء السوريين قال إنها جلطة أصابت قلب القصيدة العربية، وما زالت سيوف الأصالة تطاردها.. ماذا تقولين في ذلك، ما رأيك بقصيدة النثر؟

* قصيدة النثر ليست بحاجة لشهادتي بعد هذا المد، وكل هذه الأصوات المائزة، لكنني يمكنني أن أقول

لك إنني أكتبها بحب.

ـ شاعر المليون.. أمير الشعراء.. و... و... ما رأيك بهذه البرامج والمسابقات الشعرية، التي نشاهدها على الفضائيات، هل هدفها خدمة الشعر العربي، أم غير ذلك؟

* إنها برامج لشغل مساحة في الفضائيات، وتسلية المتفرج، وكسب الربح المادي. أما خدمة الشعر، إذا جاءت عفوا، فربما! ولكن أن تكون مقصودة ضمن الأهداف، فلا أعتقد!

ـ الحركة الشعرية العمانية، بشكل خاص، والحركة الثقافية العمانية، بشكل عام، كيف تنظرين إليها، وأين موقعها على خارطة الحركة الثقافية العربية، وعلى خارطة الحركة الثقافية الخليجية؟

* الحركة الثقافية في (عمان) متصاعدة نحو الأجمل دائما، وهي متنوعة بأجيالها، ومساراتها، وأشكالها. وهي بذلك في مكانها الواضح، والبارز، خليجيا وعربيا.

ـ كل مبدع سار في هذه الطريق الصعبة والعذبة، طريق الإبداع، لا بد أنه قد أرسى في أولوياته موقف القارئ من كتاباته، هل بإمكانك الاستغناء عن فعالية النقد، سواء كانت مكتوبة أو مسموعة؟ هل توافقين الناقد بكل ما يقول؟ وكيف هو النقد في (عُمان)، هل يرسم للعمل الإبداعي خطوطا مستقيمة، أم يشتته؟ وهل الصوت النقدي الجاد والحصيف والعادل غائب في (عُمان)، وفي عالمنا العربي؟ هل الناقد مثل شرطي المرور، إذا أعطيته مدحني، وإذا تجاهلته خالفني؟ وآسف على إطالة السؤال، وتشعبه.

* أنا أؤمن جدا بضرورة النقد كحالة إبداعية موازية للنص، أما مضمون النقد فهو ذاتي كالإبداع تماما، قد يكون متوافقا معي، أو مخالفا لي. والنقد لا يزال دون النص، ولا يجاريه في سبقه الإبداعي، في (عُمان)، وفي كل العالم العربي.

ـ كلمة حرة أخيرة لك.. ماذا تقولين.. لك حرية الكلام.

* أعتقد أن الحرية سلاح ذو حدين، واللغة أيضاً.. وبين حديهما لنستزرع غابات من الجمال والمحبة والسلام..شكراً لك..❐

توبة.. عراقية

د. أحمد جارالله ياسين

يـــــــــــا رب
أعترفُ بأنِّي أذنبتُ كثيراً
حين وَهَبْتَني وطناً من بترول
فأحرقتُه.. وكنتُ عجولاً..
وَوهبْتَني ماءً
فاندَلقَ كلِّه.. على أرصفةِ الغُرباء
وكنتُ جهولاً..
وَوهَبْتَني نَخيلاً
فَمَشَّطْتُ ضفائرَه بالشَّظايا..
وَوهبْتَني أجْملَ شجرةٍ للتُّفاح
لكنِّي عَشِقْتُ الهبوطَ إلى قصبِ المُستنقعات..
ووهَبْتَني أُمهاتٍ رقيقاتٍ
فَكسرتُ قلوبَهُنَّ بحجرِ الحروب..
وَوهبْتَني أقمشةً مُلوَّنةً
لكنِّي أسرفتُ بتجارةِ اللافتاتِ السُّودِ فقط..
وَوهبْتَني ساقين جميلتين
لكنِّي لم أفكِّر بالهرولةِ إليك
إلا الآن
وأنا أجلسُ فوقَ ركامٍ من الرماد والدخان
يُسمُّونَهُ (الخراب)..
وإنْ كُنتَ – سُبحانك –
علَّمْتَني
قبلَ الملائكة
أنَّ اسمَهُ
(وطنٌ !)
لكنِّي نَسيت..❐



المصالحة الوطنية الحقيقية



صلاح سعيد أمين
Selah1434@gmail.com

لسنا بحاجة إلى أدلة ملموسة لكي نثبت أن كل ما جرى تحت اسم (المصالحة الوطنية)، بعد الغزو الأمريكي للعراق سنة ٢٠٠٣، أي طوال العقد الماضي، لم يضف شيئاً باتجاهها، بل بقي الوضع المأزوم بين المكونات المتناحرة، وباختصار زاد الطين بلة، وإن كان هناك من يشك في حقيقة ذلك، فليتابع ما يُقال اليوم بعد تشكيل الكابينة الحكومية الجديدة، برئاسة الدكتور (حيدر العبادي)، عن محاولات باتجاه تحقيق (المصالحة الوطنية). وهناك دليل على أن ما جرى في السابق، تحت هذا العنوان، لم يثمر شيئاً، ولم يكن سوى تبادل للقبلات، والجلوس على موائد دسمة، على حساب المال العام.

وبعد محاولات ومبادرات فاشلة باتجاه تحقيق الوئام بين المكونات المتنازعة، يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار أن فشل المحاولات السابقة، لتسوية المشكلات العالقة بين الفرقاء المختلفين، وربما الاعتماد على مشاركة رمزية، أو غير شاملة، لكافة ممثلي طائفة معينة في (العراق)، أصبح قياساً كافياً للمشرفين على مبادرات (المصالحة الوطنية) في السابق. وينبغي التركيز بدقة على كل من عارض العملية السياسية، واختار مساراً آخر، بما فيه اللجوء إلى العمل المسلح ضد الحكومة في (بغداد). وليس من مهام (المصالحة الوطنية) أن تجتمع بالمشاركين في العملية السياسية على مائدة واحدة، وتنتهي ببلاغ مشترك بينهم، بل المهمة الرئيسة لأي مبادرة من هذا النوع، هو أنها يجب أن تنبع من عمق الأزمة، وتدق أبواب كل الفصائل المعارضة للعملية السياسية، وتستمع بجد وإخلاص إلى كل من أجبر على اختيار مقاطعة العملية السياسية، إذ لا يُعقل أن يختار المواطن التمرد على السلطة، والعصيان على من يحكمون بلاده، دون ذرائع معقولة. ومن مهام (المصالحة الوطنية) الحقيقية أيضاً، أن تزيل كل الأسباب التي أدت الى التنازع والتناحر والتباعد بين المكونات المختلفة، قبل أن ترسل دعوة المشاركة لأشخاص معينين من طائفة معينة، ربما يكونون موالين للحكومة، وبالتالي فإن مشاركتهم لن تغير شيئاً من المعادلة. وعلى المشرفين على مثل هذه المبادرة، أن يعلموا جيداً أن المصالحة لا تؤتي ثمارها في غياب أي حزب سياسي أو عشيرة أو مجموعة، حتى داخل مكون واحد، وليست بالعملية الصعبة أن تجري محاولات للاتصال المباشر بكل من هو خارج العملية السياسية، وأن تفتح قنوات الحوار المباشر مع المجموعات المسلحة، من أجل تحقيق المصالحة.

نحن لا ننظر إلى (المصالحة الوطنية) باعتبارها العصا السحرية لحل المشكلات العالقة بين المكونات المختلفة، ولكننا نعلم أيضاً أنها ستقلل من مساحات الاختلاف والنزاع بين الفرقاء المتنازعين، وستوسع مساحات العيش المشترك والوئام بينهم، وهذا ما نؤمن به، ونأمل أن يتحقق في العراق عاجلاً لا آجلاً.. إن شاء الله❐


أخبار وتقارير

(الاتحاد الإسلامي الكوردستاني)

يستذكر شهداءه في أحداث بهدينان الأولى



متابعة وإعداد:

المحرر السياسي

يحيي (الاتحاد الإسلامي الكوردستاني) في السادس من كانون الأول من كل عام، ذكرى ارتقاء كوكبة من كوادره شهداء في الأحداث المؤلمة التي وقعت بمنطقة (بهدينان) سنة ٢٠٠٥.

وسقط أربعة من كوادر (الاتحاد الإسلامي الكوردستاني)، وهم: (مشير أحمد، شفيق رشيد كيستيي، عبد الرحمن سليم هروري، وعصمت بندي)، شهداء على أيدي مجموعة مسلحة متنفذة في (بهدينان)، بعد مداهمة ونهب جميع مقرات الحزب، وحرقها، في مدن: دهوك، وزاخو، وسميل، وغيرها.

ووجه الأمين العام للاتحاد الإسلامي الكوردستاني (محمد فرج) هذا العام رسالة في ذكرى هذه الفاجعة الأليمة التي مرت عليها تسعة أعوام.

وجاء في رسالة الأمين العام، والتي حصلت (الحوار) على نسخة منها بالكوردية: "يوم (١٢/٦) يوم الوفاء لعروج وارتحال الأرواح الطاهرة في منطقتكم، أولئك الأبرار الكبار الذين ارتقوا بكبر الحياة، وتركوا للجميع الكبر، وكتبوا تاريخهم الكبير بأرواحهم وأموالهم وأعمارهم".

وأضاف الأمين العام في رسالته: "أولئك الأبرار أعطوا دروس الوفاء لبرنامج وتجربة (الاتحاد الإسلامي الكوردستاني)، مردفاً بالقول: "أولئك هزموا العذابات والآلام، وضحوا لأجل أن يبقى اتحادكم، قدوة، وفاعلاً،

وممتـداً"، متابعـاً: "أولئـك، بأعمـارهم، وشـهادتهم، ورمـاد مقـراتهم، قـدموا شـهادة للتـاريخ بـأن (الاتحـاد الإسـلامي الكوردسـتاني) جـذوره ثابتـة، وغـير منقطعـة، رغـم أن العـذابات والآلام، وصعوبات الحياة، تفوق تحمله وطاقاته".

وخاطـب الأمـين العـام في رسـالته ذوي الشـهداء، قـائلاً: "وأنـتم يـا عوائـل الشـهداء، يـا كـوادر وأعضـاء ومناصـري (الاتحـاد الإسـلامي الكوردسـتاني) في منطقة (بهدينان)، أنـتم ورثـة تلـك الرسـالة والصـمود والقـدوة المعنويـة الـتي تركهـا لكم الخالدون، يجـب علـيكم أنـتم أيضـاً أن تثبتـوا جـدارتكم بهـذا المـيراث المعنـوي الكـبير الـذي تركـه لكـم الخالـدون، أنـتم أثبـتم جـدارتكم عنـد الله تعـالى فاختـار (سـبحانه) شـهداء مـنكم... نحـن واثقـون بأنكم الأجـدر، وننتظـر مـنكم الكـثير، ومـا النجاحـات الـتي حققتموهـا في انتخابـات مجلـس النـواب إلا تجسـيد لجـدارتكم، ولأنكـم حظيـتم بالتفاتـة ربانيـة، يقـع علـى عـاتقكم دور تـاريخي، فـأنتم وشـهداؤكم أعلنـتم لجميـع أعضـاء (الاتحـاد الإسـلامي الكوردسـتاني) بـالقول: نحـن كـبراء باتحادنا، ورفعة الاتحاد الإسـلامي هـو فخـر ورفعـة للجميـع.! شـهداؤكم هـم شـهداء مسـيرة الإصـلاح، وهـم أعـلام الحريـة والعدالة، ولهـذا الهـدف ضـحوا بـأرواحهم، وجعلـوا اتحـادكم ومنطقـتكم رمـزاً للتضـحية بالمصـالح – وحتـى بـالأنفس – لأجـل أن يبقـى (الاتحـاد الإسـلامي الكوردستاني) حيـاً قويـاً مسـتمراً في خدمـة الناس والأرض والدين".

وسمـى (الاتحـاد الإسـلامي الكوردسـتاني) يـوم (١٢/٦) يـوم الوفـاء لكـوادره وأعضـائه الـذين ارتقـوا شـهداء أو متـوفين، حيـث يجـري تنظـيم مراسـم خاصـة في جميـع المراكـز التنظيميـة بعمـوم إقليم كوردستان.

وقـام المركـز الثالـث في (دهـوك) بتنظـيم معـرض فـوتغرافي، جسّـد التـاريخ الـدعوي والتربـوي لشـهداء أحـداث (بهـدينان) الأولى، بمشـاركة مـن رئـيس المجلـس القيـادي المركـزي (محمـد رؤوف)، ورئـيس المجلـس القيـادي في بهـدينان (سعيد علي عبـو)، وجمـع غفـير مـن أعضـاء وكوادر ومناصري الحزب في المنطقة.

هـذا ومـن الجـدير بالـذكر أن أحـداث اقتحـام ونهـب وحـرق مقـرات (الاتحـاد الإسـلامي الكوردسـتاني) تكـررت أيضـاً في ٢٠١١/١٢/٢ في منطقـة (بهـدينان)، بصـورة مشـابهة لأحـداث ٢٠٠٥/١٢/٦، نفـذتها مجموعـات مسـلحة محسـوبة علـى السلطة في محافظة دهوك ❐

المنتدى الإسلامي العالمي يعقد جلساته بموسكو و(القره داغي) يتقلد وسام الفخر



عقدت في(موسكو) عاصمة (روسيا الاتحادية) ، أيام الأربعاء والخميس والجمعة، ١٠ – كانون الأول، ولغاية ١٢– كانون الأول/ ٢٠١٤، جلسات (المنتدى الإسلامي العالمي)، بحضور وفود من أكثر من ٢٠ دولة، ومن بينهم (الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين)، والذي مثله فضيلة الشيخ الدكتور (علي محي الدين القره داغي) الأمين العام للاتحاد.

وعقد المنتدى جلساته تحت شعار (رسالة الدين، ومسؤولية أتباعه في مواجهة تحديات العصر)، بمشاركة كل من: الإدارة الدينية لمسلمي روسيا الاتحادية، والاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، واللجنة الروسية لشؤون اليونسكو، ومعهد بلدان آسيا وأفريقيا للدراسات والأبحاث العلمية، التابع لجامعة موسكو الحكومية، وكلية الدراسات الشرقية في جامعة سانت – بطرسبورغ، ومعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم الروسية، ووزارة

الشؤون الدينية لجمهورية تركيا، ومجلس المفتين في روسيا الاتحادية، وصندوق دعم الثقافة الإسلامية والعلوم والتعليم، والمعهد الإسلامي في موسكو، وجامعة المصطفى العالمية في إيران.

ويهدف المنتدى إلى تعريف العالم بالوسطية الإسلامية، ومواجهة التطرف، وتحذير المسلمين من الغلو والتنطع، وتفنيد ذرائع الجماعات المتشددة، والتي باتت تشكل تحدياً كبيراً يواجه الأمة الإسلامية، وتسيء إلى صورة الإسلام الصحيح.

وألقى فضيلة الشيخ الدكتور (علي القره داغي) – الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين – كلمة في افتتاح المنتدى الإسلامي العالمي العاشر، أكد فيها أنه: "لا مجال للكره إذا أراد العالم أن يكون هناك بناء وتنمية ونمو، حيث الكراهية عدو البناء".

وأضاف:"إن الله (عز وجل) خلق الناس واستعمرهم في الأرض، وجعل الأرض ممهدة للأنام جميعاً، فلا يصح أن يسعى أحد –مهما كان– لاستعمار الأرض جميعاً، على حساب الآخرين، فالجميع شركاء في تعمير الأرض، حيث يجب التعايش والحوار وحسن الجوار ووقف الحروب والكره والاستعمار، الذي تديره دول الآن على مستوى العالم، ولن تفلح في توجهها أبداً".

وقلد فضيلة الشيخ (راوي عين الدين) – رئيس الإدارة الدينية المركزية لمسلمي روسيا الاتحادية، ورئيس مجلس المفتين بروسيا – فضيلة الدكتور (علي القره داغي) وسام الفخر، وهو أعلى وسام لدى الإدارة الدينية ومجلس المفتين في روسيا الاتحادية.

وألقى الشيخ (راوي عين الدين)، كلمة أثنى فيها على الدور الكبير للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين ورئيسه وأمينه العام في خدمة الإسلام والمسلمين، وفي نشر الفكر الوسطي المعتدل، كما أهدى الشيخ (علي القره داغي) درع الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، بمناسبة مرور (١٠) سنوات على تأسيسه، إلى فضيلة الشيخ (راوي عين الدين).

وقدم الشيخ القره داغي في الجلسة الختامية للمنتدى الإسلامي العالمي بحثاً علمياً بعنوان "الحوار وقيم التسامح في الإسلام، للوصول إلى التعايش السلمي، فتحقيق السعادة والرحمة للعالمين"❒

تقرير

سنغرق إن لم تنقذونا!



محمود وليد

هكـذا كانت عبارات نازحي مخيّم (بحركة)، تتطاير في السماء بأصوات مبحوحة تفتقد لمن يسمعها، لتتوحل مطالبهم البسيطة بطين ممزوج بالمياه الراكدة، وسط ضريبة الّوطنية الواحدة التي أبت أن تمنح وطناً يُعتمد عليه.

الصورة هنا تكمن بـ ٥٠٠٠ نازح عراقي في مخيم (بحركة)، الواقع شمال غرب مدينة أربيل، والذي دُمرت فيه الخيم الشحيحة إثر الأمطار الغزيرة بنسبة ٧٠٪، لتبقى الخيم الأخرى مستعدة لسباق الهبوط الأخير كأقرانها.

التساؤلات هناك تراكمت حول مسؤولية بناء كرافانات دافئة تحمي الأطفال الجياع من دوي البرق والرعد، وتخفف بحار الماء النازلة من السماء عن كاهل الرجال والشيوخ، وتعيد نظام التربية الهادئة للأمهات الحائرات بمستقبل مجهول لأطفالهن. فمن عجائب الدنيا، التي من الضروري إضافة الأعجوبة الثامنة لقائمتها: أن يمتلك العراق ثاني أكبر احتياطي من النفط الخام في العالم، بينما يتكرم على أبنائه بعدم حمايتهم من برد ولا حر، في ظل تناحرات سياسية مقلقة تتفاقم يوماً بعد يوم، وعجز اقتصادي كبير هز عرش البلد، بسبب سياسات رئيس الوزراء السابق (نوري المالكي)، وعلاقاته الدولية المضطربة مع دول الجوار، وغياب التنمية الاستثمارية للمشاريع العامة، وحتى الخاصة، التي لا يسمح بتنفيذها، وارتفاع معدلات الخروقات الأمنية، والسياسات البدائية والمتحيزة في إدارة البلاد، والتي أخذت ثمانية سنوات مؤلمة في تاريخ الشعب العراقي، مما أدى إلى وصول عدد النازحين العراقيين –حسب مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة– إلى (٢٢٠٠٠٠٠)، في مختلف أنحاء البلاد، والأعداد في زيادة مستمرة، والحبل على الجرار..

فنزحت إلى محافظات بغداد والبصرة والنجف والناصرية وكركوك وزاخو والسليمانية ودهوك وأربيل، أعداد كبيرة من النازحين، كان للأخيرة حصة الأسد منها، بدخول (١٣٦٩٢٠) نازح في أراضيها. هذا النزوح الجماعي لم يلق اهتماما ورعاية لائقين، من قبل الحكومات المحلية، ولا الاتحادية، وهي التي تجردت عن مسؤولياتها



تجاه هؤلاء، متذرعة بعدم امتلاك الميزانية الكافية لحماية النازحين وتوفير احتياجاتهم بحكم سيادة ظروف اقتصادية صعبة وعجز مالي خانق في ميزانية البلد المسكين، وحكومة إقليم كوردستان هي الأخرى تكلمت بلغة المغبون المشترك في العملية المالية، وعدم إمكانياتها لاستيعاب هذه الأعداد الهائلة، بسبب قطع حصتها المالية في الميزانية من قبل الحكومة المركزية في بغداد، وجاءت (الأمم المتحدة)، هي الأخرى، معلنة عن استمرارها في إرسال المساعدات والخيام للنازحين، مع وعود بتوفير خدمات أكثر لإشباع حاجاتهم، دون مراقبة ومتابعة دقيقة لمدى مصداقية ممثليها، والجهات المتعاونة معها، في إيصال هذه المعونات والخيم للنازحين، وبالتالي سيادة الفساد وسرقة الأموال. حتى وصل الدور إلى (وزارة الهجرة والمهجرين) بقولها إن مسؤولية توفير كرافانات للنازحين ليس ضمن نطاق نشاطات الوزارة، وأن مهمتها تقتصر على توزيع مبلغ (المليون) دينار فقط، وأي مليون يجر النازحين إلى الذُل، والوقوف مدة ٤ ساعات في طوابير طويلة، تتخللها عبارات الصراخ في وجه النازح المبتلى، من قبل موظفي الوزارة.

لم تنته قصة التنازلات، فهذه الأطراف كشفت عن رواياتها وفلسفاتها، وبقي الشخص غير المناسب في المكان الذي لا يستحقه، الممثل برئيس لجنة الهجرة والمهجرين (صالح المطلك)، صامتاً في حجرته السيادية، كالمتفرج الدقيق على الأحداث دون حراك، في ظل اجتماعات طويلة غير مفيدة، يرجى منها استحصال أموال يُعرف منبعها، ولا يُعرف أين مصبها، علماً أن هذه اللجنة هي المسؤول الأول – حسب الدستور العراقي، وتنظيمات ووظائف التشكيلة البرلمانية– لرعاية المهجرين والنازحين... ولكن أسمعت لو ناديت حيا .

لم يكن مخيم (بحركة) محور الأزمة، بل اشتركت المحافظات الأخرى، باختلاف آهاتها، فكانت مخيمات (دهوك)، هي



الأخرى، سيدة الموقف: ففي (مخيم شاريا) اضطرت (٢٠٠٠) عائلة أن تنام في العراء، بسبب عدم مقدرة خيمها المتواضعة على مقاومة الأمطار، والنتيجة مقتل (١٥٠٠) طفل، إثر تفشي الأمراض المعدية، والفتاكة بطفولتهم، التي لم تتعد حدود الـ ١٢ عاماً.

أما محافظة (كركوك)، فكانت القطب الآخر في حكاية النازحين، فقد حدثني من أثق به أثناء زيارته لمخيم (ليلان)، أنه سمع قصصاً تشيب لها الوِلدان، حيث أخبره أحد الآباء بعدم تحمله عيشة المخيم لبُنيات كان يرعاهن، فقام باستئجار بيت صغير للسكن، ظناً منه أن أمره لن يطول، ومع تزايد الشهور وقساوة أيامه، صار الأب غارقاً في الديون، وهنا جاء دور ضعاف النفوس، أي صاحب البيت، والذي أخذ يبتز الأب، حتى باعه إحدى بناته ليزوجها له، رغماً عنها، وعنه، ليتمكن من دفع الإيجار، الأمر الذي أدى إلى بقاء العوائل داخل الخيم، وتحمل الغرق في بحار الأمطار، على أن يتحملوا بيع بناتهم! والسؤال هنا: من يتحمل مسؤولية هذا الضياع؟؟ أليس كل من روج للطائفية والعنصرية، ولعب على أوتارها، من أجل المناصب، كان سبباً لولادة هذه الآلام؟!..

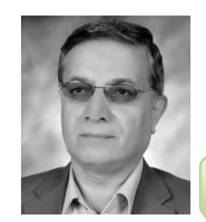
صرخات تصول وتجول في المخيمات المتفرقة، وهياكل البنايات المفتوحة، وفي المدارس التعليمية، وعلى الأرصفة، وفي الشوارع، في محافظات عدة، لن تكفي الأوراق لتحصي عناوينها، وأرقامها، وحكاياتها الحزينة

"ما ذنبنا"....

كانت هذه آخر كلمة استفهامية نطقها النازحون هنا وهناك، فهل سيعيشون يوما بائساً جديداً، أم سينتظرون اللحظات القليلة القادمة، لتضعهم في الأكفان، وتقول لهم: رحمكم الله، إذ لم يرحمكم البشر❑



انفصام في الشخصية العراقية



محمد واني

✍ يمتلك العراقي خصوصية ثقافية ودينية تختلف عن الشعوب الأخرى في المنطقة، وجاءت هذه الخصوصية من شخصيته المتناقضة، التي لا تستقر على حال: تراه مثقفا ثقافة تقدمية متطورة، ويمتلك شهادات عالية، ولكنه يقف عاجزا ورجعيا حتى النخاع أمام الشعائر الدينية الجامدة، ولا يختلف حاله عن حال أي جاهل. وقد تراه كريما، شهما، يأبى الضيم على نفسه، وعلى جيرانه، ولكنه مع ذلك يتمتع بدرجة عدائية عالية، ولا يتوانى عن الغدر والقتل، بطريقة قاسية جدا، يصعب على العقل في بعض الأحيان تصورها، كما في المقابر الجماعية والأنفال وحلبجة، وما يجري اليوم من خطف وقتل على الهوية.

فهو بدوي حتى النخاع، يتحلى بكل صفات البداوة المتناقضة، من خشونة ورعونة وبطش، وكذلك: كرم ووفاء وشجاعة وأصالة، إلى درجة لا يستطيع الحضري- بحسب العالم السوسيولوجي العراقي الدكتور (علي الوردي)- أن يدانيه فيها. هذه الشخصية المتناقضة المعقدة أخذت حظها من التحليل والتدقيق، من قبل علماء بارزين، وعلى رأسهم الدكتور(الوردي)، الذي لم يترك جانبا منها دون أن يشبعها بالبحث والتحليل العلمي الرصين، وخلص إلى نتيجة مبهرة، وهي أن العراقي يحمل طابع النفاق في داخله: يقول شيئا، ويفعل شيئا آخر ضده، يعتقد بشيء، ويفعل نقيضه، يجمع داخله شخصيتين مختلفتين: البداوة والحضارة في آن معا، تراه (أفنديا) مهندما، يظهر التقدم والثقافة، ولكنه في حقيقته رجعي يحكم أهل بيته بالحديد والنار، يدعو إلى العفة والفضيلة، ويدافع عنها، ولكنه إذا سنحت له الفرصة، فلن يتورع عن الانحراف عنها. فهو كما يقول (الوردي): "أقل الناس تمسكا بالدين، وأكثرهم انغماسا في النزاع بين المذاهب الدينية، فتراه ملحدا من ناحية، وطائفيا من ناحية أخرى"، كثيرا ما يدعي الوطنية وحب الوطن باللسان، ولكنه يعمل على تفكيك الوطن وتقسيمه. يدعو إلى مكافحة الفساد، ولكنه غارق حتى أذنيه في وحل الفساد.. وقد رأينا قبل فترة عالما في الذرة، ووزيرا لأعلى مؤسسة تعليمية في البلاد، كيف كان ينهمك في تلاوة قصة (مقتل الحسين)، بصوت حزين، و(آخرون)، على أعلى المستويات في الدولة، يبكون نائحين على وقعه.. الشخصية العراقية شخصية انفصامية بحاجة إلى دراسة أعمق..!❐

